obeikandl.com

ممنـوع اللـمـس

ممنـوع اللمــس
قصص سلوفاكية معاصرة من الأدب النسائي

ترجمة / د. خالد البلتاجي
الغلاف / هانيــبـال هيبــو

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من سلوفاكيا
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع:١٥٧٣٩ /٢٠١١
ISBN: 978 – 977 – 6299 –30 - 6

ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية
Sphinx Agency © 2011

obeikandl.com

ممنوع اللمس

قصص سلوفاكية من الأدب
النسائي المعاصر

ترجمة
د/ خالد البلتاجي

وكالة سفنكس

obeikandl.com

المترجم

د. خالد البلتاجي من مواليد محافظ الغربية في جمهورية مصر العربية ١٩٦٥. نال درجة الدكتوراة من جامعة شارل براغ بالجمهورية التشيكية. عمل أستاذاً للغة العربية وآدابها في جامعة براتسلافا بسلوفاكيا، ويعمل حالياً أستاذاً للغة التشيكية بجامعة عين شمس بالقاهرة. عمل مترجماً معتمداً لدى السفارتين التشيكية والسلوفاكية بالقاهرة. ترجم إلى اللغة العربية من الأدب التشيكي والسلوفاكي العديد من الأعمال، كان آخرها رواية الأديب السلوفاكي "يان هروشوفسكي" (رجل بقلب صناعي)، ورواية الأديب التشيكي "ميلان كونديرا" (الخلود). وهو عضو في إتحاد الكتاب المصريين.

مقدمة المترجم

تعد هذه المختارت - وهى الأولى من نوعها في المكتبة العربية - إطلالة على الأدب السلوفاكي، الذي كان مستغلقاً لفترة طويلة على القارئ العربي. فقد عاش الأدب السلوفاكي فترة طويلة في ظل الأدب التشيكي، الذي تصدر الساحة الأدبية العالمية من خلال ممثليه، من أمثال "ميلان كونديرا "و فرانس كافكا". سيطر الأدب المكتوب باللغة التشيكية على الحياة الثقافية حتى الثورة المخملية في تشيكوسلوفاكيا السابقة عام ١٩٨٩. بعد تأسيس الجمهورية السلوفاكية في عام ١٩٩٣ بدأت معالم الأدب السلوفاكي تظهر للقارئ الأجنبي، كأدب مستقل، يمثل شعباً - طالما احتفظ بكيان ثقافي مستقل - سواء في إطار الامبراطورية المساوية المجرية حتى

مطلع القرن العشرين، أو في إطار جمهورية تشيكوسلوفاكيا منذ نهاية أربعينات القرن العشرين وحتى عام ١٩٩٣.

بدأت بوادر هذا الأدب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع تقنين اللغة السلوفاكية، واتخاذها لغة رسمية للأدب. أفرزت تلك الفترة أعمالاً رائدة في الكتابة الأدبية؛ وخاصة تلك التي تعالج قضايا المرأة في ذلك الوقت. من رواد هذه الفترة في الأدب النسائي السلوفاكي الكاتبة (بوجينا سلانتشيكوفا)، المعروفة باسم تيمرافا (١٨٦١ – ١٩٥١) التي لم تتعاطف مطلقاً مع حياة القرية التي صورها رواد الواقعية في الأدب السلوفاكي - أمثال (ميلان كوكوتشين) - . رفضت كل الصيغ العاطفية المبتذلة؛ التي تصور فشل قصص الغرام، واعتداد الطبقة الوسطى بنفسها. راحت ترسم في قصتها الشهيرة "من أتزوج؟"؛ حكاية شابة متمردة على التقاليد، ذهبت إلى القرية لتبحث عن رجل تتزوجه.

شهدت نهاية الثلاثينات من القرن الماضي تنامي تيار جديد في الكتابة النثرية؛ وهو ما يعرف بتيار النثر الطبيعي أو الغنائي الذي خفت في الأربعينات - وهي فترة ظهور مؤقت للجمهورية السلوفاكية المستقلة (١٩٣٩ – ١٩٤٨). فبدلاً من تحليل المتغيرات في الريف السلوفاكي، حدث تحول حتى عن تناول حالات القلق في المدينة، إلى معالجة مسألة الحرية والعزلة والعودة إلى الطبيعة، مستثمراً قوالب القَصَص الشعبي . ظهر في هذه الفترة التأثير الكبير للأدب الفرنسي - (تشارلز فرديناند راموز وجان جيونو) - على كتابات الأدباء السلوفاك. من الأسماء التي لمعت في تلك الفترة الأديبة مارجيتا فيجولي (١٩٠٩ – ١٩٩٥)؛ والتي بدأت حياتها الأدبية بمجموعة قصصية قصيرة بعنوان "إغراء" ١٩٣٧. تتحدث فيها عن الحب والمشاعر في حياة امرأة شابة. استوحت موضوع روايتها التالية - "ثلاثة أحصنة كستنائية" ١٩٤٠- من الحياة في بلدتها الريفية "أورافا". أبطال الرواية ثلاث شخصيات محورية، هم "بيتر" الشاب البسيط و"ماجدولينا" الحبيبة و"جان"- مهرب الخيول الغني. تصور فيها انتصار الشاب النقي الأمين "بيتر" على الإقطاعي الغني، ومهرب الخيول "جان"؛ الذي لقي حتفه تحت أقدام حصان هائج. الأمر الذي جعل"ماجدولينا" - زوجته والتي كان"بيتر" قد تقدم لطلب يدها من قبل - أن تتعاطف مع الأخير . يتصاعد الجو العاطفي للرواية من خلال الثلاثي الرمزي؛ وهو الخيول الثلاث والحب والشجاعة . وفي النهاية ينتصر الخير على الشر في عالمها القصصي بقوانينه الخاصة. تحولت الأديبة بعد ذلك إلى الكتابة التاريخية، فأصدرت رواية "بابل" ١٩٤٧. تصور فيها سقوط وانهيار إمبراطورية الكلدانيين على يد الفاتحين الفرس .

من الكاتبات البارزات في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، واللآتي ترجمت أعمالهن إلى اللغات الأجنبية هي الأديبة "كلارا يارونكوفا" (١٩٢٢– ٢٠٠٥). تتميز كتاباتها بسحر فريد، وإحساس مرهف. بدأت حياتها الأدبية بالكتابة للشباب، ومن أول هذه الأعمال قصة "مذكرات بطل" ١٩٦٠. واصلت هذا التوجه في أعمالها التالية، ومنها: "الوحيدة" ١٩٦٣ و "الشارد" ١٩٧٣. تجنبت "يارونكوفا" استخدام اللهجات المحلية في كتاباتها للشباب - على عكس الاتجاه الذي كان سائداً في مثل هذه الأعمال الأدبية في ذلك الوقت .

هذه المختارت التي نقدمها اليوم، والتي يمكن أن نطلق عليها مجازاً (حديقة أزهار سلوفاكية) تضم ثمان وعشرين قصة قصيرة لعشرة أديبات سلوفاكيات، تمثلن جيل من الأدباء، يطلق عليه جيل الأدباء الشباب في مرحلة ما بعد ثورة ١٩٨٩، عندما اختفى من الأدب السلوفاكي مصطلحي الأدب الرسمي والأدب المحظور؛ اللذان كانا سائدان في فترة الحكم الشيوعي. مصطلح الأدباء الشباب هنا لا يعني فقط عمر الأديب نفسه، ولكن أيضاً الفترة الأدبية التي كتب فيها، أو بدأ ينشر أعماله خلالها. وهى مرحلة ما بعد الثورة المخملية ١٩٨٩.

لقد توقف الأدب في ضوء المتغيرات الجديدة بعد الثورة -خاصة تلك الأشكال التي لا تطمح إلى لعب دور اجتماعي أو سياسي- عن دور المفوض، والنائب عن صوت الشعب في مواجهة الأدب الرسمي الموجه. مما أحدث تغيراً في مؤسسة الأدب. وتوقف الأديب عن لعب دور المطرب، الذي يقود فريقاً قومياً. هذا الدور الذي يسمى بضمير الأمة. لم يعد الأديب، ذلك الرجل الذي يرعى الأخلاق ويحميها. بل صار إنساناً يرى الأشياء، والعالم من حوله بطريقته الخاصة، ومن منظور فردي بحت. فلم تعد أفكاره الأدبية تأخذ شكلاً موضوعياً وجماعياً، وتمثل مجتمعاً بأكمله. بل صارت أعماله الأدبية مجرد موضوعات للمناقشة بين طرفين متساويين؛ بين الأديب والقارئ. هذا التحول في مفهوم الأديب والأدب يعد إجابة على سؤال يطرح نفسه دائما، وهو: لماذا تخلى الأديب عن دوره الريادي في صنع رواية اجتماعية شاملة؟ راح الأدباء يفضلون القصة القصيرة، أو الطويلة التي تسهب في التفاصيل، وتفضلها عن النظرة الشاملة. إن نزول الأديب إلى القارئ، وانخراطه وسط الناس يعد سمة أساسية من سمات الأعمال الأدبية الجيدة في عصر ما بعد الحداثة. لم يعد الأديب يسعى إلى وضع مفاهيم، وقوالب جاهزة للقارئ. لم يعد يصنع عالماً يعيش فيه القارئ ويتابعه، دون أن يشارك فيه. على العكس، يعمل الأديب على فتح آفاق للمشاركة، والتفاعل الإيجابي

مع القارئ. التعاون في تشكيل مفهوم العمل الأدبي. البحث في العمل الأدبي عن معان قد لا يدركها الأديب نفسه. إنه مدخل ديموقراطي إلى الأدب. يعتبر الأديب قارئه شريكاً مساوياً له، يسهم في العمل الإبداعي تماماً مثل الأديب. وهكذا تصير القراءة إبداعا؛ شأنها شأن الكتابة.

هذه "الشخصنة" الأدبية والنزول بالأدب وسط جموع الناس، ليست سمة الأدباء الشبان في فترة ما بعد الثورة. بل هي امتداد لفترة التحرر النسبية التي بدأت في الستينات. شكلها وأبدع فيها مجموعة كبيرة من الأدباء، الذين مازالوا يشاركون في الحياة الأدبية السلوفاكية بنفس القوة، وبكفاءة لم يبلغها العديد من أبناء الفريق الآخر من الأدباء الشبان المعاصرين. بل ويمكن القول أن عدد قليل من هؤلاء الأدباء الشبان الذين دخلوا عالم الأدب في السبعينات أو الثمانينات من القرن العشرين استطاع أن يبلغ بإبداعاته الأدبية مستوى جيل الستينات.

تضم المختارات التي بين أيدينا مجموعة من أبرز الأديبات على الساحة الأدبية السلوفاكية في الوقت الراهن. تهتم كل واحدة منهن بقضايا المرأة، كل على طريقتها الخاصة. تعالجن القضايا التي طالما شغلت المرأة ومازالت، مثل المساواة في الحقوق مع الرجل، البحث الدائم عن الحب، والرومانسية، والإحباطات من شريك الحياة ومن المجتمع، الإخفاق في الحب والعلاقات الإجتماعية والبحث الدائم والدؤوب عنه. إنها مجموعة من القصص القصيرة، تنقلنا إلى عالم المرأة؛ في فترة ما بعد الثورة المخملية. يمثلها جيلان من الأديبات. الجيل الأول تمثله الأديبات الخمسة الأولى حسب ترتيبهم في هذه المختارات. وهو جيل شارك في تأسيس الحركة الأدبية النسائية المعاصرة، ويمثل جسراً قوياً ينطلق منه الجيل التالي؛ والممثل في باقي الأديبات في هذه المختارات. وسنلقي مزيداً من الضوء على كل أديبة منهن، في صدر كل مختارات من أعمالها في ثنايا هذا العمل.

في النهاية لابد من توجيه الشكر للأديبة والفيلسوفة السلوفاكية "اتيلا فركاشوفا" على جهودها في اختيار الأسماء والأعمال المترجمة في هذه المختارات. وكذلك كل الشكر للسيدة "اينا مارتينوفا" من مركز دعم الأدب السلوفاكي ببراتسلافا على جهودها الدؤبة، ودعمها المتواصل لهذه المختارات.

المترجم

اتيلا فركاشوفا

Etela Farkašová

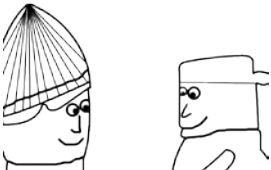

"اتيلا فركاشوفا" (١٩٤٣) هى أديبة وفيلسوفه سلوفاكية. تعمل منذ ١٩٧٢ في قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة كومنسكيوهو، في العاصمة براتسلافا. ترأس منذ عام ١٩٩٣ قسم الفلسفة بكلية الآداب. كانت عضو هيئة التحرير لمجلة "الفلسفة" (١٩٨٦ - ١٩٩٠)، وعضو اتحاد الفلاسفة السلوفاك (١٩٩٣ - ١٩٩٦). هى أيضاً عضو في أكاديمية العلوم السلوفاكية في براتسلافا، واتحاد الكتاب السلوفاك. تهتم "فركاشوفا" بنظرية المعرفة؛ وبخاصة المعرفة التجريبية والعقلية والحسية، كما تدرس العلاقة بين الفن والعلم. تهتم في السنوات الأخيرة بمجال البحث في الفلسفة النسائية، وتمارس الكتابة الأدبية من خلال قصص قصيرة وروايات، تتركز بشكل أساسي على قضية المرأة في المجتمع المعاصر. تتعاون مع الإذاعة والتلفزيون السلوفاكي، وتترجم من اللغة الألمانية والانجليزية. تعمل في الوقت الحالي أستاذة في قسم الفلسفة وتاريخ الفلسفة ببراتسلافا، وتهتم في الوقت نفسه بقضية المرأة والأدب النسائي. ظهرت قصصها في مختلف المختارات، وترجمت أعمالها إلى العديد من اللغات؛ من بينها الألمانية والانجليزية والتشيكية والرومانية واليابانية.

obeikandl.com

قهوة مع "باخ" وشاي مع "شوبان"

سحرتها هذه الجملة، التي كانت جزء من إحدى القصائد. ربما ما أعجبها هو أن صديقتها هي التي كتبتها (لم يلتقيا كثيرا، ما يهمهما -كما اعتادا أن يتحدثا عن أنفسهن- أن كل منهن تعرف الأخرى، تعرف أنها موجودة. ولو تطلب الأمر فستتصل أحداهن بالأخرى. يكفي أن يتحدثا هاتفياً، أو أحياناً يكفي أن تفكر إحداهن في الأخرى).

"لم أشرب القهوة يوماً مع "باخ". كان يراودها هذا البيت من القصيدة أحياناً، ويرن في أذنيها طوال اليوم. وكأنه نغمة، تلتقطها صدفة من جهاز الراديو ونحن نستيقظ، وتظل تلازمنا حتى نأوي إلى الفراش في المساء. نغمة تتحكم في مزاجنا منذ بداية اليوم وتضبط إيقاعه، ونسقه الدفين. أحياناً نشعر بها. بالموسيقى التي ترافقنا صدفة في ذلك اليوم. نلقي بها من جديد في اللاوعي لتظل حية في أنفسنا، وكأنها مفتاح لما ينتظرنا في ذلك اليوم أو نبوءة ما (... كتب في النوتة كل ما حدث لي وما سيحدث).

أحياناً وبدون أن تدري تتملكها فكرة، أنها تصنع تغييراً في الجملة الشعرية. تضع "شوبان"، أو "رافيل" بدلاً من "باخ" لأسباب غير معروفة. وتضع بدلاً من القهوة شاياً. ربما تتضح الأسباب قليلاً إذا بحثت في تاريخ حياتها. فالعلاقة بين "باخ" والآخرين ليست ببعيدة. على الأقل هكذا أوحت لها ذكرياتها؛ التي اكتشفتها. وبرغم كل السنوات العشر فقد تحررت من الفوضى التي لم تكن تجد مخرجاً منها. كانت ذاكرتها هي تلك الفوضى. كانت هي ذاتها. لم تستطع فصل الماضي عن الحاضر. عاشت طوال حياتها تتأرجح بينهما. وجود على حدود الزمن؛ تماماً مثل غيرها من البشر. كانت أحياناً تفكر في هذا الأمر. حالةٌ يعرفها هؤلاء البشر، لكنهم لا يتحدثون عنها. حتى هي لم تتكلم مع أحد في الأمر يوماً ما. عينٌ على ما مضى، والعين الأخرى على ما يحدث في الوقت الراهن. نظرةٌ مزدوجةٌ ومشتتة، أفكارٌ مزدوجةٌ ومشتتة. لا يمكنها أن تحكي لأحد عن أمر كهذا.

قرأت ذات مرة القصيدة، عندما نشرت في كتاب صغير، يضم رسوم تصويرية من عالم الأطفال. شيءٌ غريب! وكأن هذه القصيدة تتكلم عنها، وعما مرت به. إن كلمات الأصدقاء أحياناً تصيب الحقيقة أفضل من كلماتنا نحن. هكذا كانت تعتقد. انتابها شعور بأنها قريبة منها. لكنها لم تفض في حديث هذا الشعور مع أحد.

كان أبوها أحياناً يضع أمامه فنجاناً من القهوة؛ التي لم تكن ثقيلة تماماً. كان يشتكي من وقت لآخر من متاعب في القلب. كانت أمها تولي اهتماماً كبيراً بحالته الصحية. يرتشف على مهل جرعات

القهوة الخفيفة نسبياً؛ ليجمع قواه استعداداً لحفل موسيقي. يحاول ترتيب أفكاره. ربما كان يفضل أن يكون وحده في مثل هذه الحالات. كانت إذا أعربت عن رغبتها في سماع الحفل الموسيقى، يسمح لها بالجلوس في المقعد المجاور. بشرط أن تلتزم الصمت التام. كانت تعرف أن أية صوت يمكن أن يزعج أبيها، ويخرجه عن تركيزه.

كان يحب الموسيقى، لكنه لم يتكلم معها عن حبه هذا. ولم يكن مضطراً إلى ذلك. كان غالباً ما يجلس في المساء عند طاولة المطبخ الكبيرة، ومعه مقطوعات موسيقية لا حصر لها. أحبها أكثر من أي شيء. يعيد كتابتها على وريقات صغيرة، أعدها بنفسه. يترك على حوافها مكانا، يكتب فيه ملاحظاته التي تتعلق بالإيقاع ودرجة الصوت. يكتبها بجوار الأسطر التي تعج بأحرف النوتة الصغيرة المتلاصقة. حاولت عدة مرات فك طلاسم تلك الملاحظات، لكنها لم تستطع. كانت تلاحظ أن بعض ملاحظاته تمتد، حتى تلامس أحرف النوتة. سألته ذات مرة عما تعنيه تلك الملاحظات المكدسة، وإن كانت تغير شيئا مما هو مكتوب في النوتة الموسيقية، أو تسجل شيئا يراه واجب الحدوث في النوتة. إلا أنه كان يرمقها في دهشة، ثم ينظر إلى كتيبات النوتة الموسيقية بطريقة مغايرة. كان نظراته تنم عن التساؤل والتوبيخ أيضا. بعدها لم تفهم مطلقاً، كيف أمكنه أن يقضي كل ذلك الوقت في إعادة كتابة نوتة؛ ألفها غيره وفي التعليق عليها. كيف يمكن لإنسان أن يظهر كل هذا الاهتمام، والتركيز وحتى الحماس. كان يضايقه أن يقتحم أحد لحظات تأمله في الموسيقى، واتحاده معها. كان يجلس عند الطاولة، غارقاً وسط المقطوعات الموسيقية. كانت تقول لأمها أن أبيها يؤلف مقطوعات موسيقية. تقول ذلك دون أي أثر للسخرية في صوتها. كان يكتب تعليقاته، أو يعيد كتابة المقطوعات الموسيقية. أدركت بمرور الوقت أنه لم يكن يفرق كثيراً بين مؤلف تلك الموسيقى وبين نفسه، أو أن الفرق ليس كبيراً إلى هذا الحد. لقد اتحد بخياله مع ذلك المؤلف، وألف معه الموسيقى، حتى صارت المقطوعات من تأليفه هو.

كانت تحسد صديقتها على تلك القصيدة، لا يعني هذا أن القصائد الأخرى في الكتاب لم تعجبها، لكن أعجبها موضوع القهوة التي لم تشربها إطلاقاً مع "باخ". كانت تحسدها عليها بالفعل. قبل عدة أعوام كانت تتردد أسبوعياً على مقهى "توماس كريش" . أجمل ما رأته أثناء إقامتها لمدة شهر في مدينة "ليبسكو" بغرض الدراسة هى حفلات الموسيقى المسائية. تتخيل المطرب وهو يكتب مقدماته الموسيقية خلف الأسوار القديمة قبل أكثر من قرنين من الزمان. تتخيله وهو يعزف مقطوعاته أثناء الصلوات لرجال الكنيسة؛ الذين

لم يتخيلوا مدى عظمة الموسيقى التي يسمعونها، وصاروا شهوداً عليها. كانت تجلس على المقعد مسدلة رأسها وعينيها.

عندما قرأت قصيدة صديقتها أول مرة تراءت فجأة أمام عينيها المقاعد المتآكلة، وغير المريحة في كنيسة مدينة "ليبسكو". وكأنها ترى نفسها من بعيد وهي تجلس مطأطأة الرأس، تضع يديها في حجرها، غارقةً في أعماق نفسها وصامتة. لا تتلقى من العالم الخارجي سوى الموسيقى المنبعثة من الآلات الموسيقية. قالت لنفسها أنها لا يمكنها أن تكتب مثل هذه القصيدة. (ثم يأتي رجل آخر في وقت آخر/ يبلغني أخبار/ أنا، أنا الجالسة في الصف التاسع...)

الأهم ممن كتبها هو أنها ظهرت إلى الوجود. ولدت وصارت نابضة. نعود إليها. نرددها في أنفسنا، أو نردد أجزاء منها. فجأة تيقنت جيداً من ذلك الشعور الذي انتابها من قبل. لم يكن يتكرر كثيرا، بل كان قابعاً في داخلها، مخبأ في ذاكرتها. كانت وهي تقرأ القصيدة أو القصة أو أحياناً رواية كاملة تأخذها رعشة غريبة؛ رعشة تتزايد مع كل صفحة وكل جملة وكل كلمة. لم تقاوم ذلك الشعور، بل على العكس، استسلمت له. استسلمت للنصوص التي كتبت وكأنها كتبتها بنفسها. إنها قريبة منها. ترى في النص كل ما تشعر به؛ وكأنه تصور لما سيحدث في المستقبل، أو ربما تكون حلماً لم تتضح معالمه بعد، ويأمل أن يصبح واقعا. فيطير في الهواء؛ في فراغ غير الفراغ، ينتظر أن يمسك به أحد، ويفتح له ذراعيه. لكن شخصاً آخر أمسك به. لقد كتبت صديقتها قصيدة "باخ" بدلاً منها. بالفعل لم يكن مهما من كتب القصيدة. لكنها انتظرت أعوام كثيرة كي تفهم هذا المغذى، وتدرك معنى السعادة في إعادة كتابة نوتة موسيقية لمؤلف آخر.

لا تذكر أن شيء ما جعله يتوقف يوماً عن هذه العادة. حيث كانت حفلات الموسيقى تقام كل أسبوع. جهاز الراديو القديم عبارة عن صندوق ضخم ممتلئ بالخدوش، لكن سماعاته رائعة. وزاد من جمال صوته اتساع الغرفة التي انتشرت فيها الموسيقى. إنها واحدة من المميزات القليلة لذلك البيت القديم؛ الذي أخرجوهم منه فيما بعد وهدموه. قامت إدارة المرور في وقت سابق بعمل تقاطع مروري ملاصقاً للبيت. لم يعجبها الأمر، ليس فقط لأنها كانت مضطرة أن تعبر هذا التقاطع وهي في طريقها إلى المستشفى في حي "كرامار"، حيث أورثتها الطرق المؤدية إلى تلك المستشفى كآبة. لكن ليس هذا هو السبب الوحيد.

حزنت كثيراً على تركهم ذلك البيت؛ الذي اختفى الآن تماماً. لكنها استمرت تحمل حزمة من المفاتيح في جيب معطف كانت ترتديه في الربيع. لم تعد صالحة لفتح أي باب. لقد حمل لها ذلك الربيع

تحولات أخرى كثيرة في حياتها، انطلقت معه الأحداث وتلاحقت. كانت تتابعها، أحياناً باستسلام وأحياناً أخرى باستغراب. لكن في كل مرة تتملكها الدهشة؛ كيف أن قصة ما لا يكتبها الإنسان بنفسه، بل يكتبها عنه شخص آخر. يصنع في مجراها حبكة صغيرة أو كبيرة، غير متوقعة. يصنع أحياناً شبكة كاملة من الأحداث؛ علينا أن نبسط خيوطها بالتدريج، ونحن نتحلى بالصبر، ونتعلم كيف تفهمها.

كانت أيام الأحد عندهم بعد الظهيرة لها مذاق خاص. رائحة الكعك والموسيقى تفوح في كل مكان. تجلس بجوار أبيها صامته، بينما يمد ذراعه خلف عصا قائد الفرقة الموسيقية. يقودها على إيقاعها أوركسترا ضخم. كانت العصا معلقة دائماً في نفس المكان. لكنها لم تكن تظهر بين أنامل أبيها طوال الأسبوع؛ إلا في أيام الأحد.

كانت الحفلات تقام غالباً في مدينة "فيينا" وأحياناً في "سالزبرج" أو "لندن" أو "نيويورك". كانوا ينتظرون بشغف صوت المذيع وهو يعلن عن البرامج قبل الظهيرة. كان أبوها يحب "باخ" كثيراً وكان عزفه لموسيقاه حدثاً كبيرا. لم يكن يفعل ذلك كل يوم، كان يطرب أيضاً لموسيقى "موزارت" و "هايدن" وبالطبع "بيتهوفن" ومن بعده "شوبان". عندها يضع عصاه جانبا، ثم يجلس على المقعد الكبير الذي لم يكن يجلس عليه أحد إلا يوم الأحد.

وبمجرد أن تنطلق أولى نغمات المقطوعة الموسيقية، حتى يلمع بريق في عينية. ويكتسي وجهه بقسمات خاصة، ويهيم في حالة تركيز عميق وهيام جارف. تموج أصابعه فوق أصابع البيانو، يقترب منها أحياناً وأحياناً يحوم فوقها مثل الطائر؛ الذي اكتشف آفاق رحبة، فازدادت رغبته في الحرية والطيران في عالم لا محدود، متحرراً من عالم ضيق محدود يبعث على الضجر والنقصان، عالم باهت، لا تضيئه سوى الأماني.

لقد تعلم أبوها العزف على الكمان منذ وقت بعيد. بدأه في مدينة "بودابست" وهو تلميذ صغير. لكن بعد عودته إلى المكان الذي عاش فيه أجداده نسي بمرور الوقت آلة الكمان. لم يتخلص منها، بل بقيت ملقاة على الأرض في صندوق بال. مرة أو مرتين يخرجها من الصندوق ليعيد ضبطها، ثم يدعوها أن تجربها. لكنها لم تكن مهتمة بالأمر. فيأخذها ويضعها على الأرض من جديد. لكن أصابعه لم تطاوعه، فتنزلق على الأوتار. وفجأة يبدأ في العزف الأوركسترالي. لم يكن وجود آلة كمان وحدها بالأمر الهام؛ نظراً لحجم فرقة الأوركسترا الضخم. هكذا يقول البرنامج. لكنه كان يجلس على مقعد يتسم بالفخامة.

كانوا ينتقلون يوم العطلة إلى غرفة أبيها كل ساعة أو ساعتين حسب طول الفقرة الموسيقية. فعندما كان أبوها يظهر امتعاضه من

البرنامج، يغلق الجهاز، ثم يسحب فونوغراف قديم من الخزانة؛ حيث تجمعت عندهم اسطوانات كثيرة بمرور السنوات. كان اختيار المقطوعات الموسيقية في هذه الحالة من نصيب أبيها: "باخ"، "تشوبان"، "رافائيل، "سترافينسكي"، وبالطبع الكلاسيكيين من فيينا. وأحياناً يضع "تشايكوفسكي" أو "موسورجسكي". كان أبوها يختار المقطوعات الموسيقية كما يتراءى له. كان يتولى إدارة البرنامج عند جهاز الفونوغراف، بدون إثارة أو ترقب. بنفس الملل كانت هي الأخرى تجلس جاثمة على المقعد، تستمع وتتأمل معه.

نادرا، ربما ولمرات معدودة في العام كان أبوها يسحب من الخزانة اسطوانة بها أغاني لفرق من "جروزني". كانت مثل هذه الفرق حبه الكبير يوماً ما. كان يردد بمفرده أغان فرق من المغنيين الرجال. بصوت جهير وضخم، لا يتناسب مع جسمه النحيف. أحضر له أحد أقاربه تلك الاسطوانة من مدينة "تبيليسي" مباشرة. لم يكن ممكنا التخمين، إن كانت موسيقى دينية أم موسيقى عادية. لكن هذا الأمر لم يكن مهما. المهم أن الأصوات كانت تعلو لتصل ذروتها. يشعر كلاهما أنهما يحلقان معها، ثم تنخفض الموسيقى فجأة، وتهدأ الأصوات، وتصير عذبة رقيقة. تتحول إلى نغمات صادرة من روحيهما، وهما يحلقان في الهواء. عندها كان أبوها يعلق قائلاً أن الأرواح التي تحولت إلى موسيقى تتحدث عن إله ما. لو كان فعلاً موجود فهو حاضر في الموسيقى؛ هنا، في تلك الأصوات والألحان المؤثرة الشجية. كان يقول إن الإله إن كان موجودا، فإن جوهره يجب أن يكون مشابه لجوهر موسيقى "باخ" و "بيتهوفن" وغيرهما من الموسيقيين.

بعد مرور سنوات عديدة تذكرت - هي تقرأ كتاب "كالفن الإيطالي" - حفلات الكورال الموسيقية؛ التي تشبه حفلات يوم الأحد. لكنها تختلف عنها نوعاً ما. تعتقد عند سماعها أن شعور جارف طغى على أبيها في أيام الأحد تلك، تماماً مثل ذلك الشعور الذي سيطر على "كالفن" ويصفه في إحدى أروع قصصه، رغبة في أن يصير صوتاً مميزاً وحقيقيا، ويتحول إلى صوت يلتقي بالأصوات الأخرى، ويتحد معها، ومع كينونتها، ومع ما هو بشري وغير بشري. يتخطى حدود الكون، ويتصل بالعالم الإلهي.

يقول المؤلف الراوي للملك بطل القصة: "خسارة أنك لا تجيد الغناء. لو كنت تجيد الغناء لاتخذت حياتك منحى آخر، ولكنت أكثر سعادة، أو لصرت حزيناً حزناً غير حزنك، حزناً سوداوياً متناغما". راحت تقول لنفسها وهي تتذكر موسيقى أيام الأحد: "خسارة أنك لا تجيدين الغناء". ربما اكتست سعادتها أو حزنها؛ حزنها الدفين الهادئ بألوان غير الألوان.

كان أبوها يجيد الغناء. رغم أنه بالطبع كان قائد الكورال، إلا أنه كان يغني وهو يتحرك بعصاه. حتى في هذه الحالة كان يغني بصوت هادئ. يدندن على إيقاع الموسيقى بطريقة غير ملحوظة. كان هذا يمنحه شعوراً بالمشاركة في تلك المعجزة الغنائية، وعدا بأنهم مشتركين في المعجزة. فهم يمتصون النغمات بأرواحهم، ويدخلون إلى إعجازها كما تدخل هي إلى نفوسهم. وقتها لم تكن تنظر إلى وجه أبيها، وعن عمد...

ذات مرة، وبعد أن انتقلوا إلى شقتهم الجديدة الصغيرة ذات الأسوار القصيرة وإمكانات سماع ضعيفة، كانا يستمعان إلى الموسيقى. كانت الموسيقى في ذلك اليوم لـ"شوبان". كان أبوها في ذلك الوقت يحب الحديث عن أمه البولندية، وأجداده الموتى، وكأن شيء ما يدعوه إليهم، أو ربما كان يشعر أنهم ينادونه.

كانا يجلسان وأكواب الشاي أمامهما. تعرض أبوها حينئذ لأزمتين قلبيتين؛ وكان ممنوع عليه شرب القهوة. ورغم أن أمي ابتاعت له قهوة خالية من الكافيين، إلا أنه كان يرفضها. كان يرفض البدائل. فإذا أراد قهوة فلتكن قهوة بمذاقها ورائحتها الطبيعية. وإذا كانت موسيقى فلتكن موسيقى حقيقية؛ يغوص فيها بكل كيانه، يتحد معها ويتحول إلى كيان موسيقي. الإتحاد والتحول أمران لا يمكن التشكيك فيهما، تعلمتهما منه بمعنى الكلمة. ربما لم يكن من الضروري أن تتعلمهما، ربما كانا في داخلها، ولم تكن سوى مسألة وقت حتى تتمكن من الانصياع لهما. تستقبل النغمات في نفسها، تذوب معها وتتحد، وتظل تلازمها.

شربا الشاي وهما يستمعان إلى "شوبان". إنه يوم عمل عادي وسط الأسبوع. لقد هجروا طقوس يوم الأحد منذ زمن بعيد. وإن كان أبوها ظل يقود الفرق الموسيقية، لكن بدونها. لم تكن تعرف إن كانت عصاه الموسيقية؛ التي مازالت تتذكرها من أيام طفولتها مازالت موجودة. كان تكريس وقت للحفلات الموسيقية المشتركة درباً من الرفاهية، لا تسمح به لنفسها وسط آلاف الأعباء الغارقة فيها. لكن حدث في ذلك اليوم أمر أشبه بالمعجزة، وجدت وقتا. جلسا متجاورين في غرفة الاستقبال. لا تعرف من منهما صاحب الفكرة.

مازالت تتذكر على وجه الدقة المقطوعة الموسيقية؛ التي استمعا إليها بعد الظهيرة ذلك اليوم. اجتهد أبوها كثيراً عند البيانو، لكنها لاحظت أنه لم يعد كما كان. تساقط العرق من على جبينه أثناء العزف. صار يحدث له هذا كثيراً من أقل مجهود. صار قلبه يصدر إشارات غير مسموعة، لا تقاوم. ربما لم يكن من قبيل الصدفة أنه اختار مقطوعة لـ"شوبان" الذي كان يفضله دائما. لكنه في تلك المرة

كان مختلفا. عزف ألحانه بإيقاع رخيم وهادئ كالعادة. لم يستطع، أو ربما لم يكن يريد أن يزعج حفيدته الوليدة؛ التي كانت نائمة في الغرفة المجاورة.

تناولا الشاي في صمت وهما يستمعان إلى الموسيقى، أو ربما يفكران فيما تخبئه الأيام لكل منهما. قالت لنفسها أن أبيها ربما فهم الأمر في ذلك اليوم وهما يستمعان إلى موسيقى "شوبان". لأنك (كما تدعو الشاعرة) "يمكن أن تكتب بالموسيقى كل ما حدث وكل ما سيحدث". إنها على قناعة بأنه قد عرف بالأمر. هذا ما كان يفصح عنه بوضوح وجهه المندى بالعرق، وملامح عينيه. استسلم لكل نغمة يترنم بها. ازدادت قناعتها وصارت أكيدة. بالتأكيد هو الآخر شعر بشيء ما، رغم أن الأمر حدث بعد ذلك بعدة أيام.

مر وقت طويل دون أن تأتيها الجرأة على الاقتراب من جهاز الفوتوغراف. وكأنها كانت تخشى أن مجرد النظر إليه سيجعل الحياة تدب فيه، وأن الإبرة ستنزل من تلقاء نفسها على الاسطوانة؛ التي مازالت في نفس مكانها. اهتز الهواء ودخلت إلى الغرفة قصيدة غنائية من سلم ج الموسيقي، أغرقتها بالرقة المأساوية، بل التهمتها. جلست منكبة على نفسها في المقعد القديم، غير قادرة على تحمل طوفان النغمات، ولا مجابهة المغريات للخروج من قوقعتها، وحكايتها الإنسانية، والتحول إلى موسيقى، والدخول في عالم آخر مختلف. لم تستطع سماعها إلا بعد مرور وقت طويل، وهى تتناول الشاي (وأحياناً القهوة)، وعيناها مسدلتين، غارقتين في التركيز. تراقب وهى تحبس أنفاسها وكأن أنامل أبيها تطوف فوق بيانو صنعته بخيالها.

obeikandl.com

بضعة جمل

لم يكن الهدوء الذي عمّ الشقة ناتجاً من العدم، كما كان من قبل. فأنا أتابعه بترقب، أسجل كل مشهد جديد، أحاول جاهدة ألا يفوتني نفس خفيف، قادم من الغرفة المجاورة.

توجد على الطاولة أمامي كراستان للرسوم التخطيطية، إحداها لي والأخرى لـ"فرونيكا".

أضع طفلتي الصغيرة غالباً بجواري وأنا أعمل. في البداية كانت تظهر امتعاض من أنني لا أفعل شيئا سوى الرسم طوال الوقت. لكنني شرحت لها أن دار النشر تلح علي في إنهاء الرسومات، ولم يبقى لي سوى أقل من شهر على تسليمها. يلحون على قائلين بأننا "يجب أن ننتهي من الأمر" وأنا أهز رأسي في صمت. تلاحقني بسؤال آخر: لماذا؟. أجيبها بعد لحظة من البحث عن إجابة تتقبلها: يجب أن أوفر ما نعيش عليه. تهمهم، وعلى وجهها تعبير محايد قائلة: "نعم". هذه الهمهمة أسمعها منها كثيراً في الآونة الأخيرة. مرة أسألها ومرة أخرى أجيبها. المعنى يتغير تبعاً للموقف، أحياناً يسدل الستار على الحوار، أو يقف حائل ما، أو عقبة دون مواصلته.

غالباً ما تراقبني في صمت، تلاحظ الشخصيات التي تتوالد بين أصابعي. تأخذ أحياناً قلما، وتخربش على الورقة خطوطاً متعرجة وغامضة. لا تسألني عن الشخصيات التي أرسمها، ولا تطلق عليها أسماء كما تعودت أن تفعل من قبل عندما يأتي أحد لزيارتنا. حتى أنا لا أسألها عن الرسومات العشوائية في كراستها. على أية حال أنا أعرف ماذا ترسم: فكل صورة تقريباً تنتهي بخط سميك متصل. تؤكد عليه عدة مرات، وهي تضغط على القلم بشدة، وكأنها تريد أن تنقشه، أو تصنع به حفره لتنفذ منها إلى الصفحة التالية؛ إلى الفراغ الكائن خلف هذا الخط. أو على الأقل تنظر إلى الفراغ القابع خلف الواقع؛ الفراغ الذي يجذبها رغم غموضه الذي يبعث على الفزع. الفراغ الذي لا يخضع لأفكارها، ليؤكد لها أن شيء ما سيظل مستغلقاً وغامضاً. ظهر فجأة على السطح، وارتبط بحياتها. فراحت ترسمه بعفوية. تغلغل هذا الخط العريض في كل أيامها، فأحرقها، وكأنه عود ثقاب مهمل. شوهها وجعلها قبيحة، فلم تعد الأيام أيامها. تسعى في العثور على رد على تساؤلاتها التي لا تتلقى رداً عليها بهذا الخط الذي يتراءى لها أحياناً؛ في صحوها ونومها. تريد أن تجد إجابة في صمتها هذا، في رسوماتها. لقد أثبتت الأيام أن الكلمات لا تجدي نفعا. لا تعرف أنه لا يمكن التعبير بالكلمات عن الرعب القادم مع هذا الخط العريض، وما يتربص بها خلفه.

استمر هذا لعدة أشهر. لم يمض يوم إلا وظهر فيه: خط عامودي داكن اللون يطوق أيام طفولتها، وما تلاها بصورة كريهة. ستارة ثقيلة، عائق، حاجز. لكنها ذات مرة. فجأة. وبصورة عفوية ألقت ما في داخلها، بصورة غير متوقعة جعلتني أصاب بالفزع. ربما فاض بها الكيل هي الأخرى؛ فسالت منها الكلمات التي كانت مضطرة إلى حبسها وابتلاعها، فمنعتها من التنفس. خرجت الكلمات من حلقها سريعة متلاحقة، حتى صارت غير مفهومة. وفي جزء من الثانية، جزء صغير غير ملحوظ فهمت ما تود أن تقوله. كانت تسمي قلعة عمودية، تسميها بكلمات متشنجة، متكررة، وملتوية. راحت تضغط بسن القلم بقوة المتمرد، وكأنها تريد أن تثأر منها، حتى انكسر سن القلم، فتبعثر الفتات الأسود على الورقة. تتخلله أصوات كلمة عفوية تحرت من داخلها، صوت ربما فاجأها هي نفسها. كانت شفتاها تختلجان وهي تتكلم. جانب فمها يهتز، تارة إلى أعلى، وتارة أخرى إلى أسفل، فيصنع منهما صورة غير محببة.

كان هذا الأمر يحدث لها كثيراً وهي في المستشفى. كان يبدو أن هذا الشعور انطبع بقوة على وجهها الصغير الشاحب، وكأنه لن يفارقها أبدا. كانت ترقد وهي تضع رأسها على الوسادة في حالة سكون تام. تائهة بين الأربطة الكثيرة والأنابيب وأكياس الدم. لم أكن متأكدة من أنها تسمعني، أو حتى تركز في الخطط التي أحدثها عنها، وأنا أتصنع نوعاً من الحماس المبالغ فيه. انتقل بصوت يملأه الحماس من حديث عن حوض الأسماك، إلى طائر الكناري أو السلحفاة. أمطرتها بفكرة وراء الأخرى، وأنا أتشبث بها مثل غصن النجاة، وأسهب في تفاصيلها الصغيرة البسيطة. أتابع كل حركة بسيطة من عينيها. أدقق في أقل حركة منها، بحثاً عن إيماءة اهتمام، علامة توتر أو حتى خوف، أية شعور. أزعجني تصلب وجهها وكأنه قناع، لا تدب فيه الحياة إلا عند نوبات الرعشة البغيضة. إن وجهها مألوف، لكنه صار غريباً تماماً، غامضاً لا يمكن قراءته. رغم أنها هي نفسه، لكنها بدت كإنسان غريب، أخفق في العودة إلى صورته الحقيقية. حتى وإن أراد ذلك بقوة. انتابني خوف من أنها قد لا ترغب في ذلك.

"لا يهم إن كان غصناً أو سلحفاة أو أي شيء آخر، المهم هو ما ستختارينه أنت". رحت أردد، وأنا أتأرجح بين الشك والأمل في أن أقتنص منها إجابة، أو على الأقل ضغطة من يدها، أو حركة خفيفة من عينيها، أو أية إشارة أو علامة تدل على أنها تقترب مني ولو خطوة صغيرة، وأن هذا القرب ممكنا. "أو كلب جديد"... تنفست الصعداء بمجرد أن نطقت الكلمة؛ التي طالما تجنبناها كغيرها من الكلمات التي التزمنا الصمت حيالها، على أمل أنها ستفقد معناها ووجودها، ووجود الشيء الذي تشير إليه، طالما لم تنطقها. لكن بمجرد

أن أنطق بشيء، وأخرجه من مكنونه، ينتابني الارتباك والخوف. كنت أخشى الحديث عن الكلب - الذي أحببت اللعب معه يوما ما - لن يتسبب في نوبة جديدة، ويأخذها إلى عهد أصابها بالارتباك، ودفعها إلى ما لم تكن تتوقعه، وكشف بحدة عن صورته المجهولة المخيفة التي لم تكن تتوقعها.

إن من أكبر أمانيها أن يقسم الوقت إلى مرحلة سابقة، ومرحلة تالية. إلى زمنين ومكانين وقصتين مختلفتين تماماً، قصتين نابضتين. طلبت مني ذات مرة، قبل عيد ميلادها أن أدعو "إيما" للحضور. لكن "إيما" هذه كانت عنيدة. لم تكن تحب الحيوانات على الإطلاق. فلم ترغب أبداً أن يكون عندها كلب، ولا حتى ببغاء. لم ترغب في ذلك حتى وهي طفلة. كنا مختلفتان في هذا الأمر أيضا. فـ"إيما" شخص يعشق النظام بطريقة مبالغ فيها. تحب أن يكون كل شيء منظماً تماماً، وواضحاً ومحددا. كانت هكذا حتى في علاقاتها، وهذا هو الاختلاف الثاني بيننا. ربما لذلك لم نستطع أن نقترب من بعضنا بصورة حقيقية. تفهم إحدانا الأخرى، نعم، وأحياناً نجد شيئا ما نشترك فيه، لكن لم يحدث بيننا مطلقاً تقارب حقيقي كما هو متوقع أن يكون بيننا نظراً للعلاقة التي تربطنا ببعضنا.

تسعفني الذاكرة ببعض التفاصيل: الأكلات المفضلة، المعكرونة بالخشخاش التي تحبها "فيرونيكا"، وأفخاذ الدجاج المقلية بالنعناع. حب "فيرونيكا" للكتب، وبالنسبة لأخيها عشق الكمبيوتر، وشيء آخر: كان كلاهما يعاني من التهاب سريع باللوزتين، يدفعهما إلى النوم فترات طويلة في السرير. عندها يجيء دوري. أتطلع إلى تلك الساعات والأيام. كان ذلك بمثابة خروج عن ساعاتي وأيامي، وكأنه خروج من حياتي بأكملها. فجأة تغيرت الأولويات. كان عمل الشاي، ودهان شريحة الخبز بالزبد والعسل، وقراءة القصص الخيالية، أهم عندي من إكمال الرسومات التصويرية وملأ صفحات كراستي. ساعات وأيام أتناوب مع أختي مجالسة الأطفال. كان عملي يمنحني المزيد من الوقت، عندما كانت علاقتنا تسير بطريقة طبيعية.

تحولت فكرة سفرهم إلى لجزائر إلى حقيقة. أمسك "كارل" في يده بكل الأوراق تقريبا. كانت "إيما" والأولاد يتابعونه لعدة أشهر. ثلاث سنوات قضوها في الجزائر، لم نلتقي خلالها. أردنا أن نتدبر أمرنا بصورة معقولة. إلا أن عدة سنوات من الغياب تسببت في أن يتبخر هذا الحل. كان واضحاً أنه من الصعب تنفيذ قرارنا. ابتلعت "كارل" مشاريع المنشآت المائية هناك. تأقلم مع البيئة الجديدة. أما أنا فانصرفت بحماس إلى قبول المزيد من طلبات العمل جديدة: وقت أقضيه في العمل المتواصل، التأقلم مع حقيقة أنه لا يوجد طريق واحد يجمعنا معا، وأننا حتى لا نحاول أن نسير في هذا

الطريق، ولم نعد نستطيع أن نعود إلى الطريق الأصلي. أحياناً كنت أرى نفسي وأنا أتحرك في فراغ ضيق، إنه ليس بالفراغ، ليس بالمكان الذي يخصني. ففي كل مكان أذهب إليه، يتحول المكان إلى لا مكان. نفس الشيء بالنسبة للوقت، وكأنه تجمع في لحظة واحدة، تم إدماجه في ذكرى وحيدة التهمت الماضي وحتى المستقبل: انعدام الزمان والمكان، إحداثية انحسرت في نقطة واحدة، بقيت أنا فيها. أحاول أن أتأقلم مع عالمها المحدود. اختفت كل الأبعاد، والتهمتها الحكاية التي اضطرت إلى أن أتقبلها. لكن كان من الضروري نسيانها في أقرب وقت مكن، من أجل كلانا، ومن أجل الجميع، ولم تحدث محاولات لإصلاح الأمر.

سمعت خلف الباب همهمة الطفلة، فقفزت من على المقعد، خوفاً من أن يتصاعد صياحها، ويصير صراخاً. ينتشر في جوف الليل عبر حوائط المبني الرقيقة، ويصل إلى الشقق المجاورة. رحت أمسح بيدي على وجه "فيرونيكا" المبلل بالعرق؛ الذي يرتجف كبادرة حدوث تشنج. أضع يدي الأخرى خلف الغطاء، ثم أرفع بهدوء جسمها المستسلم. تحسست بأصابعي بلل مازال دافئا. تحدثت إليها بأنني قد أيقظتها مبكراً من حلم كريه. حلم لن أعرفه أبدا، لكنه مروع، حتى في غموضه هذا. إنه يدخل إلى رأسي أنا أيضا. أردت أن تعود من هذا الحلم إلى عالم الواقع، ضغطت بأسناني على شفتي، وأنا أفكر في هذا الأمر. أنا أضمن لها ما هو في الواقع وآخذها إليه: حلم مرعب، وواقع أقل رعبا.

شعرت في راحتي بتوتر في أعضاء جسم الطفلة النحيفة. دفعت ذراعيها الضعيفتين بقوة، وشعرت بمقاومة تعادل دفعي لذراعيها. عظام صغيرة حادة تضغط على جلدي، فأصيح بصوت عال، كاد يتحول إلى صراخ. لكنها تتظاهر وكأنها لا تسمعني. في النهاية فتحت عينيها، وكما هي العادة دائما عندما تستيقظ فجأة من النوم، أغرقتني بنظرة تأنيب، بعد أن نظرت في وجهي لعدة ثوان حتى تعرفت علىّ. لم تظهر لي حتى شعوراً بأنه لا ذنب لي في الأمر، وأن الأمر ليس بيدي على الإطلاق. وتتواصل القصة، بغض النظر عن قرارنا. تنساب مثل جدول الماء، مثل النهر الذي يصبح مجراه أعمق بمرور الوقت، ويصير تياره أقوى، وهديره أكثر حِدة. شواطئ متآكلة، وتربة تتلاشى، تيار يجرفنا معه. لن أستطيع يوماً ما أن أصف لـ "فيرونيكا" مدى قسوة الماء؛ الذي يجرف أقدام من اعتقد أنه يقف في مكان بعيد آمن، لا يتهدده فيه شيء. ملت أكثر على السرير وأنا أكلمها، صارت هادئة تماماً، صارت مطمئنة ورقيقة إلى درجة لا يمكن وصفها. عندما ألمسها، بصوتي أو بأصابعي، وأحاول إيقاظها، يغمرني إحساس لا أحبه. إحساس بأنها تكرهني، أثناء لحظات العودة

السريعة هذه إلى عالم الواقع، أثناء اللحظات سريعة الزوال؛ التي سرعان ما تخبو وتختفي في ضجيج الحياة اليومية، والتي ربما هى أيضاً تريد أن تنساها بأسرع ما يمكن.

لم يكن انفصالنا عن بعضنا نهائياً. ففضلاً عن بطاقات المناسبات الأسرية؛ التي تكون غالباً على خلفية البحر والنخيل، أرسل "كارل" أيضاً رسالة واحدة، وبعد مرور بضعة أسابيع ألحقها برسالة أخرى. لم يتحدث عن أية مشاعر أو أفكار حول الفرص الضائعة، ولا حتى تلميحات ضبابية غامضة. لقد تجاوزنا هذا الأمر، واختفت العبارات التي تحمل معنى الاحتمالية. اكتفينا بما حدث، وبالأمر الواقع. بالنسبة لـ"كارل": "إيما" والأولاد والمشاريع، أو ربما بترتيب آخر متغير. بالنسبة لي: الرسومات والأقلام والريشات وأحياناً المراقم. لم أكن أرد على تلك الرسائل. ليس فقط من أجل أختي، وإمكانية أن تعثر عليها كما عثرت على أشياء كهذه من قبل. وقتها لم نكن نحاول أن نلطف الأمور بيننا. كنا نرى أن شيء ما يتوالد في داخلنا، يختلج عند مولده بوعود أساسها غير واضح. ربما لم نكن واثقين منها، كنا مندهشين ومأخوذين. وقتها لم يكن ممكناً أن نقارن شكل المشاعر التي لم نكن نعرفها من قبل بعلاقاتنا وخبراتنا السابقة. حتى في هذه لم نكن واثقين من شكل الحب الحقيقي.

ربما كانت الجزائر مخرجاً من الأزمة أو على وجه الدقة: مخرج وهمي.

ومرة أخرى كان يجب التعايش مع أمر آخر، وموقف عرفته كل منا وعانت منه.

بدأ توتر الجسد الصغير؛ الذي أشعر به تحت أصابعي يتضاءل. لكن مازالت أشعر بآثاره في نظرات "فيرونيكا". أعرف أن النوبات التي تعتريها ليلاً تشعرها بالخجل، وبمجرد أن هدأت، انصرفت إلى الغرفة المجاورة حتى تتمكن من ارتداء ملابس جافة في هدوء، وأن تضع تحتها منشفة جافة، حتى أغير الملاءة في الصباح. عندما أصطحبها إلى المدرسة، أو أثناء تناول الفطور في الصباح، سوف تتجاهل كل منا الأمر، كل واحدة منكبة على طبق رقائق الذرة، وعيناها على قاع الطبق.

وفرت لطفلتي الراحة في الأسابيع الأولى لأخفف عنها المشاكل التي تعاني منها. ربما كانت أكثر هذه المشاكل، هى الحياة الجديدة معي. فقط أنا وهى. كان على كل منا أن يعتاد عليها. جلسنا ذات يوم عند بيانو قديم غير مضبوط، وحاولنا أن نعزف مقطوعة موسيقية تعليمية. لم تعترض على الاقتراح، لكنها راحت تعزف بدون حماس. أصابعها تتحرك على لوحة البيانو بطريقة آلية. كانت أحياناً تخطئ ،رغم سهولة المقطوعة التي تعزفها. كنا أحياناً نعزف تلك

الرباعيات الموسيقية أنا وشقيقتي. ربما كانت الموسيقى تربطنا ببعضنا أكثر من أي شيء آخر. بالمناسبة: لم تكن تجمعنا يوم ما هوايات مشتركة كثيرة، ولا أية صداقات مشتركة على الإطلاق. كان ما يفرقنا أكثر مما يجمعنا وإن، لم يكن هذا ظاهراً من الوهلة الأولى. عندما بدأت "إيما" ترافق "كارل"، أرسلتني ذات مرة أبلغ رسالة، وأنوب عنها في إحدى اللقاءات. فقد اضطرت إلى السفر مع فريق الكرة الطائرة. كنت أرغب من قبل في مشاهدة الفيلم الذي كانا سيشاهدنه. لا أدري ما الذي حل بي في ذلك اليوم، فلم أبلغه الرسالة. رحت أنظر في عتمة صالة السينما إلى الشاب الجالس بجواري. لم أقاوم لمسه خفيفة من أصابعه. على الفور انتابني شعور خاص ومثير. وكأنني خرجت من ذاتي، وصرت شخصاً آخر. أو كأنني أصبحت قريناً لنفسي، وكأنني تورطت في علاقة لست طرفاً فيها. لكن في الواقع كنت أشعر بأنني طرفاً فيها، من خلال ذاتي الثانية. هذه الأزدواجية التي صرت بفضلها فجأة شخصية بأبعاد جديدة، أخذتني إلى حكاية لا تخصني. أعطتني فرصة أن أتذوق تميز هذا الرجل عن قرب، وبدون أية مسافات. فانتابتني قشعريرة. ربما يعرف الصوفيون هذه الحالة. إنهم يعيشون في أنفسهم، وخارج أنفسهم. يتخطون حدود جسدهم، وحدود أرواحهم. يتجاوزون حدود الوجود المادي. تصير التفرقة بين ذاتي وذات غيري أمر ليس مهماً. المهم هو متعة القرب الميتافيزيقي والاتحاد. شعرت بنظرة دهشة في وجه الشاب. تمكنت من السيطرة تدريجياً على القشعريرة التي ألمت بي. خرجنا من السينما صامتين. اتفقنا في صمت أن نذهب إلى مقهى صغير. قدمت له نفسي بابتسامة يملأها شعور بالذنب. لكن "كارل" اعتبر الأمر مزحة، فهمت على الفور أن الأمر قد أزعجه.

بعد عدة سنوات، حيث صارت الأمور بيننا معقدة وغير واضحة، تذكرنا ذلك الأمر. لا أدري من منا راودته هذه الذكرى أولاً. ضحكنا مما حدث، بعثت تلك الذكرى في أنفسنا شيئاً من السرور وسط أحزاننا. تبخر الغضب، ولم يبقى سوى الحنين. في بداية الأمر كانت الحلول أسهل، لكنها لم تعد كذلك فيما بعد. انتقلنا إلى مرحلة غير معقولة ومعقدة.

منذ وقت قريب قالت لي "فيرونيكا": ألا تعرفين أين هو كأسي. لقد نسيت أين وضعته". شعرت بسعادة في نفسي. إن قواعد اللغة أحياناً تفصح عن أمور كثيرة، أكثر من التحليل النفسي. لقد مر وقت طويل حتى استطاعت أن تستخدم شيئاً، ربما ليس له أهمية كبيرة فيما يتعلق بمحتويات الشقة، استخدمت ضمير الملكية للمتحدث. استطاعت أن تتماهى من خلاله مع هذا المكان. تسير أيامنا الحالية على هذا المنوال: أحداث مكررة لا تتغير، توفر على الأقل

استقراراً جزئياً، ويقين من أنه لن يحدث شيء مفاجئ وغير متوقع طوال اليوم. نقوم ببطء وعلى مضض بتغيير بضعة أشياء صارت راسخة.

كان اليوم الأول من أصعب الأيام عندما أحضرتها إلى هنا. وكأنها لا تعرفني، لم تكن تفهم ما يحدث. سارت بجواري دون تفكير، أرهقتها درجات السلم؛ حيث كانت مازالت صغيرة. كانت أصابعي ترتعش وأنا أدخل المفتاح في فتحة الباب، وقف بجوارنا سائق عربة الإسعاف. عمل وجود رجل غريب على كبت التوتر في نفسينا. كان شاباً لطيفاً، مد يده عند انصرافه ليصافح "فيرونكا". لكنها لم تصدر أي رد فعل، نظرت إليه، وهي تقف وسط الدهليز الضيق مطأطئة رأسها، تائه وبائسة، لا تلوي على شيء.

أصيبت في المساء بنوبتي تشنج. وكأنها أرادت أن تضحك، فصار فمها مفتوحاً ومستعداً للضحك. ثم يتغير فجأة، وكأن شفتاها تكسرت، وتبدأن في التأرجح يميناً ويساراً. ثم ينتقل التقلص إلى عضلات وجنتيها وعينيها حتى يصير وجهها معوجاً، ويتخذ شكلاً مشوها. لا يستغرق هذا عادة أكثر من دقيقتين أو ثلاثة دقائق. تصير بعد هذه النوبة مرهقة وبليدة، تصيبها حالة لا مبالاة كانت تعتريها أحياناً. لكن الأمر كان مختلفاً في المستشفى. فهناك يمكنهم التدخل الفوري. ذات مرة عندما لازمتها حالة التشنج، وأنا في زيارة لها، قمت على الفور باستدعاء الممرضة. فجاءت تحمل أنوبة للحقن فهدأت الطفلة على الفور.

في وقت ما كانت تحب أن ترسم معي. كنا نجلس معاً ساعات طويلة، نصنع سلسلة لا نهاية لها من الحكايات المصورة التي كنا ننسجها من خيالنا. كانت هناك شخصيات مفضلة نحبها، تتوالد من قصصنا. كنا نصنع من الورق أطفالاً، ونلبسها ملابس بحر ورقية، وتنورات، وملاءات، ومعاطف، ورقية. ثم نضعهم على طاولة من الورق، ونقدم لهم وجبات ورقية. صارت تناديني "تاميتشكا". كانت "إيما" تنهرها، لكنني كنت معجبة بالأمر: "إنها مثل أمي، وبالتأكيد أكثر من كونها خالة عادية". كان "كارل" أحياناً يناديني بهذا الاسم عندما نكون وحدنا. كانت الكلمة تخرج من فمه بمذاق مختلف. لم يكن ممكناً أن أتجاوز حالة الازدواجية. كنت ملتصقة بشخصيتي وبحدودها، رغم أنني كنت أتوق مرات عديدة إلى ذلك الجانب الآخر، أو إلى الاقتراب منه على الأقل. إن تسمية الأمور تصنع حدوداً لما هو ممكناً بالنسبة لي في الحاضر أو في المستقبل. تفصله عن منطقة الأشياء التي لا يمكن الوصول إليها، حيث لا توجد تجارب صوفية، ولا تخطي لفردية محددة المعالم. لا يوجد دخول في عوالم الآخرين. ولا قشعريرة ميتافيزيقية. لا يوجد سوى عالم محدد

نعيشه، ولا يمكننا تجاوزه. كانت هناك حدوداً بيني وبين الآخرين. كل يعيش في عالمه ووحدته. كان على أن أتأقلم مع وجودي هذا، وجودي بين عالمين.

نادراً ما كنا نلتقي بعد عودتهم من الجزائر. كانوا يترددون على بيتهم الريفي في عطلات نهاية الأسبوع. كانت هذه فكرة "إيما". كان البيت الريفي عبارة عن مبني شبه فارغ في منطقة "زاهورشي". يحتاج إصلاحه إلى أموال كثيرة ووقت ومجهود أيضاً. ملأت عطلات نهاية الأسبوع في البيت الريفي كل وقتهم. كان "إيما" تجلس خلف عجلة القيادة، صارمة، حاضرة الذهن وواثقة من نفسها، أسبوع تلو الآخر. قالت لي ذات مرة: "وكأن حياة جديدة بدأت مع هذا المنزل الريفي؛ أفق جديدة". لم أسألها ماذا تقصد بهذا الكلام، كما أنها لم تقل أكثر مما قالته. كانت أحياناً تعن لي فكرة أنها ربما سقطت هي الأخرى في اللازمان واللامكان، كما هو الحال بالنسبة لي: أن تفقد إحساسك بمكانك وزمانك وكأنهم أخذوا الإنسان من حياته فجأة.

بدأ الكابوس الذي تراه "فيرونيكا" يتلاشى. رغم ذلك كانت وكأنها تتردد في الدخول عن اقتناع كامل إلى تلك الغرفة، بكل ما فيها. وعلى حين غرة اتضح من حركات عينيها، ومن الظل الخفيف الذي يظهر على وجهها، ولم تكن تخطئه عيني، أنه من الصعب عليها الانتقال إلى عالم الواقع.

لو نادتني الآن بالاسم الذي كانت تناديني به من قبل، لانتبهت، ولعادت إلى الثقة في بداية جديدة، والصبر على إزكاء هذه العقيدة في نفسي. العقيدة التي كانت لدي "إيما" يوماً ما. العقيدة التي أطلعتني عليها هي نفسها، وكأنها أرادت أن تنقلها إلى. أما أنا فكنت أتمنى أن تناديني الطفلة بأية اسم، يكفي بصيغة غير محددة، ولا تتركني خارج أسوارها الحصينة، وخلف الحاجز القوي. في الغالب كنا نلتزم الصمت. صارت حواراتنا النادرة مجرد تبادل الأسئلة والإشارات، أسألها ونحن عند الطاولة: "ألا يعجبك الحساء؟ لكنك كنت تأكليها من قبل، هي نفسها. وبعد ذلك بقليل كنت تكتبين الواجب المنزلي في مادة الجغرافيا، وبالفعل كنت تجيدين رسم جميع الخرائط. ألا تريد أن نلقي نظرة عليها الآن، أو حتى في المساء أمام التلفزيون؟ تعال يا "فرونيكا"، إنه فيلم ممتع في العلوم الطبيعية، بالتأكيد سيعجبك، فأنت دائماً كنت تحبين الحيوانات..." كنت أتلقى منها نصف، إجابات بدلا من ردود مباشرة. إنه الخوف. الخوف الحاضر دائماً من أنني ألح عليها، وأفسد شيئا بإلحاحي هذا. فتسوء العلاقة بيننا.

في اليوم الذي غادرت فيه المستشفى واستقبلتها في البيت، كنت مترددة أن أستمع إلى ما قاله الأطباء، وأخبرها بالحقيقة. ربما كان

هذا ليخفف من حدة الموقف قليلا، أو ربما العكس. لقد كانت الإجابات الغير مباشرة التي كنت أمطرها بها، تصيبني أنا أيضاً بالارتباك، وتزيد من حالة التضارب التي أعيش فيها: بين ليال مليئة بالألم القاسي وبين تلك الساعات المعدودة عندما تستيقظ من النوم، بينما أميل على رأسها المعصوبة، وأبحث في نفسي عن ابتسامة رخيصة. أتحدث عن صور باهتة وضبابية عن العودة إلى البيت والحياة العادية. العودة إلى أبويها وأخوها.

في ذلك اليوم وصلت إلى المستشفى مبكراً. "كانت "فيرونيكا" تغط في نوم عميق، فجلست عند قدميها فوق السرير. كان باقي المرضى في الأسرة المجاورة نائمين. كانت الرطوبة عالية والجو ماطر بعد ظهيرة ذلك اليوم. لم يحدث لها هذا مطلقاً من قبل، ولا حتى في البداية عندما كانت تستفيق من غيبوبتها. لابد أن شيئاً غريباً حدث في ذلك اليوم. ربما تأثرت من فكرة المغادرة. استيقظت على أصوات عالية تأتي من الدهليز. وما أن رأتني أجلس على سريرها حتى هزت رأسها، ربما من الدهشة الكبيرة أو الانزعاج أو السعادة الغامرة الدفينة. راحت ترمقني بنظرة مختلفة غير معهودة. خاطبتني بتشكك ودهشة، بهدوء، حتى كنت بالكاد أسمعها. لكن هذا الخطاب المفاجئ المندفع من داخلها لم يكن موجه إلي.

انزلقت العصابة من على جبينها أثناء حركة المفاجئة. اقتربت منها حتى أصلحها لها، لكنها دفعتني بقوة؛ أثارت دهشتي. من أين لها فجأة بهذه القوة؟ ثم أرخت جفونها بعد ذلك؛ خجلاً من استسلامها لوهم كاذب، كانت تريد دائماً أن تؤمن به وبقوة. تبع ذلك رقصات غريبة على شفتيها، ووجنتيها، وعلى وجهها كله. كانت خلجات قوية ومركزة، كغيرها من المرات السابقة. عندها انصرفت مذعورة أستدعي الممرضة. جاءت وهي تحمل أنبوب الحقنة. علقت الكلمات التي أعددتها في حلقي، وظلت هناك ساخنة، خشنة. فهمت أنها لم تكن ضرورية. بعدها لم توجه لي أسئلة عن أمها ولا أبيها ولا أخيها. لم تفعل هذا حتى بعد أن جئت بها إلى هنا، إلى شقتي. رغم ذلك حكيت لها في إحدى الأمسيات، وبعد عودتنا من نزهة طويلة عند نهر الدانوب، عن هؤلاء الثلاثة، بضعة جمل، بضعة جمل لا مفر منها.

obeikandl.com

يانا يورانيوفا

Jana Juráňová

من مواليد ١٩٥٧. درست اللغة الروسية الانجليزية في كلية الفلسفة جامعة كومنسكيهو. عملت بعد انتهاء دراستها في الجامعة في قسم الإخراج والتمثيل المسرحي في مسرح الأطفال والشباب في مدينة "ترنافا". درست لمدة عامين في معهد علم الأدب . عملت منذ عام ١٩٩٠ في جريدة "عيون سلوفاكية" وفي نفس الوقت معلقة بإذاعة أوروبا الحرة.

شاركت في عام ١٩٩٢ في تأسيس مشروع "أسبكت" للنشر والتعليم النسائي، والذي مازالت تعمل فيه حتى اليوم؛ كمنسقة مشروعات ومحررة للمطبوعات. كذلك شاركت في وضع فكرة مجلة "أسبكت"، وفي هيئة التحرير والنشر بالمجلة. قامت بتحرير العديد من الكتب التي أصدرتها دار "أسبكت" للنشر.

أحدث "يورانيوفا" نقلة كبيرة وناجحة في الإيقاع التقليدي في الحياة الأدبية السلوفاكية. أزالت الأقنعة من على لاعبين كبار أثروا في الحياة الأدبية السلوفاكية في القرن التاسع عشر، ومن على مدعي الثقافة والأدب المعاصرين. عبرت بجرأة عن أكثر الموضوعات حساسية وانتشاراً في الألفية الجديدة؛ منها على سبيل المثال زيادة جرعة الجنس في الأعمال الأدبية . تتحرك على خيط رفيع في مجتمع وسط أوروبا المتحفظ. أعادت تقييم الكثير من الثوابت، وفتحت جدالاً مع المجتمع ومع ثوابته الأخلاقية والتاريخية. تعد "يورانيوفا" من أبرز ممثلي الأدب النسائي السلوفاكي المعاصر وامتداداً لجيل من الأدبيات اللواتي خرقن التقاليد أحدثوا نقلة نوعية في الأدب السلوفاكي المعاصر.

التكنولوجيا البيضاء

ما هو الجديد عندك يا عزيزتي؟ خنزير مقدد، عجينة ثوم، سمك القد، حلوى! سأحتفظ بقديد الخنزير لأوقات الليل.

إنك صامته لا تردي. لا توجهين لي أية أسئلة. فقط تقدمين لي ما عندك وتعرضينه علي. كل رجل سيكون ممتناً لتعاونك واستعدادك الدائم. لكن أحداً منهم لا يعرف كيف يتعامل معك بحرص وحب. تعرفين؟! يجب أن تكوني حريصة دائماً على أن يكون عندك ما تقدمينه.

أنا وأنت صديقتان. صديقتان حميمتان. علاقتنا واضحة ونظيفة، علاقة بناءة وتتحلى بالشفافية. لا مكان فيها للأخذ والرد والحل والربط. كل منا راض بها. من لا تروق له مثل هذه العلاقة؟

أذهب إلى المتجر للشراء، أرمي أثناء ذلك الهموم وراء ظهري. أحضر بعدها المشتريات إلى البيت، وهذه أصعب مرحلة في الموضوع. لكن ما يسعدني هو فكرة أنني أقوم بهذا من أجلك ومن أجلي. فأنا لا أطعم بطن متدلية من شرب البيرة، عديمة النفع. فأنا لا أشتري البيرة على الإطلاق. المهم، أرص بعد ذلك المشتريات. أضعها أولاً على الطاولة، وأمتع نظري بتشكيلة المشتريات المتعددة. ثم أبدأ في رصها. أضع البيض في مكانه. واللبن في رف الباب الداخلي، ثم أضع في الجزء الداخلي: المايونيز، والزبد، وعجينة الزبد النباتي، والعجائن الأخرى، والسجق، والجبن، والمعلبات. أقوم بلف الحلويات بصورة جيدة، حتى لا تفسد. ثم أضع الخضروات الطازجة، والفواكه في المكان السفلي. لا شيء يعلو فوق الطعام الصحي، بعد كل هذه اللحوم المقددة والمحفوظة...

وبعد أن أضع كل هذا في داخلك، أغلق الباب، وأربت عليك. هكذا رأيتهم يفعلون في أحدى الإعلانات. لكن الثلاجة تصرفت في ذلك الإعلان بطريقة مجنونة: أخرجت كل ما بداخلها، كل ما هو غير صحي، وتركت فقط نوعاً من الجبن؛ مائع وخال من الدهون تماماً. لكن إن كنا وصلنا إلى هذه الدرجة، فيمكن للإنسان بعدها أن يأكل صمغ الورق مخلوطاً ببقايا الممحاة التي يمحو بها التلاميذ الكتب في نهاية العام الدراسي!

لكنك لست مجنونة. أنت طيبة. وهكذا بعد أن أغلق جزءك العلوي؛ صدرك الذي تسكنه روحك وقلبك... بعد أن أغلق الباب العلوي إذن، أفتح خزانتك؛ الصوان. هنا في حجرة التجميد أرص بحرص أجنحة الدجاج. يملأني شعور غامر بالسعادة لمجرد أن أفكر في الطريقة التي سأحمرها بها، أو أطهوها بالمكسرات، وصلصة الصويا. جميل أن يكون عند الإنسان شيء يسعد به. بعد لحظة من المتعة

أدخل الخضروات المجمدة، ومن بعدها الآيس كريم بالمكسرات. "إنه الأفضل على الإطلاق". هكذا قال لي في المتجر ذلك الشاب، الذي أخذ يعبث في المنتجات المجمدة. كنت حائرة بين الآيس كريم بالفراولة، والآيس كريم بالكاكاو. لا أعرف السبب الذي جعلني أطاوعه. لكن تخيلي أنه كان على حق. قال لي: "لقد جربت كل شيء ولم يعجبني سوى هذا"، ابتسمت له برقة، ثم توجهت نحو الخزينة. لم أكن في حاجة إلى أن أتعرف على أحد بحجة الآيس كريم. من الواضح أنه قد زود ثلاجته مؤخراً، أو ربما ثلاجة الأسرة. حتى وإن كانت ثلاجته الخاصة، فأنا لا أرغب في أن أعيش مع ثلاجة شخص آخر، ما بالك بثلاجة رجل غريب. كما أنني لن أسمح لرجل أن يقترب منك يا عزيزتي. حتى لا يلتهم ما بك، ويزعجك بكثرة تردده، أو أن يصيح في قائلا: أعطني هذا وناوليني هذا! لا، لن أسمح لأحد بأن يتصرف مع ثلاجتي الحبيبة بمثل هذه الوحشية.

لاطفت المرأة يد الثلاجة المخصصة للفتح، ثم لمست جنبها، حيث تضع عليه رسائل مثبتة بأشكال ممغنطة. رسائل كتبتها لنفسها: دم، كوليسترول، قلب، تناول الأدوية. كانت محبوبتها تتفهمها، وتذكرها على الدوام بأسلوب رقيق بأن تحافظ على صحتها. من حسن الحظ مازالت هناك حبات جيدة، تستطيع أن تقوم بهذا كله. ثم لاطفتها مرة أخرى.

همست لها قائلة: "لا يوجد رجل يستطيع أن يتعامل معك بمثل هذا الصراحة، ومن القلب للقلب مثلي. سأطهو القلوب بالقشطة يوم السبت. يصدر منك أزيزاً هادئا في مطبخي، وعندما تتوقفين يعم الشقة الهدوء، و لا أسمع سوى دقات الساعة، ونقيق صنبور المياه، وصوت تدفق الماء في حمام الجيران..."

منذ متى وهما وحدهما في الشقة؟ سبعة أعوام؟ كادا يكملان العام الثامن. بقيت في الشقة وحدها مع الثلاجة. باقي الأشياء أخذها من الشقة. كانت تنام على أريكة غريبة، تفزع أثناء نومها من حلم، لا تعرف ما هو. تشعر أن أرواح شريرة تسكن المنزل. باستثناء الساعة التي تدق في غرفة الاستقبال، كان الهدوء التام يسود المكان. كانت تسمع من وقت لآخر أصوات دقات في الماسورة، أو وقع أقدم أحدهم يمشي في الشقة الموجودة في الطابق العلوي. ثم تسمع صوتاً وكأن شيء قد سقط وانفجر ودوى. لم تستطع تفسير الأمر إلا فيما بعد. لقد كانت الثلاجة التي تعمل وتتوقف بشكل تلقائي هي التي تسبب تلك الأصوات.

عندما فتحتها بعد فترة من رحيل زوجها، أصيبت بصدمة. رائحة عفنة تفوح من كل شيء. فلم يأكل أحد في هذه الشقة، ولم يشرب لفترة طويلة. باستثناء بعض البسكويت الذي كانت تشتريه من كشك

الجرائد، وهي في طريقها إلى العمل. كانت الثلاجة مازالت عامرة، منذ أن كانت تؤمن بأنه يحبها وأنها تحبه. راحت باسم هذا الحب تشتري له الطعام. كانت تخطط في ذلك الوقت أن تعد مأدبة غذاء بمناسبة عيد ميلاده، أو شيء من هذا القبيل. لا جدوى من تذكر هذه الأمور. على أية حال كان في الثلاجة الكثير من الطعام. "ميلوشكا" – في ذلك الوقت لم يكن لها اسماً – كانت عامرة ومثقلة بالمأكولات. فلم يفتحها أحد منذ مدة طويلة. ففي ذلك الوقت لم يكن زوجها هناك، ولم تكن تستسيغ الطعام. عندما أدركت أنها هي التي تصدر ليلاً تلك الأصوات الرهيبة والفظيعة، قامت بفتحها، وراحت طوال اليوم تعبث في أحشائها. قامت بفصلها عن التيار الكهربائي، وتركتها تتخلص مما في داخلها من ثلوج. تخلصت من العديد من محتوياتها، ثم غسلتها بماء مخلوط بالخل. وانصرفت تشتري مادة لامتصاص الروائح. ثم اشترت مأكولات طازجة، وبدأت تتخذها صديقة لها.

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياتها. لقد مر على هذا وقت طويل. تغير خلالها الكثير والكثير.

بدأ كل منا يشبه الآخر. ولا أرى في ذلك عيباً. فلا شيء يزعجني. عندي برنامجي اليومي. العمل، والمشتريات، والطعام، والنوم. هو من ترك المنزل، ولم يعد الأمر يعنيني. أحياناً نلتقي صدفة. فأنا لا أتجنبه. ولو فعلت لكنت بذلك أؤكد لنفسي أن أمره يعنيني. لكنه ليس كذلك. في المرة السابقة قال لي أنني أبدو مثلك. كان يعتقد أنني سأشعر بالإهانة. أراد أن يحط من قدري. فهو لا يجيد شيئاً غير ذلك. ابتسمت له، وشكرته على المجاملة. الله وحده يعلم، لماذا يسعى لإهانة زوجته السابقة. فمن المفترض أن يكون سعيداً مع زوجته الجديدة النحيفة، التي تتبع حمية، وتعد له الطعام الذي يحبه. ما الذي يجعله غير راضياً حتى يتعرض لي هكذا؟ فلم يعد هناك ما يربطنا ببعضنا. ألم يعثر على السعادة؟ لماذا يتذمر إذن؟ أهو يغار؟ لن أشغل بالي بالأمر. لكن يسعدني أن يكون كذلك. من الواضح أنه لاحظ أنني تقبلت الحقيقة، وأنني أنا -زوجته السابقة- أحب بالفعل شخصاً آخر، حتى وإن كان هذا الشخص عبارة عن شيء. لكنها ليست مجرد ثلاجة.

لماذا لا يمكن للمرأة أن تشبه الثلاجة؟ من قال إن هذه الملامح غير مناسبة؟ إن أمر لا يتعلق سوى بالشكل. مسألة إحساس. طوال الفترة التي عشناها معاً وأنا أتناول طعاماً صحيا، فأنا لم أكن أتناول طعاماً على الإطلاق. كنت أطهو له الطعام، ولا آكل منه. فقدت كثيراً من وزني، كي أعجبه وأنا مرتدية ملابسي، أو عارية، أو مرتدية المايوه، وفي السرير، أو عندما ألتحف المنشفة عند خروجي من

الحمام. كنت أتمرن بقسوة، ترددت على صالة الألعاب للتدريب، ولعب الأيروبيك.

كنت أتابع ثنيات بطنه المنتفخة من شرب البيرة، وأخبط عليها بكل الحب والتفاهم. لكن هذا لم يجدي معه نفعا.

سأتناول ثمرة تين مكسوة بالسكر، وحبات المشمش المجفف. إنها رائعة. على الأقل ستجعلني هادئة. وإلا سأصرخ من الغضب. والأمر بالفعل لا يستحق.

بعد انصرافه من البيت صرت أظفر من الغضب. أسبه في غيابه، وصوتي يتردد في كل أنحاء الشقة. ربما لهذا السبب لم يلاحظ الجيران أنه هجرني منذ زمن. غير أنهم ربما لاحظوا أنه نقل كل ما في الشقة باستثناء الثلاجة. ذلك لأنه اشترى واحدة حديثة وبإمكانيات أفضل.

ذات مرة وأنا وحدي في المطبخ مع "ميلوشكا"، وجدت نفسي أصرخ. لقد أفزعك هذا يا "ميلوشكا"! توقفت عن العمل على الفور. صمتي. عندها صرخت وقلت: أتعتقد أن هذا لن يضايقني؟ بأن يكون عندك كرش من شرب البيرة، بينما أنا لا آكل؟ لا يجب أن أنزعج، أليس كذلك؟" عندها أدركت يا عزيزتي "ميلوشكا" أنك توقفتي عن العمل. فرحت أتوسل إليك، أتذكرين! رحت أتوسل إليك

قائلة: "أعذريني، يا حبيبتي لأني صرخت فيك، فلا ذنب لكي فيما حدث. الإنسان أحياناً يصرخ بدون وجه حق في وجه الشخص الذي يحبه. فأنت تعرفين كل أسراري. لكن تعرفين جيداً أنني بحت لك بمكنون أسراري في أصعب لحظات حياتي، عندما هجرني. عندها لم يكن لي أحد غيرك".

ساعتها تفهت الأمر، وبدأت تعملين من جديد بكل هدوء. فجلست عند الطاولة في المطبخ، وأخذت منك حلوى، ومعلقة صغيرة من الصوان، وبدأت أتناول الحلوى من غلافها الورقي. رحت تنظرين إلي بحنان ومواساة. من وقتها ونحن أصدقاء. تعاطفتي معي، ألسنا صديقتين؟ بلى، نحن صديقتان حميمان. لا تغار إحداناً على الأخرى. ونساعد بعضنا البعض.

ترعى كل منا الأخرى. أحاديث كثيرة دارت بيننا، وأسرار كثيرة بوحنا بها لبعضنا.

ألم أقل لكي ما ذكره لي ذلك الرجل؛ الذي عقد قراننا في صالة الأفراح بعد عقد القران؟ ذلك النائب، نائب ما في البرلمان. كان يرتدي زياً مزركشا. لديه بعض شعيرات على رأسه، وحاول أن يصففها، لكن كان واضحاً أنه لم يتمكن من ذلك أبداً. وبما أنه لم يكن يرى نفسه، فقد كان راضياً عن نفسه. حاول أن يكون خفيف الظل، حيث أن أجواء الفرح يجب أن تكون مرحة. وجاء يسألني؛ أنا

العروس التي ترتدي فستاناً أبيضاً، إن كنت أعرف الفرق بين العروس، والتقنية البيضاء. ابتسمت له ببلاهة، شأن أي عروس شابة، وجميلة، وحديثة الزواج. لم ينفع هذا يوماً ما. لكنني كنت دائماً أجرب أن أبتسم بسعادة وغباء. إلى أن أدركت الآن فقط، حيث لم يتبقى لي سواك، فتوقفت عن هذا. الإنسان يظل يتعلم طوال حياته. لكن حتى عندما توقفت عن ابتسامة السعادة البلهاء، لم ينفعني هذا في شيء. الأمر سيان. وعندما صمت للحظة، حيث لم أعرف كيف أرد على السؤال. قال لي موضحاً "لا يوجد فرق على الإطلاق". ثم برقت أساريره. أما أنا فقد ابتسمت ابتسامة مُرّة. نعم، أعرف أن لديك خياراً محفوظ في سائل مُرّ قليلاً. سوف أتناوله. فكرة لا بأس بها. إن العروس لا تعمل بالكهرباء، بل بقوة نابعة منها. لم أتمكن وقتها من أن أكون خفيفة الظل. لكن زوجي ابتسم له حينئذ، ولم يتمالك نفسه من الضحك. كذلك ضحك الشاهد أيضاً. ضحكوا جميعهم، واستغرق بعضهم في الضحك. صمت جميع الحاضرين. سمعت هذا الصمت في ضحكهم هذا. لم تقوى امرأة واحدة على الضحك، ولا حتى أنا. هكذا تسير الأمور. كانت هذه بمثابة نبوءة لي. نبوءة لي ولزواجي. التقنية البيضاء. بيضاء كرمز النقاء؛ الغسالة، ومن بعدها الموقد الذي يجب تنظيفه على الدوام، والثلاجة، ثم غسالة الأطباق. لكنه أخذ تلك الغسالة معه حتى يعطيها هدية لزوجته التالية، كرمز للمساعدة والتعاون. الرجال يشترون غسالة الأطباق عندما يشعرون بتأنيب الضمير، أو عندما يشعرون أنهم سيكون عندهم ضمير يوماً ما. وليس عندي رغبة في امتلاك غسالة أطباق.

تكفيني أنت يا ثلاجتي الجميلة. ولا يزعجني أننا نشبه بعضنا يوما بعد يوم. بل هو شرف لي يا عزيزتي، يا أعز صديقاتي.

obeikandl.com

حادثة عابرة في الليل

مال مناصر حقوق الإنسان الشهير على سرير، يرقد فيه شخص مجهول - ربما يكون أحد المشاركين في الدورة الصيفية للخريجين-. كان هذا الشخص المجهول أصلعاً تقريباً، ربما من باب الوجاهة. لكنه لم يكن يقصد ذلك. مال رجل العلم على سرير في غرفة، كان بابها مازال مفتوحاً، وقد بلغت الساعة منتصف الثالثة صباحاً. مال عليه وهو منتشياً. يتطلع إلى إقامة علاقة حميمة، يتطلع أن يفاجأ المرأة الجميلة، التي أسرت فؤاده طوال الليل بنظراتها الساحرة، من عينيها العميقتين. لكن فجأة أضاء المصباح في عينيه مباشرة. لم يحدث له أمر كهذا منذ زمن. كان آخر مرة حدث له هذا أثناء التحقيق معه عندما استجوبه أمن الدولة، وقد كتب العديد من المقالات في هذا الأمر. كان أمراً بشعاً. فقد جلسوا أمامه وهو لا يراهم، صوبوا نور المصباح إلى عينيه، وكأنه في فيلم بغيض. وبدءوا في استجوابه.

كان الوقت ليلاً، لم يكن يفكر سوى في قضاء ليلة ساخنة، ولكن فجأة ظهر هذا المصباح. فرأى رأس إنسان أصلع يرقد في السرير، يغمض عينيه، ثم يقلب فيه طرفيه بنظره القصير. يتحدث بلغة أجنبية؛ باللغة الإنجليزية. رأس أصلع كرأس المساجين. لا يريد أن يفكر في ذلك الأمر. نعم لن يفكر فيه. فهو لم يمكث في السجن طويلاً حتى يحلقوا له شعره. كما أنه لم يسجن يوماً ما. كل ما في الأمر أنه كتب عنه. صحيح أنه تعرض للاستجواب. أما باقي الأمور فهي مجرد تقمص. فهو يتمتع بهذه الموهبة. وقد حصل على جوائز عن كل ما كتب. عن السجن، وتقييد الحريات، والنظم الشمولية. كلها أمور غير طيبة. لكن لماذا ترقد هذه الرأس الصلعاء الآن في هذا السرير؟ هنا. في هذه الحجرة التي رآها تدخل إليها؟ كانت بمفردها، بدون رفيق يأخذها إلى السرير طوال الأمسية التي تلت العشاء، وحتى نهايتها. ببساطة كانت بمفردها. أعطت له إشارة - أمر طبيعي- عندما بقيت تشاركهن الجلسة. راحت ترميه ببصرها، ثم تركت باب الحجرة مفتوحاً. فلماذا إذن هى غير موجودة؟ كان الوقت كافياً لأن تأخذ حماماً، فهو أيضاً قام بالاستعدادات الضرورية للقاء. أين هى إذن ؟ أين هى بحق السماء؟ أين؟ إنه ليس سكراناً إلى هذه الدرجة! أين ذهبت؟ إن المسافة من الباب إلى السرير مجرد بضعة أمتار.

مازالت يد الشخص الأصلع تمسك بالمصباح، وتصوبه إلى عين رجل حقوق الإنسان. كانت الأمور قبل ذلك تنبأ بأنه سيقضي ليلة طيبة، حتى موعد قدوم السائق في الساعة السادسة صباحاً، وأنه سيتمكن من حضور المؤتمر الصحفي الصباحي في العاصمة، حتى دون أن

يغتسل. فيكفيه فنجان من القهوة، وسيجارة من شأنها أن تغطي على كل الروائح الكريهة. وربما يتناول بعض الكونياك. لكنه بدلاً من هذه الرؤية الرائعة، يرى رأساً صلعاء، تنظر إليه من هذا السرير. والله وحده يعلم إن كانت لرجلاً أم لامرأة. لكن ماذا لو كان رجلاً مثلياً؟ لقد شارك في المدرسة الصيفية أناس غريبي الأطوار. رجال يلبسون الأقراط. نعم، هذا أيضاً يجب أن يتحمله الإنسان. ظهر الجميع على أنهم أناس مستقلون، وفضوليون. كانوا يتملقونه، ويغارون منه. لكن بعد هذا العرض عن الأخلاق والمعارضة، والمعاناة لا يمكنه أن ينتهي به الحال في السرير مع رجل شاذ جنسياً. مازالت يد الرأس الصلعاء تمسك بالمصباح، بعد لحظة قام بتنحية المصباح جانبا، فسقط النور على الأصلع أيضاً. الحمد لله! إنها امرأة. راحت تتحسس نظارتها، ثم صرخت في هلع. هدأت بعدها بشكل واضح، وهي مازالت ترمقه بعينيها الناعستين اللتين تعانيان من قصر النظر. ترتدي في شحمة أذنها اليسرى قرطاً صغيراً. لقد كانت "سيبيلا" على حق. لقد عشنا لنرى أننا لم نعد نفرق بين الرجل والمرأة.

اسمها "نيلا" على ما أعتقد، وهذه هي تسريحتها. تهتم بالمنشقين من وسط أوروبا، تجري معهم الأحاديث، تستفيد من مجدهم. وهي الآن تهتم لأمره. سوف تسأله عن علاقة السلطة بالسياسة، وعن دور المثقفين في السياسة، وعن انتشار القوميين في فترة ما بعد انتهاء الشيوعية، الخ. لقد اعتاد على هذا، ويمكنه أن يرد على مثل هذه الأسئلة حتى في منتصف الليل. غير أنه يجب أن يكون حريصاً في أحاديثه مع جرائد نيويورك. فمثلاً يجب أن يتجنب النكات عن اليهود، وعن المرأة، وأيضاً عن الشواذ، وعن سعادته من أن هذه السياسة النزيهة - أو ماذا أسميها، لعنهم الله! - لم تصل إلينا بعد. لكن ما العمل الآن؟ إنه ينحني على سرير هذه الصحفية، وكانا قد اتفقا على موعد. لكن ماذا لو اعتقدت بأنه يريد أن يضاجعها؟ وماذا لو أنها كتبت عن هذا الأمر في الجريدة؟ لكن هل يوجد شاهد على هذا؟ إن لم يكن، فيجب أن ينصرف بسرعة قبل أن توجه هذه المرأة أضواء فلاش كاميرا التصوير هذه المرة. لكن ماذا لو أنها سألتني عن هذا الأمر أثناء إجراء المقابلة؟ يمكنه أن يتبرأ من المقابلة. لكن بماذا سيعلل الأمر؟ وماذا لو أنها نشرته رغم ذلك؟ لقد تمكنت منه هذه المرأة، يا إلهي! إنها المرأة! هؤلاء السيدات! لا سبيل للهروب منهن، لا سبيل. لا يهم، المهم هو الهروب من الباب. إنه يقع خلفه تماماً، فليستدير. وعلى الفور سيكون بالخارج. ولا يهم ما سيحدث فيما بعد. سيتناول في حجرته كأسين من الفودكا أو الكونياك أو الويسكي، لا يهم. سيكون شرباً ثقيلاً، وسيغط بعده في النوم. في الصباح في

الساعة الخامسة والنصف سيوقظه السائق دون أن يغتسل. سيشعل سيجارة، ويكمل نومه على المقعد الخلفي في السيارة.

سيكون اليوم في خبر كان، وهو أيضاً كذلك. لكن المهم هو نسيان هذه الليلة. من الواضح أن هذه الصحفية اللعينة قد أوقعت به. يجب ألا يترك لها الفرصة. سيقول على سبيل المثال أنها مثليّة، وربما هي كذلك بالفعل. وإلا لجذبته إلى السرير، طالما أنه يَقِفُ منكباً عليه. ربما تكون متزوجة، وعندها طفل صغير، لكن لماذا لا تبقى مع صغيرها هذا؟ في مدينتها اللعينة نيويورك! ما الذي يجعلها تهرول وراء المنشقين من وسط أوروبا؟ المنشقين السابقين. لماذا لا تجلس في بيتها؟ عما تبحث هنا؟ أتريد أن تضاجع أحد المثقفين من وسط أوروبا أم لا؟ ماذا تريد؟ أهي ترقد في هذا السرير وتنتظر أن توقع به؟ لكن كيف عرفت أنه سيدخل إلى هذه الغرفة وسينام في هذا السرير؟ انصرفت بعد المحاضرة مباشرة بعد أن اتفقت معه على موعد المقابلة، ثم اختفت. فلو كانت تريد الإيقاع به لبقيت هناك فترة أطول. لكنه لم يأسف على هذا. فهي لا تعجبه على أية حال. إنها امرأة لا سحر لها، شخصية عقلانية، تسأل عن كل شيء. ربما تكون بالفعل متزوجة وعندها طفل، ولا تهتم لأمر الرجال الغرباء.

لكن أين تلك المرأة الثانية، بالأحرى الأولى التي جاء من أجلها؟ ألم ترغب هي الأخرى أن تجري معه حواراً؟ ربما اختلط عليه الأمر، فربما كانت تريد ذلك، لكنها لم تأخذ الأمر مأخذ الجد، فهي حتى لم تسمعه. كانت تعتقد أنها مجرد ذريعة. بالفعل، ربما لم يكن وجودها سوى ذريعة. فهما لم يتفقا على أي شيء. لم يحدد معها موعداً. فقد كان يعتقد أن الموعد سيتحدد من تلقاء نفسه، لكن ليس من أجل الحديث الصحفي. لقد حدد موعداً مع هذه المرأة الصلعاء. اتفق معها على أن تحضر غداً إلى العاصمة لعمل مقابلة مستفيضة. ربما تسنح له الفرصة بعدها لإقامة طويلة وراء البحار، يقوم خلالها بإلقاء بعض المحاضرات، والأهم من ذلك هو الاسترخاء. لكن ما العمل الآن؟

"نايلة"، إنها هي. كانت تبدو في تلك الليلة ناعسة، ومستغرقة في التفكير، حملقت فيه. كانت مرهقة للغاية. انصرفت بعد المحاضرة مباشرة. راحت تفكر طوال اليوم في ابنتها البالغة عامين، والتي بقيت مع زوجها في المنزل. هل ستوافق في هذا أم لا؟ اتصلت بالبيت وأخبرتهم أن كل شيء على ما يرام. ثم راحت تعد للمقابلة حتى الليل. لم تبقى في الجلسة طويلاً، فلم تكن تعني لها شيء. استيقظت فجأة أثناء الليل، حيث لاحظت أن شخصاً ما منكب على سريرها. كان منكباً بالفعل. قزعت في البداية من الأمر، لكن عندما تأكدت من هويته شعرت بالراحة. فلم يدور في رأس "نايلة" ذات الشعر القصير أن يُمثّل هذا الرجل الشهير خطورة على باقي جسدها. فهي

تعرفه كأحد مناصري حقوق الإنسان، أو من دعاة الفضيلة. وبالتأكيد لن يقوم بشيء يخالف مبادئه. وفي الصباح راحت تفكر إن كانت قد سمعته في وقت من الأوقات يتحدث عن الفضيلة. لم تستطع أن تتذكر شيئاً. لكن لماذا يتخلى عن مبادئه! يناضل من أجل الحقيقة، ثم يغتصب امرأة ما في الليل! الأمران لا يجتمعان معا. بالتأكيد هو ليس كذلك. ربما أراد أن يقول لأحدهم: تصبح على خير! لكنه أخطأ الغرفة. إنه بالتأكيد لا يعرف أين هو الآن. ربما لا يعرف ماذا يريد. المهم ألا يؤذيها. وبينما هي تضيء المصباح قال لها شيئاً بلغة غير مفهومة من لغات وسط أوروبا، معناها بالتأكيد أنه لم يأتي وراءها. إنها لا تعرف سوى اللغة الإنجليزية، وهو يعرف ذلك. إنه يعرفها. ألم تتفق معه على إجراء مقابلة صحفية لصالح صحيفة شهيرة بمدينة نيويورك؟ بالتأكيد سوف يترجمون الحوار. ماذا يريد منها إذن بالليل، وهو يقف عند سريرها؟ كم الساعة الآن يا ترى؟ الثانية. أصابتها الدهشة، وهى تعبث في المصباح الموجود بجوار سريرها. لكن عندما رأته، توقفت عند مرحلة الدهشة. وعندما أدارت المصباح على وجهه، رأت عينين تطرفان، منتفختين قليلاً وضيقتين وصغيرتين مثل أعين الشامة. جبينه يتفصد عرقاً، وفمه فاغر وفاهه مبتل. منكب عليها. استدار فجأة، وانصرف بخطوات ثقيلة عرجاء نحو الباب. وجد الباب على الفور. فإن كان قد ضل طريقه، وذهب إلى الغرفة الخطأ، والى السرير الخطأ، فعلى الأقل وجد طريق العودة، وعثر على الباب. "نايلة" سعيدة لهذا الأمر.

وبعد أن انصرف راحت تفكر في الأمر. ماذا لو أنه قد سقط عليها؟ ربما تحملته. لو حدث لظلت من تحته بلا حراك من هول المفاجأة. أما هو فربما غط في نومه من فوقها. وهى تعرف نفسها. فلن تجرأ على إيقاظه. وفي صباح اليوم التالي ستصاب حتماً بالجنون. بماذا ستفسر له عندما يستيقظ، ويجدها تحته؟ لحسن الحظ انتهى الموقف على خير، ولم يسقط عليها. وكان هذا أفضل ما يمكن أن يحدث.

كيف ستجري الحوار معه الآن؟ وماذا لو أنه رفض لقاءها؟ وماذا سيقولون لها في العمل؟ سيطلبون منها أن تجري المقابلة على الفور. هكذا تسير الأمور. يجب ألا تلقي له بالا، وتكتب مقاله عن رجل سكران؛ يهاجم السيدات في أسرتهن. لكنهم لن يقبلوا منها هذا الأمر. إن هذا النوع من الانفلات لدى الشخصيات العامة لم ينجح من قبل في مجال الإعلام. وبينما كان الرجل ينصرف خارجاً من الغرفة، نهضت "نايلا" من السرير لتتأكد من أن "بورا" قد جاءت إلى الغرفة. لم تسمعها تدخل. تعمدت أن تترك لها باب الغرفة مفتوحاً، هكذا اتفقتا؛ حيث أن أبواب بعض الغرف في هذا البيت القديم بها عطب.

عندما يقوم شخص ما بإغلاقها، تَعْلَق ويجب عندها إبلاغ الخدمة الليلية، وهو أمر غير محبب على الإطلاق. لذلك اتفقت "نايلا" مع "بورا" أنهما لن يغلقا الباب. فمن غير المتوقع أن يأتي أحد إلى هنا أثناء الليل. "بورا" ترقد في سريرها، أو ربما هي كذلك، حيث أنها ترى على السرير الآخر المقابل لها كومة ما تحت اللحاف، وكأن هذا اللحاف يهتز. لكن ربما تتخيل "نايلا" هذا. سألتها "نايلا" إن كانت رأت ذلك الرجل. لكن "بورا" لا تجيب. إنها نائمة. فتركتها "نايلا" في حالها.

ذهبت "نايلا" في الصباح لتقضي حاجتها، في الوقت الذي كان رجل حقوق الإنسان يدخل إلى سيارته – خرج من بوابة المنزل بخطوات واثقة وسريعة، تماماً كما انصرفت من باب غرفتها. رفع رأسه إلى أعلى ينظر إلى السماء، ابتعدت "نايلا" من عند النافذة حتى لا يراها. دخل سريعاً إلى السيارة ثم اختفت السيارة من عند سور البيت.

كانت "نايلا" قد قررت أثناء دراستها العليا أنها سوف تكتب عن هذه المنطقة؛ التي كانت تعج منذ وقت قريب بضجيج صادر عن سور برلين الذي كان يتحطم. ذلك السياج الحديدي. صار كل المعارضين أعضاء في الحكومة، الأمر الذي يعد غريباً في أماكن أخرى من العالم. لذلك يأتي الناس إلى هنا من كل حدب وصوب؛ ليشاهدوا ما حدث. غير أن البريد هنا لا يعمل، وكذلك الجمارك والحافلات وغيرهم. في المقابل تحقق هذه الظاهرة نجاحاً يفتن النساء، ويعطي الأمل للرجال: ظاهرة المثقفين الذين يجوبون العالم. ستحكي "نايلا" لـ "بورا" في الصباح عن الزيارة الليلية باختصار. وستكون إجابة "بورا" مقتضبة: "تعودي على هذا، فالبريد، والجمارك وغيرها من المؤسسات لا تعمل هنا في وسط أوروبا، باستثناء الشخصيات العامة. هذا كل ما في الأمر".

"بورا" و"نايلا" تتقاسمان الغرفة، والحمام، والمرحاض في البيت القديم الذي تقيمان فيه أثناء دراستهن في المدرسة الصيفية عن الديمقراطية. تتقاسمان العمل بالبيت: غسيل الحمام، والمرحاض، وأرضية الغرفة. تتقاسمان حجرة العمل الملحقة بها غرفة التجفيف. تتقاسمان أدوات التجميل: الكريمات، والروائح. تتحدثان سوياً عما تفعلانه. أقامتا هنا وكأنهما في أحد الحصون. اقتربت إقامتهما من نهايتها، ولم تبقى سوى المقابلات النهائية، وحفلة الوداع، وبالطبع محاضرة أحد المثقفين البارزين المحليين من وسط أوروبا، والمنشق السابق المدافع عن الحرية، وحقوق الإنسان. شعاره هو أنه شخصياً يساند دائماً جميع المضطهدين. محاضرة تتبعها مناقشة ساخنة مع الطلبة، تمتد إلى وقت متأخر من الليل.

وعندما تستيقظ "بورا" و "نيلا" في الصباح يكون الرجل المثقف قد صار خلف الجبال والوديان، حيث أن عنده سائقه الخاص.

لم تتمكن "بورا" من الاتفاق معه على موعد اللقاء، فهو لم يحدد معها موعداً. إنها أجنبية، وليست أمريكية. لذلك هى غير مهمة بالنسبة له. كانت "بورا" تتمنى أن تتفق معه على الموعد بعد المحاضرة. لكنها فقدت الأمل؛ حيث أنه صار سكراناً. قالت لنفسها رغم ذلك أنها لن تترك الجلسة، حتى لا تأسف على ذلك فيما بعد. لقد سمعت عنه الكثير، وها هو الآن يجلس أمامها -هذا الرجل الشهير- يلقي بالنكات، ويزهو بمغامراته، ويرمقها من وقت لآخر بشكل ملحوظ. كانت بورا تعتقد أن الرجال يزهون بأنفسهم هكذا، فقط مع أنفسهم.

ربما أراد أن يلفت انتباهها، أو انتباه امرأة أخرى إليه. كان يتحدث من وقت لآخر عن زوجته، ويتحدث والدموع تنهمر من عينيه؛ كيف أنه تمكن من العيش في ظل النظام الشيوعي. وفي لحظات محددة كان يقول مخاطباً "بورا": "فتاة جميلة مثلك لا حاجة لها بأمور السياسة. فهي أمور قذرة، ما عليك سوى الجلوس والابتسام، هذا يفيدك أكثر". عندها يفتر عزمها على عمل مقابلة معه. وفي نهاية الأمر ترغب تماماً عن إجراء الحديث. إنها سعيدة لأنها لم تتفق معه على شيء. راحت تقول لنفسها أنه لا داعي من البقاء. أنهى الرجل مزحة ذات معنى مزدوج. ابتسم لها الجميع. راحت "بورا" تفكر في طريقة تجعلها تنصرف من هذا اللقاء؛ الذي لا يشارك فيه سوى عدد قليل دون أن يلاحظ الرجل الشهير الذي مازال يرشقها بسهام نظره. يقع الباب خلفه مباشرة. في النهاية تعللت بأنها ذاهبة إلى الحمام، ثم انصرفت. اندفعت إلى حجرتها. لكن فجأة سمعت وقع خطوات من خلفها، التفتت فإذا به يسير من خلفها. ابتسم لها ابتسامة واعدة، وغاضبة قليلاً. فدخلت "بورا" إلى أول حمام نسائي قابلها. بالتأكيد هو لا يقف عند الباب ينتظر خروجها! خرجت "بورا"، ولم تجد رجل حقوق الإنسان ينتظرها عند باب الحمام. ربما مازال يمتلك في نفسه بعض التحضر، رغم أن الكحول قد انتشر في دمه ولعب برأسه بشكل واضح، وزالت معه كل العوائق. توجهت "بورا" نحو غرفتها. غير أن هذا المبنى كان قصراً قديماً، والقصور القديمة عادة بها العديد من الدهاليز التي لا تعرفها "بورا" رغم مرور شهر على إقامتها فيه. اعتقدت أنها اتخذت الطريق المختصر، لكن لم يكن الأمر كذلك. راحت تتخبط في الطرقات. وعند أحد أركانها سقطت بين زراعي رجل المجتمع المخمور: "بورا"! بحثت عنك في كل مكان". كان عيناه تبرقان. حدثها بصيغة غير متكلفة، مما ينم عما سيحدث فيما بعد. من حسن الحظ ظهرت عند المنعطف

بقية المشاركين؛ الذين يلاحقون الأستاذ في دهاليز القصر. يتقدمهم "إيفو"، صديق "بورا" الذي افتتن بالأستاذ وأحبه، وصار الآن خائفاً عليه. فمن الممكن أن يحدث أي مكروه. ساروا من خلفه يبغون حمايته، وقد تحقق لهم ذلك لحسن الحظ. الأمر الذي أشعر "بورا" بالارتياح. تأبط "إيفو" وغيره من الرفقاء ذراع الأستاذ يرافقونه عبر دهاليز البيت، حتى يصل إلى غرفته. عند الباب راح الأستاذ يحاول جاهداً العثور على المفتاح في جيب سرواله، الأمر الذي استغرق وقتاً طويلاً. لم يتجرأ أحد منهم على مساعدته. لو كان قد وضع المفتاح في جيب معطفه، لكان الأمر أسهل بكثير. لكنهم وقفوا بصبر ينتظرون حتى عثر عليه في النهاية. حاول الأستاذ العثور على فتحة المفتاح، لكنه في نهاية الأمر ناول "إيفو" المفتاح ليتولى الأمر نيابة عنه. ودعوه متمنين له أحلاماً سعيدة. "أين غرفتك يا "بورا"؟! آه "بورا"! وتمتم بكلمات غير مفهومة. لم تجبه "بورا" وانصرفت سريعاً إلى غرفتها. خطر لها أن تحاول إغلاق الباب بالمفتاح، لكنها رأت أن الأمر لا يستحق مثل هذه الجلبة، فالأبواب هنا تعلق وقد تستيقظ "نايلا". فضلاً عن أن هذا الرجل لم يتمكن من العثور على فتحة باب غرفته ليفتحه، فما بالك بغرف الآخرين. كانت "بورا" مقتنعة أن الرجل اللامع قد يغشاه النوم قبل أن يصل إلى السرير. كاد الرجل يسقط في سرير "نايلا"! سمعت "بورا" وهي في سريرها الرجل الشهير يتمتم لـ"نايلا" بشيء لا يمكن أن تفهمه. شيء من قبيل: لا تخافي، فلن أؤذيك". بعدها صوبت "نايلا" المصباح إلى وجهه، فصاح الرجل صيحة مكتومة. راحت "نايلا" ترمقه بنظرها القصير، ثم لبست نظارتها الصغيرة المستديرة، وهي تصوب المصباح على وجهه. فكرت "نايلا" فيما سيحدث، إذا التفت هذا الرجل الشهير خلفه، ورأى السرير الآخر. أسيحاول أن يعرف من ينام فيه؟ أسينقض عليها، أم سينصرف إلى غرفته؟ كتمت"بورا" أنفاسها. في النهاية استدار الرجل الشهير بوجهه ليرى باب الغرفة أمامه تماماً، فانصرف بهدوء مغلقاً الباب من خلفه. راحت "بورا" تتخيله وهو يتمايل في الدهليز. إنها على استعداد أن تفعل أي شيء لتراه على هذه الحالة، وترى ما يفعله. قالت "نايلا" بصوت يملأه النعاس متسائلة: "بورا! هل أنت هنا؟ أرأيت هذا؟ ربما أراد أن يتمنى لأحدهم ليلة سعيدة، وأخطأ في الغرفة". ألقت "نايلا" رأسها على الوسادة وراحت تزفر باطمئنان. كان يمكنه أن يطرق الباب، والله أعلم ما يمكن أن تؤول إليه الأمور وقتها. أسوأ ما في الأمر أن هناك أناس يدقون على الباب، أو يتصلون هاتفياً. لكن بات واضحاً أن لن يعود مجدداً.

انصرف رجل حقوق الإنسان إلى غرفته، تناول شيئاً من زجاجة شبه فارغة، ثم استلقى على السرير مرتدياً ملابسه، وغط على الفور

في النوم؛ حتى لا يتذكر شيئاً مما حدث. راوده في الليل حُلم بأن النساء المدافعات عن حقوق المرأة في أمريكا اشتكوه بتهمة التحرش. وراحوا قبلها يستجوبونه، والمصباح موجه إلى وجهه. سألوه لماذا ذهب إلى تلك الغرفة، فلم يعرف الإجابة. صحيح! لماذا ذهب إلى تلك الغرفة؟ إنه لا يتذكر شيئاً مما حدث. فوراً قرر أن يسمح للصحفية من جريدة مدينة نيويورك أن تجري معه المقابلة، إن هى اتصلت به ثانية أو قابلته. سيجري اللقاء بصورة طبيعية. وسينسى حكاية السرير. هل حدث شيء؟ كل شيء ممكن في هذه الحياة. وكل إنسان معرض لمثل هذه المواقف. المهم أنه لم يحدث أي شيء.

استقل سيارته في الصباح. أخذه السائق إلى العاصمة. فعنده مؤتمر صحفي في الساعة التاسعة. سيتوقف في الطريق ليأخذ فنجاناً من القهوة، وسيشعر بتحسن. كانت أسوار القصر القديم عالية، وفناءه الداخلي المغلق يشبه فناء السجون. راح رجل حقوق الإنسان يجوب بعينيه في السماء. يعرف ذلك الشعور الأبدي الذي يراود السجناء. لقد قرأ عنه الكثير. ويمكنه أن يشعر بما يشعرون به. نظر إلى أعلى، ترك المشهد المربع المائل للزرقة تأثيراً في نفسه. هكذا يرى العالم من فقد حريته. إنه وقت الصباح المبكر، رغم ذلك يسهل التوقع بأن الطقس اليوم سيكون صحواً.

صانع مشاهير الموتى

وقع في سمعه نعيب الغربان وقت الصباح. لم يكن قد لاحظ بعد أن فصل الخريف قد حل. ها هم هنا، هؤلاء الطيور اللعينة، ولن ينصرفوا بسهولة. كان "يان زوستاتوك" ما آن يسمع في نومه نعيق الغربان حتى يعلم أن أكثر فصول السنة حزناً قد حل. يبدأ بعيد الأرواح، وينتهي بالإقرار الضريبي. لكن لا سبيل لتغير الأمر. يجب أن يتحمله. لكن ليت "تسيتسوشكا" لم تكن تكره الظلام، ولا البرد. ليته يستطيع أن يسافر - إلى المكسيك، إلى الصحراء، أو إلى أي مكان آخر. لكن ظروفه لا تسمح بذلك. لا يمكن أن يسافر "يان زوستاتوك" إلى الجنوب مع زوجته التي تعاني من اكتئاب في فصلي الربيع والخريف؛ يعرضها لكوابيس نصف العام. فليس لديه الأموال الكافية لهذا الأمر. وبالتالي لن يعرف إن كان هذا السفر سيفيدها أم لا. الغربان، يعرف تماماً أنهم سيقومون بالتقاط المخلفات من حول حاويات الفضلات. عندها تململت "تسيتسوشكا" قائلة: "ليت هذه الطيور اللعينة تأكل على الأقل الزجاجات البلاستيكية!". إذا اقترب منها الإنسان تهز أجنحتها السوداء ببطء، وتقفز في أماكنها، ولا تظهر أية خوف. يصيبون "يان زوستاتوك" دائماً بالانزعاج. فهذه هذه الطيور لا تهاب أحداً على الإطلاق. يتنحون جانباً، ويقفزون. لكنهم ينظرون إلى الإنسان بوقاحة، ورقة في آن واحد. وكأنهم أصحاب المكان. شأنهم شأن الموظفة التي كانت تعمل عند "يان زوستاتوك". نعم، بالضبط! اسمها "ماتيلدا". كان تودعه كل يوم بنظرة شبيهة؛ نظرة وقحة، ورقيقة مثل هذه الغربان التي تبدو سعيدة في الشوارع. والإنسان فرح بهذا. لكن ماذا لو أنها هاجمته بمنقارها الكبير المهيب؟ لم يكن لـ"ماتيلدا" منقار، لكنها في المقابل كان تجيد الثرثرة. كان الزملاء يدعونها "ماتيلكا". لكن عندما كان يناديها هو بهذا الاسم كانت تصححه، وتقول: اسمي "ماتيلدا" أيها الرئيس، "ماتيلدا"! كانت تبدو وهي تقول ذلك الكلام مثل هذا الغراب: مطأطأة رأسها وكأنها تريد أن تنقره، ومن خلف أنفها تلمع عيناها التي أصابتهما الدهشة. تراقب إلى أي مدى اقترب رئيسها من حالة الغضب. كانت دائماً عندما يكلفها ببعض المهام، أو يسألها إن كانت قد أنجزت عملاً ما، تبتسم من باب الاحتياط، وتنظر إليه بنظرة مليئة بالفضول. كانت زوجته "تسيتسوشكا" تقول له أن بعض البشر يمتلكون قسمات ارتبطت وجوههم بها، ولا يجب أن يأخذ الأمر بشكل شخصي. لكن "يان زوستاتوك" لم يستطع أن يأخذ الأمر إلا كذلك. كانت "ماتيلدا" تصيبه بالقلق. كان يعرف أن هذه المرأة الغريبة يمكن أن تجعله يصل إلى حافة الانفجار. كان على

قناعة بأنها تسعى إلى أن تجعله ينفجر، وأن تتمكن من أن تنظر إليه بنظرتها الغريبة. مرات كثيرة والغربان تأتي في الخريف إلى هذا الحي الذي انتقل إليه بعد بلوغه سن المعاش، لكنه لم يفكر من قبل على الإطلاق في "ماتيلدا". لماذا يتذكرها الآن بالتحديد؟ ربما ماتت، ولهذا تريد أن تودعه. يقال إن أمور كهذه تحدث. أصيب "يان زوستاتوك" بالفزع قليلاً؛ خوفاً من أن حالته النفسية قد ساءت. يجب أن يشغل نفسه بأمر آخر.

بسط رجليه مستقراً في مكانه، ثم بدأ في تصفح الجرائد اليومية. تجاوز صفحة السياسة والمشاهير، وراح يقلب في إعلانات الوفاة. ليس من أجل "ماتيلدا"، إطلاقاً. ولو وجد اسم "ماتيلدا" هناك لانزعج منه. فلا يجب أن تعكر عليه صفو حياته حتى بعد موتها. إنه يرغب في تصفح إعلانات الوفاة لسبب آخر مختلف تماماً. في البداية راح يقرأ إعلانات النعي. ففيها يكتبون عن أناس لا يعرفهم "يان زوستاتوك". إنه مهتم بكل ما يمكن أن يصيب البشر، ويسعده أنه لم يصاب بمكروه حتى الآن. إن أخبار الوفيات اليوم مملة. لكن عما سيحدث زوجته "تسيتسوشكا" اليوم وهما يتناولا القهوة؟ راح يقلب صفحات الجرائد؛ بحثاً عن شيء يجذب زوجته "تسيتسوشكا" ولو قليلاً. إن "تسيتسوشكا" مازالت نائمة. فنظام حياتها هادئ. واصل متابعة الجريدة حتى وصل إلى إعلانات الوفاة. وحتى هذه الإعلانات اليوم ضعيفة. لم يجد سوى عجائز مجهولين: أمك الغالية! جدتك وجد جدتك! مرحلة من العمر تعني أن المتوفيين قد عاشوا عمراً مديداً. لا شيء، أمر لا يستحق الذكر. أصيب "يان زوستاتوك" بالضجر. فوضع الجريدة جانباً، ثم انحنى، وأغفى على المقعد قليلاً. تراءى له حلم. رأى أنه يجلس في المكتب. كل شيء شفاف وواضح، شمس الصباح تصب نورها على كل شيء. الهواء مفعم بالآمال، والستائر تتراقص في نسيم الصباح. وهو يجلس خلف الطاولة، يكتب نعياً وهو سعيد. توفي في فترة زمنية قصيرة ستة أدباء مشهورين: ثلاثة منهم ماتوا لتقدمهم في السن. أحدهم لقي حتفه في حادثة مرورية، والآخر شرب الكحول حتى لفظ أنفاسه، والسادس انتحر. أصيبت البلاد بحالة من الذهول. لكن "يان زوستاتوك" سعيد تماماً لأن جميع الجرائد تحتاج إلى نعي، ولا أحد يفضل كتابته. إن "يان زوستاتوك" يكتب النعي، ويوقعه باسمه الأول، أو بحروف من اسمه. كانت جدته كثيراً ما تقول له: "ستجد دائماً الشخص المناسب في المكان المناسب". إنهم يدفعون مقابل نصوص النعي هذه. لماذا إذن لا يكتبها؟! الموضوع معروف، والجنس الأدبي كذلك، والمصطلحات قصيرة. فلا أحد غير "يان زوستاتوك" يمكنه القيام بالأمر. إنه يجيد الأمر؛ لأنه يستعد له مسبقاً بصورة جيدة. يتابع دائماً في بداية كل

عام أعمار المشاهير. من منهم مازال يتمتع بعمر مديد هذا العام فهو مرشح أو مرشحة جيدة، رغم أن عدد المرشحات في تناقص مستمر. قام "يان زوستاتوك" بإعداد بضعة صيغ للنعي على سبيل الاحتياط. وعندما يمرض أحد المشاهير يقوم بكتابة النعي، ويضعه في درج المكتب، وينتظر. إنه يجيد كتابة نعي، ليس فقط للأدباء ولكن للرسامين والفنانين التشكيليين والموسيقيين...

الإنسان هو الإنسان. إن لم يمت فهو يحتفل بذكرى سنوية دورية. ويكفي في هذه الحالة إجراء تعديل على نهاية النعي، ويصبح صالحاً للاستخدام كمقالة احتفالية.

إن "يان زوستاتوك" يحب عمله. فدائماً ما كان يحلم بأن يكون أديباً، لكن هذا الأمر ينطوي على الكثير من المغامرة. لهذا صار رئيس القسم الأدبي في وزارة الثقافة. "تسيتسوشكا" تقرأ بشغف النعي الذي يكتبه في الجرائد. إنها معجبة به. لذلك يحبها "يان زوستاتوك". لم يحب أحداً في حياته مثلها. يخطط لأجازاته مع "تسيتسوشكا" حسب حالات النعي. فهو لا يمكن أن يسافر إلى المكسيك، بل إلى البلقان أو بلغاريا. وهذا يكفي. توجد هناك منازل للأدباء، والحياة هناك رخيصة. كما سيتعرف هناك على مرشحين جدد للوفاة. كل ما يفعله "يان زوستاتوك" هو أنه يحلم، وحتى في أحلامه سعيد. ما أن راوده هذا الغراب في منامه، حتى نهض، وجلس على المقعد. شعر بألم في رقبته. كانت زوجته "تسيتسوشكا" تقف عند الباب حائرة، تخشى أن تلقي عليه التحية. يجب أن تعد له طعام الإفطار. لكن "يان زوستاتوك" ابتسم لها بسعادة. لقد زوده هذا الحلم بالقوة. لينعق هذا الغراب! فلن يستطيع أن يفعل شيئاً. يشعر أن هذا الحلم ما هو إلا بذرة نبتت منها فكرة.

شرب القهوة مع زوجته، ثم راحا يتذكران القطط التي رباها. تحدثا عن قطتهما الأولى، وقطتهما الأخيرة. كانت الأولى بيضاء وأذنيها سوداوان، عيناها زرقاوان تنمان عن خضوع واستكانة. كانت تفهم كل شيء. ثم جاءت من بعدها تلك القطة السوداء. كانت "تسيتسوشكا" تخاف منها قليلاً في البداية. ثم جاءت قطة تشبه النمر. كان "يان زوستاتوك" يتحدث معها وهو يكلم زوجته وقت الغذاء. بينما يذهب الزملاء والزميلات لتناول طعام الغذاء، يظل "يان زوستاتوك" وحده في المكتب. يتناول رغيف الخبز مع الزبد والسلامي قليل السعرات، ثم يتصل بزوجته "تسيتسوشكا" هاتفياً. وبعد أن يفرغا حديثهما عن المشتريات والطبخ، تعطي السماعة للقطة "ميتسوشكا". يموء "يان زوستاتوك" و "ميتسوشكا" تجيبه. كان موقفاً مؤثراً. ذات مرة عندما انتهي من حديث كهذا لاحظ أن "ماتيلدا" توجد في المكتب المجاور، وتسمعه

وهى تمسك بيدها بفنجان من الشاي ثاغرة فاها. كانت قد توقفت عن تناول طعام الغذاء بسبب رغبتها في إنقاص وزنها. لم يتسم رد فعلها بالمكر، لكن بالدهشة الحقيقية. أغلق "يان زوستاتوك" باب مكتبه بلياقة، ثم أكمل الحوار. خرج بعدها، لكنه لم يتحدث عن الأمر إطلاقاً. من وقتها و"ماتيلدا" تتصرف معه بمزيد من الاحترام كما لو أنها بدأت تخاف منه قليلاً.

لكن ماذا عن هذا الحلم؟ إن هذا الحلم جعله يتنبه إلى هناك شيء يجيده تماماً. وعندما سألته "تسيتسوشكا" في المساء إن كان عنده الكثير من العمل، أجابها "يان زوستاتوك" بسعادة غامرة بالإيجاب، وأن عنده اليوم الكثير
من العمل.

ذهبت "تسيتسوشكا" لتنام، في الوقت الذي بدأت فيه نشرة الأخبار في التلفزيون. كتب "يان زوستاتوك" هذا الإعلان: "لا تتركوا الأمر للصدف، ولا للأقارب المكلومين! أنا أقوم بإعداد النعي، وكلمات الرثاء طبقاً لرغبة العميل، وسيرة حياة الفقيد. كما أؤمن لكم نشره بالجرائد. عندي خبرة في مجال الأدب".

في اليوم التالي أعد خطة دقيقة: استيقظ من نومه، حلق ذقنه، ثم أعد لنفسه الفطور، وحمل الإعلان وتوجه إلى الجريدة، ثم قام بتعليقه في محلات البقالة، فالإعلان هناك مجاناً. بعدها أعد لزوجته "تسيتسوشكا" الفطور، وليس عليه سوى أن ينتظر. ستنهال عليه العروض، وستمتلئ حافظته بالنقود. وربما سيسافر مع "تسيتسوشكا" في أعياد الميلاد لقضاء أجازة على شاطئ البحر. في المكسيك، أو أي مكان آخر... يالها من حياة جميلة. حتى في سن التقاعد يمكن أن يجد الإنسان عملاً يتقنه.

***

اكتشفت الإعلان وهي تتسوق لعطلة الأسبوع. قرأت الإعلان، ثم انصرفت. بعدها راحت تقول لنفسها: مَن من مصلحته نشر مثل هذا الإعلان؟ ما الذي جعلها تلاحظ مثل هذا الإعلان؟ ثم انتبهت إلى حافظة نقودها، والباقي الذي أعطته لها موظفة الخزينة، حتى لا تخسر باقي نقودها وهي غارقة في التفكير. جلست خارج المتجر على الأريكة تنتظر الحافلة، ثم حملت المشتريات إلى البيت، وعادت من جديد إلى محل البقالة. راحت تقرأ الإعلان مرة بعد أخرى. ثم سجلت رقم الهاتف. قامت بإعداد هاتفها النقال بحيث لا يظهر الرقم وحتى لا يعاودوا الاتصال بها.

– ألو!

– أنا أتصل بخصوص الإعلان.

– نعم،... تحت أمرك! البقية في حياتك! هل فقدت عزيز عليك؟

– في الواقع، أنا...

انعقد لسانها. كان الصوت مألوفاً لها، لكن لا تعرف أن تتذكره بوجه أو اسم معين.

– هل مازلت على الخط؟

– نعم.

– عفوا، أنتِ في الواقع أولى زبائني. لست في حاجة إلى أن تشرحي لي أي شيء. فأنا أعرف أن الأمر في مثل هذه المواقف ليس سهلاً.

– صحيح.

– فقط أريد اسم بيانات الشخص الذي سأكتب عنه خطبة الرثاء أو النعي، أو كلاهما... ومتى تريدينه.

كان يتحدث بصوت منخفض. ساد الصمت عبر الأثير.

أجابته قائلة: "ربما في أقرب وقت ممكن، أليس كذلك؟

– اعذريني، أنا أتعامل مع الزبائن الجادة فقط.

– طبعاً! وكيف... هل أرسل لك البيانات بالبريد الإلكتروني أم...

– من الأفضل أن تحضريها بنفسك. لكنني أعرف أن الناس في مثل هذه الحالات عندهم الكثير من المشاغل.

راح "يان زوستاتوك" يسب متذمراً بأنه يجب أن يستعد بطريقة أفضل. يجب أن يكون عنده بريد اليكتروني خاص بهذا الأمر. من الممكن أن يتعرض لأي شيء... يجب أن يطلب صورة من شهادة الوفاة حتى...

– الأمر يتعلق بعشيقي، إنه في حالة خطيرة... ولا أمل في شفائه، وأعتقد أن سيكون سعيداً إن عرف أن الناس تقدره بالفعل".

– لكن...

– إن لم يكن في استطاعتك أن تفعل، فلا عليك. أردت فقط أن أجرب. أنا أتفهم أنه من الممكن...

– الأمر سيان عندي. لقد اعتدت على ذلك. طالما ستعطيني المستندات، وتدفعين، عندها...

– ما هو المبلغ المطلوب؟

– خمسمائة كرون مقابل كل صفحة من خطاب الرثاء، وألف كرون مقابل صفحة النعي التي لا تزيد عن هذا، حتى نتمكن من نشره. بالإضافة إلى عشرين ألف كرون؛ قيمة نشره بالجرائد. فمثل هذه الإعلانات تعتبر مدفوعة الأجر. ومن خمسة إلى سبعة آلاف كرون مقابل خدمات أخرى، حسب الظروف. وإن أخذتِ خطاب الرثاء والنعي سوف أعطي لك خصماً قيمته ثلاثة في المئة على العرض
بالكامل.

– سأفكر في العرض وأتصل بك. وإن اتفقنا سوف أرسل لك المستندات.

جلس "يان زوستاتوك" على الأريكة وهو يضع عند أذنه سماعة الهاتف الذي أصدر إشارة قطع الاتصال. يخشى أن يكون قد بالغ في المبلغ المطلوب. لكن هكذا هو الإعلان مدفوع الأجر. وستكون أول صفقة له، إن اتصلت به هذه السيدة من جديد. وإن لم تعاود الاتصال سيعيد التفكير بأتعاب خدماته. لكن ما هذا الهراء الذي قالته عن صديقها الذي لم يمت بعد؟ ربما يكون الأمر خدعة.

***

لقد بالغ "يوجو" كثيراً في الشراب، حتى خالطت الخمر لحمه ودمه. شربوا على راحتهم، وبسعادة. حيث راح "رومان" يتحدث من جديد عن موته. يؤكد أنه في آخر أيامه، وأنه مصاب السرطان. لكنه يبقى حياً حتى ينقضي فصل الصيف، وهذا هو الحال في كل مرة. كانت بجواره سيدة تقوم على رعايته، استأجرها مؤخراً. سيدة عادية، امرأة عجوز. لم يحدث أن قام أحدهم باستبدال شابة صغيرة بسيدة تخدم رجلاً في مثل عمره. إنها تناهز الخمسين. ربما أصيب بالجنون، أو أن حالته سيئة، من يدري! شربوا كثيراً، بعدها رافقت هذه السيدة الجديدة "رومان" إلى بيته. راح "يوجو" يجاهد في السير بمفرده. لا يعرف كيف وصل إلى بيته، ومن فتح له الباب، وكيف وصل إلى السرير. لا يعرف كم يوم مر على ما حدث. لكنه يعرف أنهم شربوا بمناسبة عيد ميلاده، عيد ميلاد "يوجو". إن التاريخ واضح. غير أن التاريخ الذي جاء في الجريدة التي وضعها أحدهم على سريره أكبر من سنه ببضعة أيام. يا إلهي! يجب أن يفعل شيئاً، أم لا؟ هل سيعترفون بحقه في الإجازة أم لا؟ كيف له أن يفكر ورأسه تؤلمه؟ ما هذه الحياة؟ الجريدة مفتوحة و...؟ ما هذا؟ صفحة الثقافة؟ لا، يبدوا أنها إعلانات مدفوعة. صورة كبيرة لـ"رومان" ومعها نعي. المخرج الكبير... لن ننساه... علامة لا تنسى في تاريخ الفن...

انقبضت عضلات بطنه استعداداً للتقيؤ. لماذا شرب إلى هذه الدرجة؟ بمن سيتصل الآن؟ أيتصل بزوجته؟ لكن ماذا لو صرخت فيه؟ ماذا لو أنها طلبت منه أن يساعدها في تكاليف الجنازة؟! رأسه تكاد تنفجر. يشعر وكأن في رأسه رأس أخرى أكبر من رأسه. هذه الرأس الكبيرة الموجودة داخل دماغه تضغط على رأسه الخارجية الصغيرة بصورة لا تحتمل. وهنا رن جرس الهاتف. رفع "يوجو" السماعة. فسمع صوته:

– مرحباً "يوجو"! أرأيت هذا؟

كاد قلب "يوجو" ينفجر.

– آلو! أمازلت على الخط؟ أرأيت هذا؟

أراد "يوجو" أن يغيب عن الوعي، لكنه لم يستطيع. كيف كانت النساء تفعل هذا من قبل؟ ربما كان عندهن مشدات للخصر... تلاشت الرؤيا أمام عينيه.

– أمر طيب، أليس كذلك؟ لقد فعلتها بي "ماتيلدا". إنها تحبني. فعلتها لتثبت لي حبها. شعور طيب عندما يقرأ الإنسان عن نفسه كل هذا الثناء. هل قرأت هذا؟ ما رأيك فيه؟

راح "يوجو" يتنفس بصعوبة في الهاتف، وسال العرق من وجهه. رأى أمام عينيه دوائر ضبابية حمراء. لن يشرب الكحول بعد اليوم. على الإطلاق، لن يشرب بعد اليوم. لن يعرض نفسه لهذه الحالة المزرية... الأمر لا يستحق قضاء ليلة كهذه. وأغلق الهاتف.

بالتأكيد سيستيقظ بعد لحظات. فما هو إلا حلم ثقيل. إنه مرهق، وقد بالغ في شرب الخمر. يجب أن يعتني بنفسه. وسيكون بحالة أفضل بعد أن يستيقظ من نومه. غير أنه يجب أن ينهض قريباً. لن تكون هناك أية جرائد على السرير، لن يكون هناك شيء، ستعود الأمور كما كانت من قبل.

****

جلس "يان زوستاتوك" على مقعده اليوم ستدفع له هذه المرأة بقية المبلغ، بعد أن أرسلت له عربوناً بالبريد. إنه حتى لا يعرف اسمها، وذكرت في الأوراق بيانات غريبة. أراد أن ترسل له المبلغ بواسطة فاتورة، لكن بما أنها المرة الأولى فالأفضل أن تعطيه المبلغ نقداً. فإن لم يكن المبلغ كاف لسداد النفقات، فلن يضطر إلى ذكره في الإقرار الضريبي. سيفعل هذا مع أول ثلاثة زبائن، ثم بعد ذلك يلتزم
الطريق الرسمي.

*****

توجهت "ماتيلدا" إلى الشقة التي يقيم فيها رئيسها السابق في العمل. تكاد تجن. هذا الحيوان يتكسب عيشه من كتابة النعي. كادت تسقط مغمى عليها، عندما قدم لها نفسه في الهاتف. الله أعلم إن كان قد عرفها. لقد مرت أعوام، ولن يتذكرها. من غيره يستطيع أن يقوم بهذا العمل؟ ياله من رجل شاذ! وهى الأخرى غبية. تسمع كلامه. بلهاء. لكنها تحب "رومان"، إنه الحب الأول. الحب الذي لا يتكرر، الحب الضائع هكذا ينتهي. هل هى إنسانه طبيعية؟ لا. يجب أن تحفر له قبراً على عمق ثلاثة أمتار في الأرض، وتدفنه فيه حياً. حاجة تقرف! هذا الغبي كان دائماً يفعل مثل هذه الأمور. كان يشعر بالسعادة عندما يموت أحدهم. كان يكتب نصوص النعي مسبقاً. ويحتفظ بالعديد منها لكل من تجاوز سن الخامسة والستين. كان يعدل البيانات، وعندما يموت الشخص المطلوب يخرج النعي جاهزاً. وهى الغبية تسير وراءه الآن. والأدهى أنها مضطرة إلى أن تدفع له. مستحيل أن تلتقي مع "زوستاتك" وجهاً لوجه. ستترك له كل الأوراق في صندوق البريد، ثم تتصل به هاتفياً لتخبره أنها مريضة. لذلك أرسلت الأوراق مع شخص ما. ليراجع الأوراق وينتهي الأمر. ليست في حاجة إلى أن تلتقي معه...

كانت سعيدة عندما طردها من العمل. فلم تتحمل الاستمرار في العمل عنده. لكنه كان عادلاً إلى درجة أنه كتب شهادة طيبة عنها. لكنه اضطر إلى طردها ربما؛ لأنها أضاعت تقارير حول تكريم فنانين كبار. آه، لقد مر على هذا وقت طويل. وقتها كانت متيمة بـ"رومان"؛ المخرج الشاب الواعد. توقع له الجميع مستقبل كبير. أحبته وأحبت العروض التي كان يقدمها. كانت مغرمة بالصورة التي رسمتها له، وبالمستقبل المشترك. حاولت دائماً أن تكون قريبة منه. لكن الأمور لم تستقيم معه. رافق النساء الأكبر منه سناً والأصغر منه، أما هى فكانت في مثل سنه، لذلك لم يكن لها نصيب معه. لكنها في نهاية المطاف تمكنت منه. ذهبا سوياً مع باقي المجموعة إلى المقهى بعد العرض. لكن لم يحدث شيء. فقد تعلق "رومان" بـامرأة تكبره أو تصغره، لا تتذكر. وعادت وحدها إلى البيت، حيث راحت تخطط ليوم آخر حتى تتخلص من إحساسها بالمرارة. وقتها تذكرت أنها كانت تحمل معها في المقهى قائمة بأسماء كبار الكتاب المرشحين للتكريم. كانت هذه القائمة سرية للغاية. كان من المفترض أن تسلمها في الصباح في هيئة عليا بالحزب. كان قائمة المرشحين مختومة بختم الوزارة، وتحمل توقيع "يان زوستاتوك". في الصباح طارت إلى المقهى بلا وعي. طمأنها الساعي وقال لها: " لقد اتصلنا، وجدنا هنا اسماً ورقم هاتف، وجاءوا وأخذوها".

كانت الجو خانق في المكتب. لا أحاديث مع القطط ولا نواء. همست لها صديقتها، وقالت إنهم اتصلوا بالمدير بأنهم عثروا على القائمة. امتقع لونه تماماً. في نفس اليوم تم طردي من العمل.

قال لها بصوت حاد وغاضب، وكأنه يعتذر لها: "ماتيلكا"! لم يكن يجب أن يحدث ما حدث". كانت تكره أن يناديها باسم "ماتيلكا". انصرفت مرفوعة الرأس، وهى تتخيله يحكي للجميع عما حدث. لكن بعد مرور الوقت لم يعد الأمر بنفس الأهمية.

والآن عليها أن تدس في فمه كل هذه الأموال، ومن أجل من؟ من أجل "رومان"، الذي لأجله غادرت المكتب على عجل، والذي من أجله الآن... يالها من لعنة!

******

التقط "يان زوستاتوك" الهاتف المحمول. نعم، سيأخذ كل الأوراق من صندوق البريد، وسيتصل إن كان هناك شيء ناقص. ربما يرغب الناس في مثل هذه الحالات في مزيد من الخصوصية. ربما كان عليه أن يعلق إعلانه هذا في أحد محلات الحانوتي. لكن هؤلاء الناس سيطمعون فيه، وبالتأكيد سيطالبون بنصيبهم.

سيذهب لإلقاء الفضلات. رفع "يان زوستاتوك" غطاء الحاوية، وبينما كان يلقى بكيس القمامة البلاستيكي في الحاوية عثر فيها على غراب ميت. شخص ما ألقاه فيها. شيء يصيب بالقرف. الإنسان لا يمكن أن يذهب حتى لإلقاء القمامة بدون أن تصيبه مصيبة. أخرج وهو عائد من صندوق بريده مظروف به نقود. كل شيء تمام. يجب أن يعيد تفكيره في محلات الحانوتي تلك. الآن سيشرب مع "تسيتسوشكا" القهوة ويتناول الخبز الفرنسي. أشياء كثيرة جديدة حدثت بعد تلك الثورة[1]، وليس كل الناس أشراراً. أصبح عندنا هذا الخبز الفرنسي، وفرصة العمل الخاص... صار مزاج "يان زوستاتوك" مرتفعا. أخذه إلى أفق جديدة. لن يستلقي على الأيكة بعد اليوم. العالم ممتلئ بالبشر، والبشر يموتون. إنهم اليوم لا يريدون فقط أن يموتوا بفخامة، ولكن بطريقة تجلب الشهرة. يان زوستاتوك، صانع مشاهير الأموات. يمكنه أن يكتب هذه العبارة على صندوق البريد. لكن هذا يبدوا خبيثاً للغاية، فهو يريد أن يستدعي المشاعر

---

[1] الثورة المخملية في عام ١٩٨٩ التي أدت إلى إنهاء الشيوعية وبعدها بثلاث أعوام ثم انفصال سلوفاكيا عن جمهورية تشيكوسلوفاكيا. المترجم

الإيجابية. ربما يكتب شيئاً كهذا: "المجد يلازم البشر حتى بعد الموت..." فالمجد بالفعل يرافق الناس بعد الموت. أو ربما لا يحققوه إلا بعد موتهم. و"يان زوستاتوك" سوف يساعدهم على تحقيق ذلك. هل فعل في حياته من قبل شيئاً بمثل هذا النبل؟ إن كان قد فعل، فهو لا يتذكره. ها هو المستقبل يفتح أبوابه أمامه. مستقبل مشاهير الموتى. لا يمكن أن يحلم بشيء أفضل من هذا.

obeikandl.com

يانا بودناروفا

Jana Bodnárová

من مواليد ١٩٥٠. درست الفن التشكيلي في كلية الفلسفة في مدينة براتسلافا. تعمل كأديبة ومحررة خاصة. أصدرت في عام ١٩٩٠ مجموعتها القصصية الأولى بعنوان "فضيحة العقل" والتي حصلت بها على جائزة "كراسكا". أصدرت منذ ذلك الحين ١٨ عملاً نثرياً وشعرياً للكبار والأطفال. ترجمت بعض أعمالها إلى العديد من اللغات الأوروبية واللغة الهندية، وترجمت مختارات من مجموعتها الشعرية "همسات" إلى اللغة العربية. رشحت روايتها "لا يكاد أحد يراني" لجائزة (أنا سوفت) للأدب لعام ٢٠٠٩. أذاعت لها الإذاعة السلوفاكية ١١ مسرحية إذاعية للكبار والشباب والأطفال. كتبت سيناريوهات العديد من الأعمال التلفزيونية منها: "فالس الحزن"، و"بقايا مدينة صغيرة".

تعد واحدة من أبرز أديبات جيل الوسط، وتحتل أعمالها الأدبية مكانة مرموقة على المسرح الأدبي السلوفاكي في فترة ما بعد الحداثة. تتشابك في أعمالها الأجناس الأدبية المختلفة. تتأرجح فيها بين الواقعية، والواقعية السحرية، وتغوص في صوفية الطبيعة، والتجريبية والسريالية، والفن التشكيلي في إطار ما بعد الحداثة. ترسم في قصصها سمات الإنسان المعاصر، تتأرجح فيها بين الواقع والحلم بريشة موضوعية باردة ولغة بسيطة، مختلطة بالدعابة أحياناً والسخرية أحياناً أخرى.

obeikan.com

obeikandl.com

الطفلة المجهولة

بعد أن ارتدى الطفل حذاءه ومعطفه الثقيل رن الهاتف. رفعت أمه سماعة الهاتف، وراحت تتحدث باهتمام. بينما غادر الطفل الحجرة، وهو يتهادى في مشيته المترددة. ثم ذهب إلى الردهة، وجلس على الأرض. راح يراقب نقطة سوداء، تتحرك على سقف الردهة. إنه العنكبوت، سقط مباشرة على الطفل؛ الذي وضع إصبعه في فمه، ثم أرخى جفونه. كاد يغلبه النعاس، لولا أن أمه جاءت، ثم جذبته من يده.

قالت الأم الشابة، وهى تقبل وجنتي الطفل: أيها الغبي الصغير! لا يجدر بك أن تنام على أرض باردة هكذا! ممنوع! لا!لا!لا!"

-إن الثلج يتساقط في الخارج، ولابد أن نذهب في نزهة طويلة وسط الثلوج، فهذا الثلج سيجعلك تنتبه أيها النعسان الصغير.

وهنا سمعت السيدة صوت نبش أظافر على الباب، وصوت أنين مكتوم. رأت وهى تفتح الباب صبية تقف عند عتبة الباب. كانت تأتي أحياناً في الأيام الأخيرة في أوقات مختلفة لتلعب مع صغيرها. كانت طفلة مهملة كثيراً، صامته، وتطلب الطعام على الدوام. لم تكن تريد أن تتحدث عن نفسها، وحتى اسمها تمتمت به بطريقة غير مفهومة. لم تعد السيدة تتذكره. كانت الطفلة تدعى "ميشكا". وجهها نحيف وضيق. ذقنها مدبب، وعيناها صغيرتان غائرتان. كانت السيدة عندما تنتبه إلى ذلك، تمسكها بحنان، وتضع لها قطرة في أطراف عينيها. كانت تعتقد بوجود تقيحات؛ تظهر أحياناً في عيني الطفلة. كانت الطفلة أثناء ذلك تطوق عنق السيدة بأصابعها المنفرجة كمروحة اليد. كانت السيدة تتعجب لهذا. فقد كانت الطفلة تبلغ من العمر خمسة أو ستة أعوام، وكانت المرأة تعتبر مثل هذا التصرف منها مبالغ فيه، كبير على من هم في مثل سنها. وكان شعورها الدافق بالحب موجه فقط لابنها. أما هذه الطفلة الأجنبية الغريبة ربما لم تكن تدرك أن شعور المرأة تجاهها على العكس فاتر.

كان الطفل عندما يرى وجه الصبية التي يعرفها، وهى تتهادي من فوقه، يسرع في الحبو. يدور بحركات عنيفة، ويلتف حول قدميها. ثم حدث أمر تسبب في نوع من الهستيريا. داست الطفلة على يد الطفل بحذاء ذو إبزيم منفك، يعلوه الصدأ. ربما كان ذلك رغما عنها، لكن السيدة لم تكن واثقة من أن الأمر كذلك. قالت لنفسها فيما بعد، ربما أن الطفلة وهى في حالة صدمة، لم تتمكن من رفع قدمها. جحظت عينا الطفل، ثم انخرط في البكاء. هنا رفعت الطفلة قدمها، وظلت واقفة على قدم واحد، وهى تراقب ما يحدث باندهاش، تراقب وجه الطفل الذي علته حمرة، والعرق يتصبب من

جبين الأم، وهى ترتدي معطفها وحذائها الطـويل.لم تكد تلبسه حتى انتفضت وصرخت في الطفلة قائلة:

– ألا يمكنـك أن تنتبهـي لخطـواتك؟ لا، لا؟! اذهبي من فضلك! اذهبي بعيد! نحن على أية حال على وشك الخروج من البيت، وملابسك خفيفة في هذا الجو البارد.

طأطأت الطفلة رأسها بين منكبيها. لم تتأثر المرأة بالتظاهر الغريب الواضح على وجه الطفلة. استدارت الطفلة مستسلمة، وفتحت الباب، وانصرفت إلى الدهليز.

مع انصراف الطفلة علا صراخ الصبي، وراح يخبط بقدميه الصغيرتين على الأرض، وهو يستند بيديه على فخذي أمه، ويعض معصمها. بللت الدموع والمخاط واللعاب وجهه الصغير. ثم سقط على الأرض، وبدأ يتذمر من الغضب. راحت المرأة تجاهد في أن تجعل هذا الجسم الضعيف الذي يتلوى على الأرض يهدأ ويستقر.

– خلاص، خلاص، سنذهب لإحضارها. لكن كف عن البكاء! لا تكن ولد سيئ يزعج أمه! لا تتآمر مع "ميشكا" عليّ!

احتضنت المرأة طفلها، وأخذته إلى الغرفة. خلعت حذاءه ومعطفه، ثم وضعته وسط حظيرة صغيرة بين لعب متناثرة.

– هكذا يا قطتي الصغيرة! سأحضر "ميشكا" حالاً. انتظر، ولا تحدث جلبة! اتفقنا؟

ثم لوحت للطفل الذي يبدو من عند الباب وكأنه لعبة ضخمة.

لم ترى السيدة أحداً عند الدرج المقابل لباب الشقة. ولا حتى عندما كانت تهرول، وهى تنظر خلف سياج الدرج في بئر السلم السحيق. لم تسمع سوى صوتها وهى تنادي:

– أنت أيتها الصغيرة! "ميتشكا"! رُدّي عليّ! لقد غيرت رأيي، وسنبقى في البيت. يمكنك أن تعودي! حسناً؟ أتسمعينني؟ أنا جادة! ردي عليّ!. انبعث ضوء خافت من بين النافذة التي تعلوها قذارة متراكمة ومتجمدة. كانت ترى من خلف طبقات التراب أن هبة الثلج قد هدأت. كان المصعد معطلاً، فنزلت السيدة على درجات السلم. انزلقت قدماها في الطابق الحادي عشر على درجات سلم؛ تجمدت عليها طبقة خفيفة من الثلج. شعرت بوخز في قدميها، لكنها سرعان ما تجاوزت الألم. خطر لها أن الفتاة ربما انزلقت هى الأخرى، وتدحرجت على الدرج، وترقد الآن على منبسط الدرج في هذه العمارة المكونة من إثنى عشر طابقاً، ترقد كالدمية، جريحة وفاقدة الوعي... واصلت السيدة النزول على الدرج. كان الهواء المفعم بالبرودة، يتسلل إلى الداخل في بعض الأدوار من خلال النوافذ شبه

المحطمة. تراكمت رغوة حول فم السيدة وأنفها. وبدت كحيوان مرتبك، سقط في مأزق، أو إنسان أصابه ذعر شديد.

أسرعت وهي تلتقط أنفاسها إلى الباب المؤدي إلى البوابة الرئيسية؛ التي لم تكن مغلقة بإحكام، حيث سرق أحدهم مفتاح الباب، فقام السكان بتعليق الباب بحجر صغير. انزلقت مسرعة إلى الشارع. أول ما استنشقته كانت رائحة الأجراس الكهربائية المحترقة عند مدخل العمارة. ربما قام أحدهم بإشعالها منذ قليل. بالتأكيد كان هذا مصدر الأزيز الكهربائي المتواصل الذي سمعه سكان الشقق في الأدوار السفلى منذ قليل. لم ترى السيدة أحداً في الشارع. لم ترى أثراً لإنسان، حتى في الأرض الفراغ التي يكسوها الثلج، وتقع خلفها مجموعة أخرى من البيوت المتلاصقة. في الماضي كانت الطفلة تشير إلى السيدة التي لم تضغط عليها كثيرا، وبحركة مبهمة من يدها إلى الاتجاه. أما الآن فراحت السيدة تبحث خلف حاويات القمامة، وبين السيارات التي فرقت العاصفة الثلوج التي تراكمت عليها. كانت مضطرة إلى أن تتنفس من فمها، حيث جعلتها الرياح تشعر بالاختناق. استعملت كفيها كغطاء يحمي وجهها من غبار الثلج.

عادت بعد ذلك إلى مدخل البيت. ترددت قليلاً، لكنها لم تصعد درجات السلم. شعرت فجأة بشخص يقف في الظلام قرب حجرات المخزن، ويراقبها. ضغطت على زر الكهرباء، ثم واصلت النزول على الدرج.

صاحت بصوت مكتوم:

– "ميشكا"! هل أنت هنا؟ لماذا تختبئين مني بهذه الطريقة السيئة؟

ظل الصمت هو سيد الموقف. كان ضوء المصباح الخافت يضئ بعض أجزاء الدهاليز، وممراتها المؤدية إلى المخازن. وهنا سمعت السيدة صوت طنين. في حالة ذهول غريب راحت تتابع مجموعة من الأطفال يخرجون من الدهاليز الدائرية، ويتجهون صوب الدهليز الرئيسي؛ الذي يعد شريان منطقة المخازن. بصعوبة تعرفت السيدة على وجوههم. لكن تخيلت أنهم أطفال. أطفال في أعمار مختلفة يرتدون ملابس، وكأنهم كومة ملابس بالية ملقاة ومبعثرة. كانت رؤوسهم صلعاء. شعرت المرأة بنوع من التعاطف معهم. غير أن أحد الأولاد - ربما يكون قائد هذه الزمرة من الأطفال - أشار إلى جسمها الذي يقف بلا حراك. تسارعت خطوات الأطفال، واختفت في الدهليز وسط الظلام. فلم يكن يمكنها أن ترى ما يحدث هناك. راحت تقول لنفسها: "لقد اختاروا مكاناً غريباً ليلعبوا فيه". أمعنت التفكير، حتى تتخلص من التفسير العبثي لما ترى. وفجأة عنّ لها أن

"ميشكا" هى من نفس نوع هذه الأطفال المهملة، وحيدة لا يرعاها أحد.

سمعت حفيفاً يصدر من دهليز آخر ناحية اليسار. رأت في العتمة رجلاً، يحمل حقيبة ظهر على كتفه. كان يتوجه ناحيتها، ورأسه تهتز بصعوبة وكأنه إنسان مريض. أصدرت صرخة، وهى تقف بلا حراك. اندفع الرجل مفزوعاً، وشرع على الفور في الهروب من الجهة المقابلة. واختفى في متاهة الممرات في منطقة المخازن. أحدقت المرأة نظرها، ووضعت قبضتها على صدرها. وقريباً منها ومن وراء أحد الحوائط تدلت رأسان لطفلتان من أطفال الشوارع. بدتا وكأنهما رأسي سحليتين. قامت إحداهما ببسط شفتيها على شكل ابتسامة.

صاحت المرأة: ابتعدا عني! تخيلت أن هاتان الطفلتان تريدان أن تلمسانها. استدارت، ثم انصرفت سريعاً، وصعدت درجات السلم. كانت تلقي بيدها في الهواء، وكأنها تلقي عن نفسها شبكة خفية كانت قد وقعت فيها.

تخيلت بعد أن وصلت الطابق الثالث أن المناطق الغير مأهولة أسفل البيت تعج بالمتشردين. وهنا انتابت السيدة على الفور حالة من الهدوء. وعند أول عطفة توقفت، ثم صاحت بشدة: "ياإلهي! يا لهم من ضعفاء، مساكين!". شعرت من جديد بشفقة عابرة على هؤلاء الأطفال. على هؤلاء المشردين الذين يشاركونهم البيت سراً. يعيشون في أماكن لا يصلها ضوء النهار، تتصاعد منها رائحة عفنة كريهة. "ربما تكون "ميشكا" واحدة منهم. هى الأولى التي تجرأت منهم على أن تصعد الدرج، وجاءت إلينا... لكن أمثالها قد ينقلون الأمراض!". بدت هذه الفكرة وكأن شخص خفياً بدأ يلعب معها لعبة سخيفة. فقامت على الفور بطرد شعور التعاطف الذي كانت تشعر به تجاههم منذ قليل، ويسعى بكل قواه أن يبث مكانه شعوراً آخر بالخوف الاشمئزاز منهم: "هذه الطفلة كانت الأولى، وسيتبعها الآخرون. لن يظلوا هكذا بؤساء! ربما هم ليسوا كذلك أصلاً! سيظهرون العدوانية والحقد، وسينتشرون في شققنا مثل الجراد. هذه الحشرة اللعينة. ستزعجنا وتصعب الحياة علينا... يمكنهم أن يحصلوا على السلاح، ويهددوا حياتنا. يمكن أن يتسببوا في حريق، أو يضعوا متفجرات...!" راحت السيدة التي أصيبت بحالة تشبه الجنون تضغط على جرس أول شقة قابلتها. وعندما تأكدت أن الجرس لا يعمل راحت، تطرق الباب بيدها، وتدق على أبواب شقق لا تعرف أصحابها. لكن أحد لم يفتح لها الباب. لا شيء يتحرك في الممرات. طرقت المرأة على الأبواب، اضطرب سلوكها وراحت تلعن شخصاً وهمياً، وهى تجفف العرق من على جبينها: "هل رحل الجميع؟ إن

كانوا مازالوا هنا، فيجب أن يعلموا أن تحتهم أقدامهم مكان يعج بجيش من المشردين. ينتظر اللحظة الحاسمة... يا إلهي، أكاد أجن! لماذا رأيت أنا بالذات ما رأيته!؟ أنا لا ذنب لي في الأمر. لا ذنب لي! كل ما أفعله هو أنني أرعى طفلي! طفلي! اهتزت جسم السيدة، وعلت دقات قلبها وكأنه سيقفز من صدرها.

توقفت عن طرق الأبواب. ثم أسرعت إلى أعلى وهى تمسك بدرابزين السلم الخشبي البارد. ومرة أخرى صارت لعبة في يد باردة – بالتأكيد أن مكروها حدث في الشقة. ربما ما حدث حتى الآن لم يكن سوى فخ. لم تكن المرأة قادرة على أن تتذكر إن كانت قد أغلقت باب الشقة من خلفها أم لا. ربما استطاع الطفل أن يتخطى السياج ويخرج إلى الدهليز. أم أن أحد من هؤلاء الأشخاص الغريبة كان يختبأ خلف المصعد، ثم دخل إلى الشقة عند انصراف الطفلة، ثم سرق الشقة وحمل حقيبة الظهر وانصرف...

وما أن وصلت السيدة الطابق العاشر حتى ضاعت منها أنفاسها. ربما خطفوا ابنها، وسوف يبتزونها به... "يجب أن أواصل الصعود، يجب أن أواصل". كانت هذه آخر كلمات تتذكرها السيدة.

كان باب الشقة مواربا قليلاً. اندفعت الأم وهى تبتئس، وتجر جسمها بكل قوتها.

كان الطفل ممداً في نفس مكانه. يتنفس بصوت مختلج وهو يبتسم، رفعته أمه ليقف على قدميه. أصابتها الدهشة. وكأنها تراه لأول مرة، وقد صار كبيراً، صار له جسم مثل أجسام الصبية. كيف أن قسمات وجهه هادئة أثناء نومه. تفوح منه رائحة ذكية، رائحة تنم عن نظافة، وهو يرقد سليماً معافى، وجنته غارقة في وسادة مخملية كبيرة. عندها انتاب السيدة شعور مزعج وكريه بالخجل.

obeikandl.com

النائمة

نامت المرأة تحت الشجرة، وتوسدت ذراعها العاري. شعرها مسدل على الحشائش، وعلى جذور الكستناء النامية. امرأة حالمة، لا تشعر بنفسها. تبدو كالزهور والأشجار، وحتى النمل والطقس من حولها. تقوم فتاة صغيرة بجذب تنورة فستانها ذو الألوان الصيفية من حول جسم أمها النائمة. ثم تضع الأحجار الصغيرة والزهور عليها. كانت الطفلة قد جلبت الأحجار من على شاطئ نهر يجري بالقرب منهما، أما الزهور فقد قطفها شقيقها الصغير من بين الحشائش. ثم ألقاها عليها وهو يتهدج في مشيه ويتمايل. زهور وأوراق مازلت تلتصق بها أغصان صغيرة.

همهمت الطفلة قائلة:

– أمي تبدو مثل الساحرة!

ابتسمت الأم النائمة ابتسامة خفيفة. إنها تحلم بطفل ارتسمت ملامحه وهو مازال صغيراً. طفل يرقص فوق طاولة قديمة بالية في وسط طريق خال. ألوان الحلم واضحة، تشرق فيه الشمس، وتتعالى أصوات الطيور. قطبت المرأة جبينها قليلاً. فقد تحرك الجنين في أحشاءها حركة عنيفة. وبعد لحظة من الانتباه وضعت يدها على بطنها المنتفخة، وواصلت النوم. وقف رجل يراقب الأطفال وأمهم وهم تحت الشجرة. كان يجلس وسط الحشائش ويدخن، ثم يضيق حدقة عينيه وهو ينظر إلى الشمس الساطعة وقت ظهيرة يوم من أيام شهر أغسطس. وما أن ابتعد الأطفال عن أمهم النائمة حتى اقترب منها. وضع إصبعيه على وريد رقبتها. همهمت المرأة. كانت تحلم وكأن قطعة قماش التفت حول رقبتها فجأة بفعل الرياح، وكادت تخنقها.

قال الرجل للمرأة النائمة:

– سيدتي المجهولة الجميلة، ها أنا قد عثرت عليك. لقد بحثت عنك في كل المدن. بحثت عن ضوءك في وجوه كل النساء. أيتها النجمة! يقولون إن من يخلو وجهه من الضياء، لا يمكن أن يكون نجماً لأحد. أنت لي. وستظلين لي على الدوام. أطفالك سيتركونك وزوجك سيهجرك. وستظلين لي وحدي. أنت أيتها المرأة الجميلة. لم تلاحظي وجودي، وأنا أسير وراءك في الشوارع. لكنني سأتمكن منك! سأجعلك تثملين بحبي. إن اللعب مع المرأة شأنه شأن اللعب بالدمية، الدمية التي نحملها بين أيدينا قبل النوم.

راحت كلمات الرجل تنسل إلى عقل المرأة. أرادت أن تقول لهذا الرجل المجهول أنها ليست جميلة، وأن أطفالها سيظلون من حولها،

وأن زوجها لن يهجرها على الإطلاق. لكن لسانها عجز عن النطق ولو بكلمة واحدة. لم يصدر منها غير صوت همهمة قلقة.

ذهب أولادها صوب النهر. تأبطت ابنتها ذراع أخيها، وهى تعده بأنها سوف تعثر له عن الأحجار ليلقيها وسط الأمواج العالية. ربما سترى السمكة الذهبية أو تشاهد الملك.

ضغط الرجل بشدة بأصابعه على رقبتها، في المكان الذي تتردد فيه دقات قلبها. في هذه اللحظة اتخذ حلمها مساراً جديداً. ترى نفسها وهى تدخل إلى حجرة مكسوة بالسيراميك. وترى امرأة أخرى ترقد في أحد أسرة المستشفى في حجرة الولادة وقدماها منفرجتان، ومثنيتان عند الركبة. وترى فتحة في بطنها، والممرضة تقول وهى مبتسمة:

– أترون؟ لقد تجاوزت الأزمة، ولم يبقى سوى خياطة الفتحة.

ثم تطلب منها أن تجلس بجوارها على السرير، وتضيف: "لقد تناولت الحبوب لمدة طويلة، وأخذت أيضاً حقناً. وستكون الولادة جيدة. كل شيء سيمر بهدوء. سيساعدك الطبيب بالتأكيد".

كانت المرأة ترقد على ظهرها، ويداها على بطنها الكبيرة الساكنة. السيراميك الأبيض يمتد حتى سقف الحجرة، حيث توجد مصابيح قوية. جاء رجل يرتدي معطف أبيض، انحنى على المرأة، وقال: "ضمي قدميك، وافرديهما. مديهما أكثر، وابعدي ركبتيك عن بعضهما. حاولي أن تدفعي، ليس بعد. لا تفعلي قبل أن أقول لك!" راح الرجل يتحسس بطن المرأة، ومن حوله تقف ممرضتان، وشيء ما يخرج من بطنها.

صاح الطبيب:"الآن ادفعي! ادفعي!"

ظلال البشر تحوم مسرعة من حولها. غرقت المرأة في عرقها وهى ترتجف من الخوف. لا تشعر إلا بنقطة تسقط في أعماقها، نقطة تعلقت بها من قبل سعادتها وخوفها، هذه النقطة تسقط وتختفي. وهنا بدأت تسمع صوت الطبيب، وكأنه قادماً من مكان سحيق وهو يقول منفعلاً:

– إنها في صدمة! استدعوا الإسعافات! أنا غير قادر على أن أبقي ركبتيها منفرجتين. إنها تضم قدميها بقوة هائلة. والطفل هكذا لن يخرج"

ثم تسمع الطبيب يقول بارتياح:

– " لقد خرج الطفل! هاهو في يدي!"

سمعت المرأة همس إثارة غير مفهومة، تبعه صمت مطبق. ومن جديد تسمع صوت الطبيب يسألها، وهو يربت على ساعد المرأة:

– "ماذا عندك في البيت؟ بنت أم ولد؟.

أجابته المرأة بسان ثقيل قائلة: "بنت".
وقبل أن تتذكر المرأة ابنها الموجود بالبيت قال لها الطبيب: "والآن أنت ولدت طفلة، لكنها ميتة" ثم أضاف "ومازلنا ننتظر خروج الغشاء".
تهيأت المرأة للتقيأ، فشعرت في بطنها بحركة خفيفة، وكأنه ثعبان يتلوى في أحشائها، وضغط من جديد.
قال الطبيب وكأنه يخفي سعادته: "لقد انتهي الأمر"
استحثت الممرضة العجوز المرأة قائلة: "بهدوء يا سيدتي!". وبعد أن ابتعد الطبيب والآخرون، مالت الممرضة عليها، وقالت لها بصوت حاد:- "أنا راهبة في الدير، ولدي الحق في التعميد. غير أن ابنتك ميتة. أترغبين في دفنها؟ أم أنهم سوف...". وأومأت بطريقة غريبة. أما المرأة فقد بهت وجهها، وراحت تهز رأسها بالنفي.
قالت الممرضة:
– إذن دعي زوجك يحضر لوازم الدفن، وسوف أوصي بأن يحتفظوا بالطفل، وألا يضعوك في غرفة الأمهات اللاتي وَضَعْن. إنهم هنا لا يهتمون بمثل هذه الأمور ، أما أنا فأهتم. أشعر بأن وجودك بينهم قد يؤذيك. إنك..."
قالت المرأة:
– أرني إياه! أرني الطفل!"
– هذا غير ممكن، هذا ممنوع، هذا..."
قاطعتها المرأة:- هل ولدت مسخاً؟ قولي لي! أريد ، بل لابد أن أرى طفلي!"، ثم أضافت بصوت منهك وهي تبكي: "كيف هي بشرتها؟ عيناها؟ هل لها عينان؟ ويداها؟ ارني طفلتي!".
راحت المرأة تتشبث بأصابعها في معطف الممرضة، وتحاول أن تجلس. ثم قالت وهي تقوم من على السرير الضيق: "أنت! أنت وهذا الطبيب المسخ تريدونني أن أصاب بالجنون؟ أريد، بل لابد أن أرى طفلتي. ربما أنها لم تمت على الإطلاق! إنها صغيرة! ولا يمكن أن ...". أما المرأة الأخرى التي فتحوا بطنها فمازالت ترقد بجوارها بلا حراك، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة متحجرة.
همست الممرضة وهي تجفف وجه المرأة الذي بللته الدموع والعرق، وقالت: "اهدأي! سنضعك في غرفة مع السيدات اللواتي لم تلدن بعد. ولن ترين هناك أطفالاً حتى لا تأسفي على ما حدث. حسناً يا عزيزتي، حسناً؟.
قال الرجل للمرأة النائمة عندما استفاقت من الحلم: "الهدوء يا عزيزتي!". صرخت المرأة وهي تجلس على الحشائش تحت الشجرة: "من أنت؟". تناثرت الأحجار والزهور من على تنورتها: "يا إلهي! من

أنت؟" ثم احتضنت السيدة بطنها المنتفخ واتخذت وضع المدافع عن نفسه.

– ألا تعرفيني؟ أحقاً لم تشعري بوجودي من قبل؟ أنا معجب بك من زمان... هناك قدر خفي يجمعنا. أم أنه حلم ثقيل؟

ثم ابتسم الرجل ببرود، وأضاف. "لو بقيت هناك فترة أطول لانتشلتك مما هو آت".

ردت المرأة ومازال قلبها منقبضاً من مشهد الحلم الأخير، وقالت: "لكنني لا أعرفك على الإطلاق! لا أتذكر أنني رأيتك من قبل! ما هذا الهراء الذي تقوله؟

– سوف تعتادين عليّ.

صاحت السيدة:

– ما هذا الذي سوف أعتاد عليه؟ أين أولادي؟

همهم الرجل وقال:

– ذهبا بعيداً. عند النهر. لقد قلت لك أنهما سيتركانك".

نادت المـرأة بصـوت هزيل ويائس على أولادها. لكنهما لا يردان. مرت لحظة صمت، بعدها نهض الرجل، ثم أشعل سيجارة. داس بمقدمة حذاءه على طرف تنورتها، وكأنه يحتجزها. بعدها ظهر جسمان صغيران يتهادان من بعيد في مشيتهما، ثم صاحت الابنة:

– أمي! أمي! لقد رأينا الملك الثعبان. جسمه مكسو بالقشور. هل هو الرجل التمساح، الذي يأكل الأحياء؟ أم هو مسخ ما؟ أخبريني أنت؟".

أضاف ابنها قائلاً: "كان فظيعاً. فظيع جدا!". ضحكت الأم ثم مالت لتزيل من على شعرها الأوراق الأغصان الذي وضعها ابنها عليها، وتساقطت على بطنها الكبيرة المنتفخة. وما أن اقترب الطفلان جذبتهما نحوها، وابتعدا عن الرجل الغريب، تراجعوا من أمامه قليلاً.

obeikandl.com

وزن الفراشة

كانت الفتاة تؤجل الموعد الذي ستضطر فيه إلى تقبيد أمها من يدها. إن الأشخاص الذين يلبسون المعاطف البيضاء يأخذونها إلى عالم ذو إيقاع مختلف، ملامحه غريبة. كانت تعرف جيداً أنها ستتوقف يوماً ما عن الحرب من أجل أمها الشاحبة؛ التي فقدت قوامها وصار صوتها أجشاً وغريباً. وصارت عينيها لامعتين زائغتين. بدأت الأمور تسوء عندما صرخت فيها ذات يوم وبدون أية مقدمات قائلة:

– "أنت تلعبين بينما أمك تشرف على الموت؟!"

ثم راحت بنفس الأسلوب المتشنج الذي لم تعتاده تتحدث، وتصف كيف أنها رأت صورة "مريم العذراء" على شاشة التلفزيون المغلق. كان طولها حوالي ثلاثون سنتيمتر. أثار معطف العذراء حماسها، وتحدثت بانفعال، كيف كانت الدموع تنسال من "مريم العذراء"، وتسقط على ذراعيها المعقودتين. ثم قالت لابنتها تعليقاً على مشهد العذراء الصغيرة: "لقد صار العالم سيئاً".

ذات مرة قرأت الأم عن أرملة كانت تناجي زوجها المتوفي عن طريق طقم أسنانه. وعلى الفور أحضرت كأساً بُنيّا من الزجاج، كان زوجها يضع فيه يوم ما طقم أسنانه قبل النوم. ثم تضع الكأس عند أذنها، وكأنه قوقعة بحرية، وتدعي أن أخبار سرية تأتيها. كانت الفتاة تعلم جيداً أن الأم تتظاهر بمثل هذه الأمور. اعتبرت الفتاة أن هذه الخدع ما هي إلا محض هراء ، أرادت بها أمها إرهابها، وحبسها معها في الشقة. كانت الأم تحوب الحجرة ذهاباً وإياباً، وهي تضع الكأس عند أذنها، وتدعي بأن عليها أن تستعد للرحيل. فزوجها يناديها. ينادي زوجته الشابة الجميلة، حتى تسكن روحه في قبرها...

عندما عادت الفتاة من المتجر حيث ابتاعت خبزاً طازجاً، وذبداً، وعسلاً، وحليباً، وجدت أمها ملقاة على السجادة الثمينة، قطعة الفرش الوحيدة الثمينة في الشقة، ولم يصبها الدور بعد حتى يأخذها تاجر الأنتيكات.

قالت الأم بصوت أجش منخفض:

– "بهدوء! حتى لا تزعجينهم".

سألتها الفتاة بلا مبالاة وهى تمر بها:

– من تقصدين؟

– لقد كنت دائماً غبية، لذلك لا ترينهم!"

لم تشعر الفتاة بالإهانة. فقد صار حديث الأم في الآونة الأخيرة يتسم بالخشونة. وغالباً ما كانت تتجرد من ملابسها، ثم تلف جسمها بستارة النافذة. لم تكن تريد أن تلقي بنفسها من النافذة، بل

تطل من خلف الستارة وكأنها عروس، ثم تصيح في أرجاء الغرفة مرددة أفظع الشتائم.

وضعت الفتاة المشتريات على الطاولة. لكنها بسرعة أيقنت أن الجو صار بارداً، وسوف يؤثر سلباً على ظهر أمها. فتوجت نحوها حيث ترقد مغمضة عينيها، وقد ارتسمت على وجهها علامات الرضا. بصعوبة رفعتها من كتفها. فصاحت فيها، وكأنها طفل باكي يتململ بدلال:

- حيوانه! لقد أفزعت الفراشات، لذلك لم أعد أراها . هل علىّ الآن أن أجري على العشب كالحصان الهائج، ولا أستطيع حتى أن أضفر طوق لأحمله في أعياد الربيع".

كانت الفتاة ترى أن أمها تعود بذاكرتها إلى عهد الطفولة، اعتقدت أن النهاية قد اقتربت. ربما بعد بضعة أيام ستطلب منها أن تنظفها وأن تضع لها المساحيق، وتلف لها الحفاضات بين فخديها، تماماً كالطفل الصغير. قد تتمادي، وتطلب من ابنتها أن تحتضنها تهدئ من روعها. إن الأم تتغير في داخلها، وتتحول إلى طفل، وتتبدل أدوارهما. أم أن الأمر لم يعدو أن تكون تصورات الفتاة الخاصة عن التحولات التي تمر بها أمها، وانتقالها إلى عالم الخيال هى بسبب الحالة المرضية التي تمر بها ؟

استلقت بجوار أمها على السجادة المزركشة. لأول مرة يمتلكها شعور بأنها تريد أن تتخطى شيئا كالحاجز. فأفضل شيء هو أن تقترب من أمها. فأرخت جفونها وراحت تنتظر قدوم الفراشات الخفيفة.

obeikandl.com

لا يكاد يراها أحد

إنه يوم شديد الحرارة. شعيرات السكر اللزجة تلتصق بجسمي، والهواء يتبعثر. ثم يسقط البرق ويتبعه صوت الرعد وتنفس حُرٌّ. الموسيقى تنتشر في كل مكان. ورزاز المطر يتساقط على الستائر وعلى قميصي وأعصابي وعلى زجاجات الكوكاكولا، التي تطايرت في الهواء بجوار حاويات القمامة، وعلى الزهور المبللة والأحجار والعظام والرمل...

كل ما هو سري يريد أن يظل مخفياً عن الأنظار. ذات مرة عندما ذهبت وأنا في الجامعة في رحلة إلى شاطئ البحر في بلغاريا (ساعدني أحد طلبة قسم علم النفس بحماس في بناء خيمتي وفي شواء بلح البحر على الشواية التي أعارنا إياها أخصائي علم الآثار الألماني)، عثرت بعد إحدى حالات المد في الصباح الباكر على رمال الشاطئ على مخلوقات غريبة. خرجت عنوة من مياه البحر الآمنة. كانت القواقع مواربة، مبتلة وشيء ما يتحرك بداخلها. وعندما عدت بعد ذلك إلى الشاطئ كان ضوء الشمس قد اشتد، وصارت القواقع مغلقة بإحكام حتى تتمكن الكائنات بداخلها من الحياة، ولا تجف في حرارة الشمس. دفنت نفسها وسط الرمال لتسمع إلى طقطقتها، وتنتظر جولة أخرى من المد تنقذها من العالم المميت، وتعيدها إلى أحضان البحر الآمن.

ربما ماتت جدتي في اللحظة التي أغرقتني فيها موجة البحر على حين غرة. أصبْت بالاختناق وتدافعتني المياه المالحة. كان هذا كالسقوط المفاجئ من أحضان رحبة. لم أعرف بموت جدتي إلا بعد أن تناولنا بلح البحر المشوي مع خبير الآثار الألماني؛ الذي كان يدرس ارتفاع كنيسة من العصر البيزنطي فوق تل "ريلا" مع طالب علم النفس. اقتضب وجه صديقتي البلغارية. لم تكن تثق في الناس الذين يقيمون صداقات سريعة. جلَسَت وسط الرمال وقد ثنت ركبتيها، وسندت ذقنها عليهما، وراحت تراقب البحر في هدوء وتمعن. شربنا الكحول الصافي الذي جعلني أشعر بأنني لست على ما يرام. لم أعلم شيء عن موت جدتي حتى المساء. وضعت قدمي في الرمل البارد. راح طالب علم النفس يعرض على أن يبيت في خيمتي. تحدث بصوت رقيق، وبطريقة بارعة. ألم يكن خبيراً في علم النفس؟! تقدم مني والرمل يلتصق بجسمه. كانت القمر يضئ. شعرت وقتها أن بضعة نجوم قد تساقطت على الأرض. كانت جدتي التي ماتت منذ بضعة ساعات تقول لي: "عندما تمطر السماء بلا توقف، فإن شخصاً ما سيموت"، ثم تضيف بسعادة: "نور صغير يترك هذا العالم، ويدخل عالماً آخر".

تنساب الذكريات على لسان طليق دافق. تصل القريب بالبعيد، الحقيقي بالخيالي. وبدون الذكريات نصبح أناس خاوون وكأننا فقدنا ذاكرتنا، وصرنا مشوشون، لا قرار لنا. تصير أحاسيسنا في مهب الريح.

يـقـول الصـوت الصـادر من الاسطـوانـة: " اعثـر في ذكرياتك على مكان تحب أن تعود إليه".

عمري ستة عشر عاماً. أجلس تحت شجرة زيزفون عمرها مئة عام. أضع على ركبتي كتاباً مدرسياً عن اللغة اللاتينية. أتعلم منه أول تصريفات الأفعال.

Laudo, laudas, laudat, laudamus, laudatis, laudant .

إنه وقت الخريف. تجلس جدتي الكبرى بجواري مع جدتي وأمي وجدتي لأمي التي اصطحبتني معها مؤخراً إلى الكنيسة. إن عمر جدتي الكبيرة يقل قليلاً عن عمر شجرة الزيزفون التي تجلس تحتها. تتحول جدتي الكبرى في كل دقيقة إلى فصيلة هشة من كائنات عاشت قبل بدء الخليقة. وسرعان ما تقبع في بيضة هشة الغطاء. كنت أعتقد أنها في هذه البيضة السماوية قد نامت إلى الأبد. تشبه في جلستها هذه السحلية، لكنها ما أن اقترب منها أحدهم، ألقت عليه التحية قائلة: "طاب يومك". أجاب كلاهما في صوت واحد مرتبك: "طاب يومك". ابتسم الرجل وهو يشير إلى كاميرا يحملها في يده، ويسأل عن شيء ما. كنت أهز رأسي بخجل، وكأنني أفهم الأمر. قام بتصوير الكنيسة القديمة التي تقف منذ مئة عام، وتحيطها حدائق الفاكهة. التقط صورة أيضاً لجدتي الكبرى، وصورني تحت شجرة الزيزفون القديمة. ربما هذه الصورة التي تحمل ذكرى أحد أيام الخريف مازالت موجودة اليوم في مكان ما بألمانيا. كان مستقبلي بعيداً تماماً مثل ماضي جدتي الكبرى السحيق. كانت تقول إن روحاً ما تحلق كثيراً بالقرب منا، وتدعوها إليها على حد قولها. إنها روح زوجها الذي قتل في أحد المصانع في بلاد الغربة. عندما رحل كل منهما، سمعت صوت دقات من برج حجري، يعود إلى العصر القوطي. دقات غطت على حفيف الماء في نهر "فاهو". وضعت الكتاب على الطاولة الخشبية، ثم خلعت الخف من قدمي. وشرعت في الرقص في الطريق الترابي على أنغام موسيقى آلات كهربائية صاخبة. لثمت أرواح الهواء وجنتي، وسكنت على كتفي زهرات قادمة من على رؤوس الزهور. داعبت سدي أغصان شجرة الزيزفون، التي تصدر رائحة كالمسك يفوح من العاشقين. ابتسمت السيدة التي ناهزت المئة عام، رائدة وتابعة لجميع السيدات اللواتي يكتسين باللون الأسود، ابتسمت ابتسامة خفيفة من فمها الخالي من الأسنان، ثم خبطت كفيها اللذان صارا عظام بلا لحم. ها هو الموت يعود من جديد إلى الحياة.

أحياناً كنت أختبر ما تبقى لأمي من ذاكرة. أعرض عليها صوراً من ألبوم لأبويها وأخواتها، وصورة لأختها الكبيرة الغير شقيقة، والتي ماتت في حي "رادولفين" بسرطان في الثدي. أريها أيضاً صورة أختها الصغرى التي تعيش بالقرب منها. يضم الألبوم أيضاً صوراً لشقيقي أمي؛ أحدهما مازال صغيراً وهو الآخر غير شقيق. يعيش في مدينة "بيتسبورج". يظهر شقيقها الثاني في الصورة قبل عام من وفاته في مستشفى "ميكولاش". تعرفت على أختها الصغرى، وتحدثت ببراءة شديدة قائلة أن أختها ترتدي شعراً مستعاراً بعد إصابتها بسرطان في الثدي. على الأقل لن تشعر في رأسها بالبرد في وقت الشتاء. كانت خالتي -أخت أمي- لاعبة في رمي القرص. اشترت أولى أقراصها مقابل تبرعها بالدم في إحدى المحطات المتنقلة. أشارت إلى رأسها الأصلع بعد العلاج الكيميائي. قالت بابتسامة حزينة أنها تود أن تعرف ماذا سيكون رأي الناس في طب اليوم بعد مائة عام. إن كانوا سيظلوا يستأصلون الرحم والثدي بالكامل أم لا. قالت كيف أنها دائماً تبكي عندما تقف أمام المرآة عارية. يزعجها دائماً عندما تفكر في مصير تلك الأجزاء من جسمها، والتي كانت على مدى ما يقرب من ثمانين عاماً جزءاً لا يتجزأ منها.

ذات مرة، وأنا مازلت طفلة رأيت أحد العجائز الذي فقد إحدى قدميه، فسألته أين فقدها. قال هذا الرجل الأمريكي (كما كان أهل القرية يطلقون عليه عندما كان يعود إلى القرية من أمريكا) بعد أن اتكأ على عكازه: "لقد حرقوها أيتها الفتاة في الفرن، في إحدى المستشفيات الأمريكية. لقد كان جدك أكثر حظا. فقد قتلوه في المصنع مباشرة. كان على أية حال كان رجلاً ضعيفا. كان أثناء الاستراحة يستلقي على الطاولة الخشبية، بينما نحن نجلس ونأكل".

أكتب عن الجدات وعن آثارهم، حيث لم أتعرف على أجدادي بشكل كاف. كانوا يقبعون في عزلة، محاطين بذكرياتهم مع زوجاتهم. كانت جدتي تقول: "كان جدك رجلاً صارماً، لكن كان عادلاً... كان لا يعرف سوى العمل... هذه الحقيبة الخشبية أحضرها معه عندما عاد من أمريكا ... هذه هي صورة زوجته الأولى المدفونة في أمريكا... وهنا هو مع طفليه اللذين جاءا معه من أمريكا".

كانت جدتي تحاول أن تقنعني قائلة: "لقد قتلوا جدك في أحد مصانع الحديد الأمريكية عندما كان عمري ثلاثة وعشرون عاماً، وكانت ابنتي ـ أمّك ـ في الثالثة من عمرها. ومن وقتها وأنا أعيش وحدي. أعيش وحدي مع الذكريات".

إن العقل مثل الغرفة المغلقة. تتأرجح فيه الأفكار والهواجس. تراوده الإيحاءات الخفيفة من حين إلى آخر. أحياناً نختار من الأمور

العادية إيحاءات معينة. فالإيحاءات والهواجس ما هي إلا إشارات تخرج من أعماقنا. ونحن نحولها إلى أمور مجازية خاصة بنا.

كانت فتاة شابه من المشردين ترقد على الأرض شبه عارية، في صالة المحطة عند كشك لبيع الـ"هوت دوج"، يبدو عليها أنها لم تغتسل منذ زمن. كان الكشك مازال مغلقاً. بينما الفتاة تغط في النوم، وتضحك بصوت مسموع أثناء نومها. بدت وكأنها ولا تحلم، بل واقعة تحت تأثير المخدرات. قامت الشرطة بإيقاظ الفتاة بعد أن علت الشمس، وراح البشر يموجون كالنمل في الصالة الهائلة. أجبرتها على أن تخرج إلى شوارع المدينة الحارقة. تخرج هائمة على وجهها، رثة الثياب، لا يهتم لها أحد، ولا تشعر حتى بنفسها. لقد تأثرت كثيراً بهذه الفتاة رغم أنني لم أرى وجهها، حيث أنسدل شعرها المبعثر على وجنتيها. فالبشر الفاقدون لهويتهم يتركون فينا تأثيراً كبيراً.

ظلام غطى المكان. سيطر على شقتي هدوء مزعج وكأن طابور خفي من البشر نائمين متراصين، ولا يستيقظون أبداً. لكن هذه ليست سوى ذكرياتي. كتبت "لويس بورجيوس": "إن ذكرياتي هامة بالنسبة لي. إنها مستنداتي".

استيقظت في الليل على أحد الأصوات. كان شيء يشبه صوت أغنية، كتلك التي ينام عليها الأطفال. نهضت من السرير، ثم ذهبت إلى المطبخ لتناول كأس من الماء. وجدت أمي تسير في الشقة وهي ترتدي قميص نوم يطول كاحلها، شعرها منكوش حول رأسها، وتشبه قنديل البحر. تخطو كمن يمشي أثناء نومه، بهدوء وإيقاع لا يتغير. يخترق قميصها الشفاف ضوء القمر القادم عبر النافذة المكشوفة، في ليلة باردة عشية عيد الميلاد. كنت أرى ملامح جسمها الجاف. انتابتني رغبة في حمل الكاميرا، وتصوير هذا الكائن العجوز. بدت شخص غريب، لا يمكن مقارنته بأمي التي عرفتها في طفولتي. أردت أن أسجلها كمستند، كامرأة تتحول إلى حالة اكتئاب، وفكر مشوش ثم إلى وحدة. "أمي! هل أنت بخير؟". لم ترد. حتى لم تغير من إيقاع خطواتها. فقط نظرت إلى نظرة عتاب، ثم دخلت إلى الغرفة التي ينام فيها ابني. هناك ينام منذ فترة، أسفل طائرات بلاستيكية معلقة على الحائط. أحياناً يستيقظ من نومه هلعاً من أن تسقط عليه العناكب من على الحائط. أحياناً عندما أقترب من سريرها تنظر إلى بعتاب، وكأنها ترغب في إعادة الزمن إلى الوراء، فتمد يدها، وكأنها تريد أن تلمسني، وتحسس على شعري ووجهي. الأمر الذي لم تفعله يوماً ما في طفولتي، وقد فات الأوان على هذا الآن. تدب في جسدي قشعريرة بمجرد أن أتصور مثل هذه اللمسات. إنه دوري الآن. فأنا من يلمس جسدها. أقص لها أظافرها وشعرها المجعد الذي أصابه بعض الشيب. هل أنا الآن بمثابة أمها الصارمة؟

شاهت اليوم في التلفزيون امرأة كورية، تحكي ذكرياتها عن الحرب. كانت المرأة ترى بعين واحدة. وجهها مستدير يشبه المنجل، ويتشنج باستمرار. تحدثت عن القذائف والنيران المفاجئة التي ارتطمت بوجهها. تحدثت أيضاً عن الصدمة الكبرى، عندما نظرت إلى الأرض، فرأت مقلة عينها عالقة أمامها. فصرخت في أمها الجريحة حتى تنزع هذه المقلة، كي لا تختفي تحت جسمها. غير أن أمها لم تتمكن من مساعدتها؛ كانت عاجزة هي الأخرى عن الحركة. فصرخت في ابنتها كي تنتزعها بنفسها. المرأة في نفس عمري تقريباً أو أكبر بقليل. أصابني حديثها بتشنج في بطني، وكأن حبل سري يصلنا معاً، وربما الأمر كذلك بالفعل. عندما كنت طفلة قامت أمي بجمع فساتيني وستراتي وأحذيتي في صناديق وقالت: "سنرسل هذه الأشياء إلى صندوق دعم أطفال كوريا. فهم يعيشون الآن تحت وطأة الحرب". ربما أن هذه المرأة العوراء أخذت سترتي المفضلة المصنوعة من وبر الأرانب، والتي التقطتها من الصندوق وأنا أبكي. لكن أمي نزعتها مني بشدة، وأعادتها إلى الصندوق مرة أخرى. ربما أن تلك الفتاة الكورية أسندت هي الأخرى خدها على السترة، وكأنها تلمس أرنباً حياً.

عندما أسأل أمي عن أحلامها، تقول إنها لا تحلم، لأنها لا تنام أصلاً. رغم أنها تنام طوال الليل، وأحياناً كثيرة تنام أثناء اليوم أيضاً، أو تجلس صامتة في مكان ما في الظل. تماماً كما كان أبي يفعل قبل أن يفتك السرطان بأحشائه. أحياناً عندما تتحدث، تتوقف فجأة أثناء الحديث، وتعجز عن المواصلة، وتتحول الكلمات في رأسها إلى تراب.

أهو عصيان اللغة.. أم هو عصيان الأفكار؟ تتهم عقلها، وكأنه ليس جزءاً من كيانها، بل مجرد آلة معطوبة تجعل آليات أفكارها تتعطل عن العمل، وتحولها إلى أشلاء. ويبدو وكأنه طائرة تحطمت، أحياناً تبقى منها أشياء كاملة، وربما هشة لا يمكن لمسها. أما الشكل الكبير الصلب فقد اختفى تماماً، وتحول إلى رماد أو هيكل محترق.

أحياناً تحمل أمي في يدها دمية قديمة كانت تخص ابنتي في صغرها. تقلبها بين راحتيها الكبيرتين بدهشة. يذكرني هذا المشهد بلوحة "ألفريد ياينك". سيدة تجلس على المقعد، جميلة وأنيقة، شفتاها مطليتان بلون حاد ومموجتان لترسما ابتسامة مريرة ساخرة. تضع على ركبتيها فتاة ترتدي فستان "كاروهات". إن هذه الصورة تمثل لـ"ياينك" رمزاً للطفولة، أو ربما البراءة؟ يجب أن يكون المشهد التالي هو هذا الرمز: عندما أقوم بحرق الدمية المطاطية التي أحتفظ بها منذ الطفولة، حتى تتشقق وتصير كالأرض المحترقة. ثم أقص أظافري وشعري. بعد أنشر هذه الأجزاء الميتة من الجسم على الدمية.

يعجبني التواء بقايا الحكايات وتكراراها، وتغير الأحداث المتراكمة في الزمن.

كان عمري ثلاثة أو أربعة أعوام عندما اشتروا لي أول كتاب. كان كتاب "رحلات جاليفر". أعتقد أن حمى أصابتني عندما رأيت أثناء تصفحي الكتاب صور نصفية لعملاق، ومخلوقات بشرية صغيرة، وسفن، وبيوت. رأيتها تتحرك وكأنها تنبض بالحياة. هكذا صار الكتاب بمثابة أول مسرح صنعته بنفسي. هذا المسرح الورقي الصغير سبب لي سعادة تتصف بالأنانية. فلم يكن مسموح لأحد بأن يلمس هذا الكتاب، كنت أخبط بقدمي وأبثق على الجميع، باستثناء الرجل العجوز الذي كان يقرأ لي منه. كان والد حما أبي، عجوز آخر في بيت العجائز الذي كانت أمي تقوم على رعايته. مات حما أبي بالسل قبل أن أدركه، ومن بعده توفيت زوجته بسرطان في المعدة. هذه بالكاد أتذكرها. وأتذكر الأريكة التي كانت تنام عليها على الدوام، وتتأوه. كما أتذكر الدم الأسود الذي كانت تتقيأه في الآنية التي كانت أمي تحملها لها. إلى أن حملوا أم زوجة أبي الأولى وهي على فراش الموت إلى المستشفى لآخر مرة. خبأت كنزي الذي عثرت عليه؛ الكتاب العملاق في خزانة أمي، التي كانت ممتلئة بالملابس، ورائحة عطر "جوارلين"، والبودرة، والعرق، ورائحة أخرى غريبة، لم أتمكن من تحديدها. أحياناً بينما كانت المرأة المريضة تتململ على الأريكة كنت أدخل إلى هذه الخزانة. وقتها كانت تغمرني سعادة من نوع خاص لعزلتي على باقي العالم، رغم الخوف الجميل الذي كنت أبكي بسببه. كنت أجفف دموعي المختلطة بالمخاط في أطراف ملابس أمي.

فضلاً عن الكتب كان اكتشاف عالم الأفلام والسينما بصفة عامة له تأثير البرق في نفسي. إنها غرفة كبيرة في مدينة "تشرني أول" بمنطقة "ميكولاش"، حيث رائحة التراب والروائح الرخيصة وعرق الناس. أزيز المقاعد التي تطوى. كان الغجر يجلسون في المقاعد الأمامية، فهم لا يخجلون من التعبير عن رغبتهم في أن تكون المعجزة في متناول أيديهم. تصنع طاقة النور الفضية وما بها من عشرات الآلاف من حبات التراب أحداث رائعة. أحياناً يطل علينا الأبطال بوجوههم، وينظرون إلينا. وفجأة يتوقف كل شيء نتيجة انقطاع الشريط. نجلس صامتين في انتظار استكمال هذا المزيج من السعادة المزيفة، أو الحقيقية، الهدوء أو الدراما بين الرجال والنساء، الحرب والسلام، الريف والحضر، الفقر والغنى، الحزن والقهقهة المدوية. أشتري بعد الفيلم آيس كريم، ثم أعبر الشارع والحارة الضيقة إلى أن أصل إلى الكنيسة الإنجيلية. أجدها خالية. حتى المعرض الموجود في الميدان الصغير خالي من الزائرين هو الآخر، وكذلك مبنى الكنيسة

الإداري. أجلس على الأريكة، وأسترجع كل أحداث الفيلم من جديد، بينما عيناى جاحظتان.

اشتدت برودة الجو. ذهبت مع أمي في أعياد الميلاد إلى الكنيسة، بينما أبي يلاحقنا بكلماته قائلاً: "أين هو الله؟، هل كان موجوداً يوماً ما؟" لقد نسي هذا العالم. كيف يمكن أن نبرر تلك الحروب؟ إن ما رأيته في "مينسك" لا يمكن فهمه!" إن أبي مثل جدي، تدمع عيناه أحياناً وهو يتذكر الحرب.

توجد في الكنيسة على الحائط لوحة إعلانات، مثل تلك الموجودة في مدرستنا. غير أن هذه اللوحة تعلوها جملة تقول "الله في كل مكان ومُطّلع عليك". أسفل هذه الجملة لوحة بها عين ملونة بلون السماء، وخالية من الرموش. إنه هذه العين بالفعل تراقبني. أشعر بوخزها في ظهري كالسكين. لا أعرف ماذا تريد مني. وكلما يضعف الجسد، تظهر العين أكثر إيلاماً من فوقي. لم أعد قادرة على التحمل. فقدت وعي لعدة ثوان، ثم سقطت على كتف أمي. استرددت وعي بعد لحظات. لم يلاحظ أحد هذا الإغماء السريع باستثناء أمي. حتى في البيت لا أتعرض للإغماء مطلقاً. بمجرد أن أسمع صوت الصفارة أغلق عيني على الفور. ثم أستيقظ على أمي وهى تدهن أذني وكفي بالليمون.

اشترت لي أمي بعد خروجنا من الكنيسة حلوي، مكافأة لي على مشاركتي في هذه الطقوس القديمة. تناولت المكسرات من عليها، ونسيت تماماً العين المستلة في ظهري. إن أمي تعرف بائعة الحلوى السمينة. راحت تحكي لها كيف أنني أصاب بالإغماء بلا سبب. ردت عليها المرأة السمينة لتطمئنها، وقالت: "يجب أن تعرفي بأنها تدخل في مرحلة المراهقة. ولن تصاب بالإغماء عندما تنتظم عندها العادة الشهرية". ثم أشارت بإصبعها إلى سيدة شابة صبغت شعرها المبعثر باللون الأصفر. وقفت تنظر إلى قطع الحلوى في واجهة العرض. ثم قالت بائعة الحلوى لأمي: "أترين هذه العاهرة؟ إنها ترافق أحد خبراء الترميم الذي يكبرها بعشرين عاماً على الأقل. تشتري من عندنا لهذا الغبي حلوى بجوز الهند. إنها تختار منها الآن. كان حري بها أن تصنعها له بنفسها، كأي امرأة عادية! أما هذه؟ تفضل رحلات التزلج، ولا تكفيها جبال "التاترا". تحتاج إلى الذهاب إلى بولندا أيضاً، مومس لعينة!" ثم لقفت البائعة قطع الحلوى الهشة واحدة تلو الأخرى.

بدأت أتعرف على اللغة، وإيحاءاتها الجنسية الشديدة. إن الكلمة التي نطقتها بائعة الحلوى ليست بالجديدة. أبتلعتها في جوفي عند سماعها بنوع من خجل الأطفال. إن خبير الترميم هذا يأتي عندنا أيضاً. إنه بالأحرى تاجر لوحات، وعملات ذهبية. قال لي بوقاحة وهو

يقبل يدي: "لقد صرت آنسة وشابة جميلة. مازالت في الثانوية العامة، أليس كذلك؟ بعدها سوف تلتحقين بالجامعة طبعاً؟". قال هذا وأنا أقف متخشبة، ومرتبكة. فأنا مازلت في الصف السابع. أضم كتفي عندما يبدأ الرجل في تسليط ناظريه على صدري؟ أحياناً يقرص خدي، ويقول بطريقته المتبجحة، وهو يرشقني بسهام عينيه الحادة: "ألم تعثري بعد على حبك الأول الكبير؟".

لم يكن أحد على وجه الأرض، ولا حتى صديقتاي "ألينا" و "ماريكا" يعلم أن حبي الأول الكبير كان لشاب يعمل في المساحة، ويبلغ من العمر ثلاثين عاماً. وقعت في غرامه منذ أن كنت في الخامسة من عمري، عندما كان يقيس حدود أرضنا من أجل الجمعية الجديدة. كان أحياناً يأتي عندنا لتناول الغذاء، أو يذهب إلى الحانة ليتصل هاتفياً بأحدهم من هاتف قديم – الوحيد الموجود في القرية. كنت أضع له خلسة في جيب معطفه أزهار الأعشاب، وفي الربيع أحجار من النهر. كان قلبي يخفق من الإثارة، ومن الحب أيضاً عند تقديم الهدية. لكن هذا الرجل لم يشعر بي مطلقاً. لم يعيرني أدنى اهتمام. كان عندما ينصرف وأنا نائمة، أضع راحتي بين فخذي. ثم أشعر داخل معدتي بشعور جميل وعذب. تماماً كما كنت أشعر بعد تناول قطعة الآيس كريم. لم يكن يعنيني أن أفكاري ربما تكون سيئة. وأن أمي لو رأتني سوف تطلب من أبي أن يحضر من المطبخ عصا، وتوسعني بها ضرباً. فأبي لم تكن لديه الجرأة على فعل ذلك. فاختصت أمي بمسألة العقاب هذه. أحياناً كانت تضربني حتى أنزف دماً من أنفي. لكنني غير قادرة على تحديد شعورها، وهي تفعل ذلك. فهي اليوم لا تتذكر حالات العقاب هذه.

ذات مرة، كانت معي ابنتي البالغة عامين، التقيت برجل المساحة في الحافلة. كان قد تجاوز الخمسين من عمره بالتأكيد. غير أن علامات القوة مازالت ظاهرة على وجهه. وكان يدفع بها من بين قسماته النحيلة. بدا واجماً. لقد تغير كثيراً، بالفعل، لكن بدرجة معقولة. صار شعره خفيفاً، واختفت عضلاته بشكل ملحوظ. كان هذا يبدوا واضحاً من خلف قميصه الصيفي الخفيف. وظهر حبي له على السطح من جديد. جلست على المقعد المقابل له، ثم وضعت ابنتي في حجري. رحت أنظر إلى رجل واسع العينين مع ابتسامة خفيفة على وجهه. لقد لاحظت هذا، فقد كان الأمر واضحاً. ظهرت على وجهه علامات استفهام. ابتسم، وارتبك قليلاً، ثم استسلم لحالة الإغراء. التقت عيني بعينه مباشرة في نظرة عميقة. تلاشى الزمن، لم يغادر الحافلة في المحطة التي يقصدها. بل واصل الرحلة معي. دعاني بجرأة على فنجان قهوة في محطة القطارات؛ وهي المحطة الأخيرة للحافلة. كانت الدعوة هي أولى الكلمات التي نطق بها. قلت

له: "كان من الممكن... أن أذهب معك حيثما تريد، لولا أن ابنتي معي. لكن الوقت قد تأخر". تململ، وظل واقفاً في حالة تأهب، على وجهه علامات الاستنكار والحب المفاجئ – نعم، لقد شعرت بذلك تماماً. احتضنتني ابنتي بشدة، وكأنها تريد أن تخنقني على رغبتي في الذهاب مع رجل غريب.

يوماً ما كانت أمي تتأهب للذهاب إلى مكتب البلدية في المدينة وهي ترتدي ملابس أنيقة؛ حيث تشارك في تعميد طفل وليد. قالت لي وهي تنصرف، وتطرق بكعبي حذائها الجديد على أرضية الرصيف: "لا يمكنك أن تلعبي معه الآن، فمازال صغيراً، وقد تؤذينه". فجلست أمام بوابة بيتنا أتخيل نفسي امرأة طويلة، أرتدي زياً أنيقاً من الصوف، وقفازات وقبعة. وأتخيل عشيقي، وزوجي، ورجل المساحة، يقوم بتجريدي من كل هذا. ثم يمرر يده على جسمي برقة متناهية، كما أفعل ذلك بنفسي سراً، حيث سيشهد العالم بهذا الأسلوب الغريب ميلاد طفل. أحياناً أخرى كنت أتخيل نفسي أنا أرتدي فستاناً بفتحة صدر واسعة، يبرز منها ثدي الأبيض المستدير عارياً. كنت أرى هذا المشهد بصورة جلية حتى صارت حلمات صدري الطفولية الصغيرة تؤلمني. وفوراً انتابني خوف الفتاة النهمة. كنت أعتقد أن الأفكار التي تدور برأسي أفكار محرمة وسيئة، وبالتالي أنا فتاة سيئة للغاية. لكن عندما كنت أشعر بالسعادة والخفة وكأنني أطير كالبالون، كانوا يربتون على شعري، ويثنون على بأنني لا أبكي بدون سبب، وأنني أبتسم حتى تظهر ثنايا على وجنتي، تجعل مني فتاة محببة. كانوا يعطوني الحلوى التي كنت أحبها تماماً مثل عشاقي المحبين.

كان أبي يصورنا كثيراً ونحن أطفال بالكاميرا الفوتوغرافية. الآن وبعد مرور السنوات جلست مع أمي عند الطاولة، وقد فرشنا أمامنا صور أبي. سمعت صوت موسيقى قادمة من مذياع جيران أمي في الطابق العلوي، أو السفلي عبر باب الشرفة المفتوح. أشعلت أمي المصباح عندما شعرت بالعتمة. رأيتها مرهقة من هذا العرض للوجوه والأجساد، الابتسامات، والإشارات، والأوضاع المصطنعة، والملابس، والشعر المصفف بعناية. يبدو أن ما يجعلها متعبة هو توتر ذاكرتها، وليس إحباط من شيء غير موجود بالتأكيد.

تقف في إحدى الصور التي التقطها أبي بالكاميرا، شابة مبتسمة بدهشة. تمسك بأصابعها ساق إحدى النباتات المورقة، والهواء يداعب تنورتها الوردية المصنوعة من الحرير الصيني. مازلت أتذكر ذلك الفستان ذو الأكمام القصيرة الواسعة، وكذلك حذاءها وكعبه المصنوع من الفلين. كنت وأنا طفلة أخرج هذا الفستان من خزانتها، ثم أرتديه، وأنا أجر التنورة من خلفي.

سمعت صوت فرقعة قصيرة وجافة في الخارج. شيء ما ينفجر. خرجت إلى الشرفة، فوجدت هناك طائر الخطاف، وقد أطلق أحدهم عليه النار. نظرت من خلف سياج الشرفة، فرأت أطفالاً يهرولون، ويختبئون خلف حاويات القمامة. قامت بلف الطائر بقطعة من القماش، ثم وضعته تحت شجيرة الفاوانيا المزدهرة، التي تنمو عند مدخل البيت التي تقيم أمي فيه. كانت أمي قد زرعتها هنا يوماً ما.

مازال الصيف بعيداً. لم أعد أتمتع بحضن الأسرة التي كانت موجودة يوماً ما. لقد اختفت روائح الحديقة التي تنبعث منها في فصل الصيف. اختفت أيضاً روائح اللفائف التي كانت جدتي تصنعها في الشتاء. كانت أمي تعد لنا مع هذه اللفائف شراب "الشودو" المصنوع من النبيذ المخلوط بصفار البيض والسكر. كانت تقول لنا متفاخرة، وهي تصب لنا الشودو الساخن في الفناجين الخزفية: "إن هذا الطقم الياباني أحضره جدك من أمريكا، وحتى اليوم لم ينكسر منه أية شيء. ولولا أن نظام "جوتوالد" لم يقضي عليه. لو أنه كان يمتلك أراض، وغابات، وخيول وأبقار، لكنتم رأيتموه جالساً هنا بينكم، يلعب معكم الورق مقابل الفول السوداني". ثم فردت بعناية الأوراق القديمة على لوح الطاولة السوداء المستطيلة. وضعتها على شكل دائرة. ورحنا نلعب مرة تلو الأخرى لعبة "الوعاء الأخضر". كانت حرارة شديدة تتصاعد من الفرن الحجري، لكن يكفي الذهاب إلى أحد أركان الحجرة الكبيرة، أو عند النافذة أو بجوار الحائط، حتى تشعر بالتجمد من البرد. صرخت في جدتي الكبيرة من على الأريكة الطويلة قائلة: "لا تلمسي هذا! إنها أرواح الموتى! وقد تصابين بالسل إن لمستيها!" كان ذراع الأريكة على شكل حية سوداء، مصنوعة بالكامل من خشب الأبنوس، ومكسوة بقماش وبري أخضر. كانوا يضعون عليها جدتي الكبرى بجسمها النحيف ورداؤها الأسود. كما كانوا يشربون الـ"شودو" عليها أيضاً. كانوا يصبون لها الشراب في سلطانية عادية؛ لأن أصابعها كانت تهتز، ومثنية بتأثير الروماتيزم. كانت عندما ألمس الأكياس الدهنية على جسمها بدافع من الفضول تقول لي: "إنها من الغسيل في الماء المثلج والحفر في الثلج". كانت تضحك ضحكة خافتة، وتحمر وجنتيها البيضاوتان المتجعدتان بعد تناول مشروب النبيذ. أحياناً كنت أميل عليها فوق الأريكة لأقرأ لها من كتاب (براسك) "القصص الشعبية التشيكية القديمة" بينما تقول: "اقرأي لي، سوف أضمك إليّ حتى يسعنا المكان".

أتذكر بعض المجانين من أيام الطفولة. يوجد في كل قرية "مجنون صامت"؛ إنسان من عالم آخر مثل عالمنا، لا مكان له. يجوب في عالمنا القاسي المغلق. في قريتنا كان هذا المجنون اسمه "يوشكو". ابتسامة

دائمة مرسومة على وجهه، ويسير بخطاً قلقة. المجنون الصامت الآخر الذي لا أتذكر اسمه، كان نادراً ما يغادر منزله، وكان هذا غالباً يحدث في الصيف. يخرج فقط للذهاب إلى نهر "سمرتشيانسكي". يبلل جسمه الأبيض الطويل في ماء النهر. يقال إن أبوه وضع رأسه وهو صغير على جزع شجرة في مخزن البيت، وراح يهدد أمه؛ التي هي زوجته، بأنه سوف يقطع رأس هذا الطفل الذي كان يصرخ بشدة. في قرية أخرى كانت هناك امرأة عجوز. كان أهل القرية يعدونها في زمرة (المجانين الشرسين). كانت تعيش في أطراف القرية حيث المقابر. تقيم بأحد البيوت الخشبية التي تمر من أمامها كل جنازة. كانت عندما تأتيها نوبة الجنون، ترمي البيت الأكواب والأواني من نافذة مغلقة في واجهة البيت، فيتناثر الزجاج على الحشائش الضعيفة الموجودة بالحديقة. كنت أخاف أن أمر من أمام ذلك البيت. لكن ذات مرة عندما خرجت لأجمع زهور الربيع في عيد الفصح من على الجبل، لمحت وجه المرأة المجنونة خلف النافذة الزجاجية. كانت تحدث تعبيرات غريبة على وجهها، وتصرخ في. كنت أرى في وجهها، - كان عمري أربعة أعوام - صورة سحلية تغطيها القشور. شيء ما يثير الرعب، يتطاير من عينيها. كنت أراه مثل الضوء الأخضر الذي يصدر من بعض الحشرات في ليالي الصيف. هربت على الفور في هلع. يقال عن موتها أنها جرت في المطبخ، ثم عبرت المخزن الذي يعج برائحة القنب المتحلل كما هو الحال في كل مخزن، ثم دخلت الحجرة الأمامية، وقفزت في مرآة ضخمة، تعتبر الجزء الجميل الوحيد في البيت. لم يعرف أحد من أين جاءت بهذه المرآة. أتخيل هذه المرأة، والزجاج يخترق وجهها، وزراعيها، وبطنها، وفخدها. أتخيلها وهي ترقد عارية وسط كسرات الزجاج. وكيف أنها تجرح نفسها بنفسها. عثروا عليها بعد عدة أيام غارقة في دمائها اللزجة. دارت في القرية شائعة تقول بأنها فقدت عقلها، عندما ولدت طفلاً. "ولدته سراً لأنها لم تكن متزوجة ومثل هذه الأطفال ملعونة على مر الزمان". هكذا كان الناس في القرية يهجونها بلا رحمة. لفّت جثة طفلها الوليد بقميصها الأبيض، واحتفظت لسنوات طويلة تحت سقف بيتها في نعش خشبي، كانوا يحفظون فيه مهر العروس.

شيء ما يدفعني باستمرار إلى الذهاب إلى الخلف والتراجع لأراقب ما يخطر لي. ربما هذا هو مبدأ التفكير في حد ذاته. ربما هو إيثار موضوع الطفولة، أو التحول في مسألة الهوية. فهو تارة مثبتة، وتارة أخرى مجرد خيال.

لم يظهر في حياتي رجل يضارع فتاي، رجل المساحة. رحت أفكر فيه من جديد خلال ليالي الصيف الحارة، عندما انتشرت عبر النافذة

روائح الحديقة، والظلام الفاتر، ونباح الكلاب. فضلاً عن القمر المكتمل. رحت أفكر في هذا الحبيب الغاضب، العاجز جنسياً. استلقيت عارية على مفرش مصنوع من الكتان، واحد من الأشياء العديد التي حاكتها جداتي. بدأ جسدي يتحرك على إيقاع التصورات الجنسية.

الحديث عن مثل هذه الأمور الخاصة بالجسد لم يكن معتاداً في أسرتنا. فقد كانت الرغبات الجنسية من الأمور الخاصة التي يجب أن تعالجها كل فتاة بنفسها. كانت السيدات اللواتي أعرفهن يتحدثن أحياناً عن الحب. لكن ليس عن ذلك الحب الذي تعرفه أجسادهن. فمثل هذا الحديث يصيبهن بالخجل. ربما تنامت في نفسي مشاعر موروثة عندما راحت إحدى السيدات المتقدمات في السن في وقت لاحق، تصف لي كيف ضاجع زوجها فتاة أجنبية. وصفت لي المشهد، كما وصفه هو لها من قبل بلا رحمة. كيف أنه راح يتشمم جسد عشيقته، دون أن يلمسها، بدأ من فخديها وما علاهما، وكيف أنه رائحتها أثارت غرائزه الجامحة. واصلت السيدة وصف مضاجعة زوجها للفتاة الأجنبية بصورة ماسوشية، وهي تعبث بغضب في إبرة تحملها في يدها.

خطر لي أنني لم أتلتقي منذ أعوام بالسيدة (ب). دعتني ذات مرة إلى التمشية في الغابة، التي كانت تبيت فيها أحياناً، وهي تفترش العراء. أحضرت معها حقيبتين من البلاستيك، ثم طلبت مني، وقد رسمت ابتسامة ثابتة على وجهها، أن أجمع معها المخلفات التي تركها الأغراب ورائهم. ثم أخرجت من علبة كبريت مغلفة بالقطن شيئا يشبه البرقة. كان هذا جرذ صغير غير مكتمل النمو، أمسكت فمه بأصابعها، وراحت السيدة (ب) تضع في فم الحيوان الصغير نوعاً خاصاً من اللبن مستخدمة قطارة للعين. استقبل الجرذ القطرات، وهو يرخي أقدامه بسعادة. وبعد أن روته، واصلت جمع القمامة والحديث عن أتباع المذهب الهندوسي الذي يأتون إليها أحياناً لإقامة صلواتهم. لم تكن تعمل. كانت تحيك يوماً ما من القماش دمي على شكل عرافات. كانت تصنع لهم ملابس وجوارب مقلمة. أعطتني ذات مرة واحدة منهم، مازلت أحتفظ بها حتى اليوم في أحد أركان خزانة الملابس. تضع هذه الدمية على رقبتها منديل صغير عليه طلسمان، صنعته السيدة (ب) خصيصاً من أجلي. لم أدخل شقتها سوى مرة واحدة. رأيت عندها أرنب، يجري بين الدراجات الموجودة في صالة الشقة. كان يرافقها هذا الأرنب في كل مكان تذهب إليه، تماماً كالقطة التي عثرت عليها أمام أحد البارات، الذي كانت السيدة (ب) تتردد عليه لتشرب مع رجال غرباء. كان عندها فأر صغير في قفص صغير، يصدر أنينا. ربما كانت أنثاه تلد أطفالاً غير مكتملي

النمو. كانت الشقة معتمة، تنتشر فيها رائحة الطحالب، ونشارة الخشب، والحشائش، والحيوانات. انتشرت دمى العرافات في كل أرجاء الشقة. اتصل بي هاتفياً ذات مرة في الساعة الثالثة والنصف صباحاً زوج السيدة (ب)، وقال إن زوجته لم تعد حتى الآن من دورة في "التاي تشي". كان هذا قبل ولادة طفلهم الثاني. في هذا الوقت المبكر تخيلت على الفور أن سيارة دهستها في جنح الظلام، وترقد الآن قتيلة في إحدى الحفر. ولكنها أثناء الحصة التالية من "التاي تشي" قالت لي بابتسامة غامضة أنها قضت تلك الليلة اللعينة مع المدرس، يشربون البيرة في صمت... إلى آخره. أحياناً كانت تجلس فوق إحدى المرتفعات الخضراء أمام مدرسة؛ كان يذهب إليها أولادها. بدت نحيفة وهي ترتدي بنطلون جينز، وفانلة ملطخة ببعض الألوان. تتدلى من على رأسها خصلة نحيفة من الشعر، تبدو وكأنها طالبة في هذه المدرسة. تدخن بصورة شرسة، وتنظر وراءها بعينيها اللامعتين. ذكرتني بالماء المتدفق في الغابة. أخذ زوجها بعد طلاقهما الأولاد معه ليقيموا مع زوجته الأخرى في مدينة أخرى. كانت غالباً ما تجالس رجال غرباء في الحانات الموجودة بالمنطقة. اتصلت بي ذات مرة، وتحدثت معي بصوتها المعروف، وبدون أية علامة للحزن. قالت إنها فقدت كل شيء: "اللعنة! حتى الببغاء طار وتركني. الأمر الذي أحزنني كثيراً. لهذا لجأت إلى الإسراف في الشراب حتى أثمل تماماً". لا أعرف كيف صار حال السيدة (ب) الآن. إنها تعد من الناس شديدي الحساسية. تعيش في غربة نفسية عمن حولها. مثل هؤلاء الناس يولدون على سبيل الخطأ في عالمنا هذا، ويبحثون عن سبيل للهروب منه.

أحياناً تراودنا الذكريات ببطء شديد. وأؤكد أنه في البطء يكمن جمال أكبر. فالسرعة يمكن أن تصيبنا بتشنج في المعلومات وبالبلادة. إن البطء يساعد على الاسترخاء. ففيه يخطر على العقل اكتشاف ما، أو مفاجأة ما.

ظهر هذا الصيف العديد من السائحين اليابانيين في ميدان مدينة "بريشوف". سألتني إحدى السيدات اليابانيات التي كانت تحمل في يدها حقيبة صغيرة، سألتني عن متحف الملح، فشرحت لها الطريق إلى مدينة "سوليفار"، ويراودني شعور قوي بأنني رأيت هذه السيدة من قبل. عندها تذكرت السيدة "ساتوسكو"، التي رسمها الرسام "بالسوس" في لوحة "فيلا ماديتسا". تعّرف "بالسوس" على المترجمة الشابة "ساتوسكو" في مدينة طوكيو أثناء معرض للفن الفرنسي. بعدها صارت "ساتوسكو" موديله المفضل. كانت تقف أمامه عند طاولة حمراء كامرأة يابانية في غرفة شبه فارغة. تماماً كما هي العادة في البيوت اليابانية الراقية.

توجد على الأرضية الخضراء سجادة لونها أصفر خالية من أية نقوش، على خلفية حائط خال من أية زينة. في جهة اليمين توجد طاولة حمراء لونها فاقع، عليها زهور لا لون لها، في مزهرية تقف وسط صينية. كل الأشياء لونها باهت. توجد جهة اليسار فوق إحدى اللوحات بقايا مرآة معلقة على أرجل في المكان. فيما تفكر تلك المرأة اليابانية التي تظهر كنصف امرأة ونصف رجل؟ يكاد نصف جسمها يلامس أرضية الغرفة. ترفع ذراعها الأيمن قليلاً أمام المرآة تماماً. تلامس بأصابع يدها اليسرى فخدها. امرأة شبه عارية. فثوب الحمام الفضي قد انزلق من على جسدها. إنه ثوب حيك حول أطرافه شريط له لون الطاولة، الجزء الوحيد في الغرفة الملون بلون بارز وحاد. جسدها نحيف يشير إلى نوع خاص من البشر، تبدو كثعبان يزحف وسط الأفق الممتد. راحت تنظر من قريب إلى وجهها في المرآة. لكننا لا نرى صورتها على سطح المرآة. يبدو لنا وجه المرأة وكأنه قناع. امرأة جميلة وغامضة. كان "بالسوس" يؤكد أنه يريد من خلال لوحاته أن يتحرر من الوجود. ربما تكبت المرأة رغباتها هي الأخرى. فكل ما بدا منها يسعى أن يكون فقط إبحار للروح، تماماً كما يريد الفنان. إن المرأة العاجية المنعزلة لا تفهم المرآة كما نفهمها نحن في الغرب. إنها بالنسبة لنا رمزاً للنرجسية. لكنها بالنسبة للطاويين مجرد شكل فارغ، غير قادر على التقاط أي شيء أو إعادته. إن دورها بالنسبة لليابانيين قاصر على التطهير. إن النظر إلى المرآة بالنسبة للمرأة الموجودة في اللوحة عبارة عن حمام الصباح. تغوص فيه بوجهها، غير سعيدة أو حزينة، ثم تدلي فيه باقي جسدها.

"أنا لست إلا ثياب!" هل تميمة المصمم الشهير مازالت موجودة؟ قالت لي ابنتي: "شعرت فجأة أنني امرأة أخرى"، وذلك عندما كانت تجرب ثياب الكَيْمُون الحريري في أحد محلات بيع الملابس المستعملة في مدينة طوكيو وأضافت: "شعرت بتوتر في خصري. كانت ثياب غريبة. وكأنها عبء أنوء به، وشعور بالحرية في نفس الوقت. أضف إلى أحذيتهم التقليدية! لم أستطيع السير إلا بخطي متقاربة. وفجأة انتابني ذلك الشعور بالهشاشة والرقة الذي يبدو على السيدات اليابانيات. "يالك من رائعة!" هكذا أطرت عليّ البائعة بلغة انجليزية متشابكة، ثم ابتسمت وهي تضع وجهها خلف مروحة اليد. وعلى الفور بدأت أتقمص دور السيدة اليابانية. ببساطة انتابني شعور بهذا الاختلاف. إن ما فعل هذا هو الثياب! هل هذا معقول؟!"

أفتش في ذاكرتي إن كنت قد شعرت بنفس الشيء عندما رأيت سيدة عربية غريبة، وأنا أقف أمام الكاميرا، وأرتدي ثوباً طويلاً مسدل لسيدة سودانية. أكمامه مدلاة حتى قدمي، حتى لا يري أحد

أطراف أصابعي. وضعت خلف رأسي قناعاً أبيضاً للوجه، وعلى ظهري ومن خلفي أقنعة أخرى مثبتة بالثياب. خطوت إلى الأمام والكاميرا تراقبني فقط من الخلف باستمرار. كل هذا وأنا أقف في طقس بارد فوق تل ليس منحدراً، بل منبسطاً، تعوق المشاة خطوط الأرض المغطاة بطبقة من الثلج. والطين يعلق بالحذاء. تتساقط الأقنعة واحد تلو الآخر وأنا أسير والقفاز يتدلى من يدي ويتراقص في الريح. وبعد أن مرت نصف الساعة وأنا أسير على الطريق بعيداً عن الكاميرا الثابتة، تخيلت طائراً أسود يحوم فوق التل. فراحت الألوان الباهتة، والضوء الخالي من أشعة الشمس يضلل الكاميرا، ويجعل جهاز ضبط الصورة يتأرجح بعصبية. بعد الإرهاق من السير نحو القمة شعرت بقليل من الاسترخاء في الهواء، بعد هروبي من العالم الهائج، وليس من هذه المرأة العربية.

فتاة تبدو لي في الحادية عشر من عمرها كانت تعانق فتي في مترو باريس. ثم أخرجت من حقيبتها مسحوق للوجه وفرشاة. راحت تبيض وجهها بعناية. ثم مررت أصبع التلوين على شفتيها. كانت تحمل بعض صفات المرأة اليابانية التي أحبها "بالسوس" وشيئاً من المرأة العربية والأوروبية أيضاً، وشيئاً من سمات الطفولة المعهودة، وسمات المرأة المتعارف عليها، التي تظل طوال حياتها تدور في فلك أفكارها وجسدها بطريقة متأرجحة كالذباب الطائر. لكن سوف يتقدم بها العمر يوماً ما. وسوف تقاوم نفسها كثيراً حتى تقبل المبيت في أحد بيوت باريس البالية، التي علق الفطر على جدرانها، ثم يغلبها النعاس وهي تمسك بالسيجارة في يدها. في البداية ستشتعل النار في شعرها الأشيب النامي على بشرتها وشعر رأسها، الذي صبغته بآخر صيحات صبغة الشعر. ثم يمتد اللهب إلى قميص نومها، ويحرق بالتدريج بشرة وجهها التي غطاها المسحوق ورقبتها وصدرها الكهل الممتلئ. لكنها ستواصل النوم وسترى نفسها وهي تصعد التل لتصل الآفاق البعيدة.

تتواصل الرحلة عبر خرائط الأفكار – عبر حركة العقل المتأرجحة. عبر مكنونه وآلياته. البوذيون يجلسون بلا حراك يتأملون أفكارهم الخاصة.

كانت عندنا منذ أيام في "بريشوف" الفتاة "صوفيا" البالغة من العمر أربعة أعوام. مازلت أتذكرها بعد ولادتها مباشرة وهي ترقد في المحضن. طفلة جميلة، جسمها وكأنه مصنوع من زجاج ثلجي. قالت لي جارتي ونحن في الردهة: "إنها طفلة رائعة، تعجبني كثيراً!". في المساء كنت أقرأ لها من الكتاب. وعندما أطفأ الأنوار غفلت لعدة ثوان. إنني أعتبر هذه النقلة السريعة إلى العالم الآخر بمثابة معجزة، بما أنني من هؤلاء المصابين بالأرق. أحياناً تتململ

بشيء غير مفهوم، وتضرب بأسنانها، وتقع من على الفراش مرة أو مرتين في الليلة. عندها أحملها إلى السرير وهي تغط في النوم، تفوح منها رائحة نبات الخزامي، وذلك لأن صوفيا تأخذ مني دائماً وسادتي المصنوعة من هذا النبات، والتي أحضرتها في الصيف من مدينة "بروفينسا". أضعها تحت خدي أثناء النوم.

كنت وأنا في مثل عمرها أحب السيرك الذي كان يأتي مرة كل عام إلى مدينة "ميكولاش". أكثر ما يجذبني فيه كانت المرأة الثعبان بملابسها اللامعة، وكأنها مصنوعة من قشور السمك. تنظر إليّ بعينيها الساحرتين، ورأسها بين فخديها الملونين. بعد أن تنتهي من هذا الفقرة تعود بعد لحظات وهي ترتدي ملابس مصنوعة من ألياف صناعية، ذات أكمام قصيرة. تلك المرة وقفت أمام اسطوانة خشبية (مازلت أتذكر باطن قدميها القوية وملابسها الحمراء)، راح يدور حولها رجل ذو شارب، ويرمي بسكاكين تكاد تلمسها. كان هذا العرض بالسكاكين، واللحم، والدم، والمرأة يبعث في نفسي الإعجاب. كان هذا مشهد مسرحيتي الأولى حول قضية الموت، والجراح، وألعاب الدم، ووحشية المرأة مع الرجل. ضحك أبي عندما سألته ذات مرة: "لماذا لا تقذف النساء السكاكين أيضاً مثل الرجال؟".

كانت مشاهد البهلوانات أيضاً تثير إعجابي بعض الشيء. كانوا يأتون إلى مدينة "ميكولاش" في يوم السوق في الميدان. كنت أتناول "شعر البنات"، وأنظر إلى أعلى مثل باقي الحاضرين. كان البهلوانات يتأرجحون فوق رؤوسنا على حبل ربطوه في برج الكنيسة الكاثوليكية، ومبنى مكتب البلدية. رجلان وامرأة ذات ضفيرة شقراء يتحركون، وينزلقون بهدوء في الهواء على حبل معدني.

كانوا يذكرونني بالطيور.

لم تكن الذكريات في يوم من الأيام حقيقة كاملة، وذلك لأن الحقيقة هي ما نعتبره نحن شيئاً حدث بالفعل. إحدى النحاتات الألمانيات وضعت ذات يوم على الطاولة أشياء مختلفة، ثم ملأت الفراغات بينها بالجبس. حولت بعد ذلك العلاقات بين تلك الأشياء إلى تماثيل. وهكذا خلقت من الحقيقة الأولى حقيقة جديدة تماماً.

ما نحن إلا ذكريات، ذكريات تعبر عن أنفسنا، وتعبر في نفس الوقت عن شخص آخر، شخص لا نعرفه في داخلنا.

إنه يوم شديد الحرارة. شعيرات السكر اللزجة تلتصق بجسمي، والهواء يتبعثر ثم يسقط البرق، ويتبعه صوت الرعد وشهيق حر. الموسيقى تنتشر في كل مكان. ورزاز المطر يتساقط على الستائر، وعلى قميصي، وأعصابي، وعلى زجاجات الكوكاكولا التي تطايرت في الهواء بجوار حاويات القمامة.

obeikandl.com

ماريا باتوروفا

Mária Bátorová

ولدت ماريا باتوروفا في أكتوبر ١٩٥٠ في مدينة "ترنتشين". درست اللغة الجرمانية والسلوفاكية في كلية الآداب في براتسلافا، وفي جامعة "لوهير" في هالي. عملت في الفترة من ١٩٧٤ – ١٩٨٤ كمدرسة في مدرسة إعدادية في مدينة "نيترا" السلوفاكية، ومنذ عام ١٩٨٥ وهي أستاذة في معهد الأدب السلوفاكي التابع لأكاديمية العلوم. عملت أستاذ زائرة في جامعة "كولين" في الفترة من ١٩٩٥ – ١٩٩٨. شاركت في تأسيس الحركة السياسية "التسامح الثقافي" وترأسها حتى اليوم.

اهتمت كناقدة أدبية منذ بداية التسعينات بقضايا أدبية كانت شائكة في ذلك الوقت، وشاركت في كتاب "أماكن ناصعة في الأدب السلوفاكي"، وكتاب "أعوام التوتر والحراك". ثم كتبت دراسات في الأدب المقارن منها "الأسطورة والخرافة في الأدب". بدأت أيضاً في مطلع التسعينات بتقديم نفسها ككاتبة أدبية؛ فأصدرت رواية "أجراس في الحجر"، وهي تعد واحدة من أولى الأعمال الأدبية التي ناقشت ردود الأفعال على الثورة المخملية في تشيكوسلوفاكيا السابقة. كتبت أيضاً العديد من المجموعات القصصية منها "بهدوء ١٩٩٦" و "احكي ١٩٩٩"، "الحوائط البيضاء ٢٠٠٣".

obeikandl.com

الشيطان

ثمان ساعات من الطيران. كانت ترى نفسها وهى جالسة في غرفتها بمدينة "شيكاجو"، تتابع غروب الشمس كل يوم. تجلس ساكنة وكأنها انتهت للتو من عدو للخيل. راحت تتذوق طعم الوقت، والتحلل من المسئوليات. تفكر في خطابات ابنها التي حلت محل أحاديثهم الطويلة، الصريحة. أحاديث بين صديقين في كل أمور الحياة. كانت عند الحديث في مسائل محددة، تفكر في أمها التي لم تكن تتحمس لأية علاقة، خوفاً من العواقب المحتملة. هكذا كانت تلح في خطاباتها. أما هى فتفعل العكس تماماً: لم تكن تمنع أية شيء. فهذه الطريقة تخلق نوعاً أفضل من المسؤولية. كانت فقط تحذره من أن يؤذي نفسه. إنه يتفهم هذا الأمر تماماً. كلاهما يعرف أن الإحساس بالعدل أهم من أي إحساس آخر. لكنها لا تعرف، ربما فقط تحسب أن الحب بالنسبة لها يفوق كل شيء. تعتبره الشيء الوحيد ذو قيمة في هذه الحياة، ويتربع على عرش كل المشاعر. نسيت باسمه هناك، في الأفق، عند غروب الشمس، نسيت حالات الإخفاق التي مرت بها في العام الماضي. تناست كل الذكريات، فبالحب وحده تعيش وتتنفس. إن كل شخص له طريقته الخاصة. أبو أولادها مثلاً لم يكن يسمح لشخص ثالث أن يحتل مكاناً في علاقتهما، حتى وإن كانت أمها العاجزة التي تصارع الموت. يجب أن يكون هو وحده ولا أحد سواه. تركها هى وحيدة عندما فعلت نفس الشيء الذي فعله، وقررت أن تجد رجلاً غيره. حسناً، إنها حياتها. تحاول أن تنسى الأمر. فهذا السبب قد زال الآن. لكن بقيت أسرتها الناجحة، السوية، السعيدة، الهادئة المتناغمة، أسرتها التي تمتلئ حياتها بالضحك والرحلات، بالسباحة ونزهات الشواء في الخريف، والخروج إلى السهول الخضراء أو السير على الطرقات المفروشة بالتبن. ها هي شقة بها ستة عشر صورة للشمس. لقد صنعت هذا كله من أجلهما. هل يمكنها أن تنسى كل هذا هنا، في هذا العالم البارد الغريب؟ لكن من الصعب أيضاً أن تتذكره. إن روحها متهالكة مثل ورقة صفراء تملأها الثقوب. لا شيء يعلق بها. كل شيء يتساقط من تلك الثقوب وكأنه يتساقط من مصفاة: تركيزها وإرادتها. نواياها وأهدافها تسقط من على هذه الورقة البالية، التي تسقط من على الشجرة. جلست تنظر ببلادة إلى الكرة الحمراء فوق سقف البيت. إنها متعبة، فقد صار الفتور قدرها... ربما... حتى يعود الحب إلى نفسها من جديد، ويشرق ويتحرك كل شيء مرة أخرى بإيقاع خطوات حصان قوي مختلطاً بسعادة دفينة. هل هذا ممكناً؟ إن هذه الفكرة تصيبها بالارتباك وما يكتبه ابنها في رسائله الطويلة،

يلمح في عبارات مقتضبة عن حبه الجديد. هذا هو ما يحافظ على بصيص الأمل، ويملأ الثغرات في روحها. هذا هو ما يجعلها تتطلع إلى قضاء أعياد الميلاد في بلدها.

بـدأت الطـائـرة في الهبـوط، بينما راحـت تبحث وسط الرؤوس عن أطفالها. كانت رحلات العمل التي تقوم بها من قبل قصيرة دائما.

لكن مثل هذه السفريات-أو ما يسمونه تبادل المديرين، تستمر وقتاً طويلاً جداً. تبلغ عاماً في الشركات متوسطة الحجم في ولاية "إيلنوي". في البيت أخذتها ابنتها من يدها، ثم فتحت الخزانة وأرتها صندوقاً مليئاً بالمخبوزات، ثماني أنواع من المخبوزات، خاطبتها قائلة :ماما! أما هى وكأنها وجدت نفسها خارج المكان والزمان. تسمع أمها تقول لها: خمسة عشر نوعاً، انظري! كيف تبدو جميلة! ثم تبتسم في سعـادة. لـقـد ورثـت ابنتـها الكثير عند جدتها - حب الألـوان، والاهتمـام بالمنزل. كل شيء في الشقة مرتباً - قام ابنها بتنفيذ الجزء الشاق من العمل، أما الابنة فكانت تتولى زينة أعياد الميلاد. ترى مجهودها المكثف على مدى سنوات، فتشعر بالراحة. لكن ماذا فعل أبوهم؟ المشتريات، لقد أحضر كل شيء. لا شيء ينقصهم. يبتسم بطريقته الخاصة. يبدو لها وكأنه رجل جديد في علاقته بالبيت، وفي علاقتهما معا. له سحر خاص. تحفّظ وسحر الرجل الناضج الواثق من نفسه. إن هذا كله عائد إلى تقدم الزمن. لكن لا شيء يضاهي عنده الحياة الأسرية. صارت السلطة في البيت منفردة. يمكنه أن يفعل ما يشاء. ربما صارت هى الأخرى شخصاً مختلفاً بالنسبة له، سيدة أجنبية وأكثر جاذبية... صارت لمساته فيما بعد أكثر خشونة، مازال متشنجاً كما كان من قبل. إن الآخرون يرون جسم الإنسان تماماً كما يراه صاحبه. ربما هى لا تحب نفسها بالقدر الكافي، كما أخبرتها بذلك ذات يوم صديقة لها، أخصائية نفسية. يجب أن تحب نفسها، أن تهتم بها، إنها مؤهلة لهذا... سترى، ربما تبدأ في الاهتمام بنفسها يوماً ما... لكن مبدئياً ليس عندها الدافع ولا حتى الرغبة في ذلك.

إن فترة أعياد الميلاد تكون دائماً من أجمل أوقات العام عندهم في البيت. كل شيء يسير على ما يرام. الهدايا تتخطى حدود المعقول. هكذا يجب أن تسير الأمور. صار الأولاد كباراً. أول أعياد ميلاد يقضونها بدون أهله وأهلها. فيها تفيض الذكريات. تقوم هى بدلاً من أمها بالطرق على الكأس حتى يدخل الجميع. في العام الماضي اضطرت إلى أن تمسك بيد أمها حتى تساعدها في أن تدق على الكأس بالشوكة الفضية. عندها ابتسم الجميع، حتى هى نفسها اعتبرت الأمر مزحة، إلى أن أدركت أن هذا لم يحدث لها على مدى الستين

عاماً الأخيرة وصارت تنسى. كانت تعرف، أو تتوقع أن هذه هى المرة الأخيرة التي تدق فيها جرس أعياد الميلاد.

كانت سعيدة وكأنها وقعت من جديد في غرام زوجها بعد كل تلك السنوات. أمر غريب. إن افتراقهما كان دائماً يعد شيء سلبي في علاقتهما. كان ترى أن ابنها ليس على ما يرام. شارد الفكر، ساهد في الليل، يدور حولها ويلاطفها بيده. أحياناً يضمها إليه ويغرقها بكلمات معسولة. إن أوقات الميلاد الهادئة كانت فترة مناسبة لتبادل الأحاديث. رغم ذلك كان يتجنبها. ربما يمر بفترة حرجة في حياته ويعتاد الاستقلال بنفسه بعيداً عن آراءهم. ببساطة لا يشعر بضرورة أن تشاركه همومه. تركت الأمر كما هو رغم أسفها عليه. فكل إنسان في حاجة إلى شخص يسمعه. إن طباعه مثل طباعها. شعرت بأن في الأمر فتاة ما.

قال الفتى لنفسه ذات صباح وهو يجلس صامتاً على مقعد في المطبخ، ويتابع باهتمام أمه وهى تعد الفطور: "يجب أن تعرف ما يحدث". من سيخبرها بالأمر؟ هل سأفعلها أنا؟ وما هو العائد من ذلك... ألن يجعلها هذا الأمر تعاني؟ إنها هناك وحيدة، وسوف تعاني بعد أن تنصرف عقب انقضاء أعياد الميلاد. ألم يكفيها ما عانته طوال العام الماضي؟ إنها مازالت ناقمة. لن أخبرها بشيء. لا يمكنني أن أفعل هذا. ولن يقدم أو يؤخر شيئاً. يجب أن أسيطر بنفسي على الأمر. فالأمور تسير على ما يرام...

صاح الأب في ابنه قائلاً: "ماذا تفعل هنا وكأنك تؤدي عملا مهما؟ يجب أن تذهب لإلقاء المخلفات، وتزيل الثلج من على السيارة... ألا ترى ما يجب عليك عمله؟ أن تركب السيارة أمر طيب، لكن يجب أن تهتم بها...".

ما هذه النغمة الغريبة، الغير معتادة في هذا البيت.

ردت عليه مستنكرة: "لماذا تصرخ هكذا؟ هل تريد أخيراً أن تربيه؟ ألم تتأخر قليلاً في هذا ؟". وعندما التفت إليها ازداد حنقها، ولمع في عينيها توتر الأيام الأخيرة والغضب والحنق، فأضافت: ماذا تعامله بهذه الطريقة؟ ماذا فعل لك؟

صرخ فيها قائلا: لا أريد أن أراه جاساً هكذا طوال الوقت، لا أستطيع أن أراه هكذا.

– ماذا يحدث؟ هل انقضت هدنة أعياد الميلاد؟

انصرف الفتى بسرعة وهو يحمل كيس القمامة.

أحياناً كانت تراهما في المساء يتهامسان في شيء ما، وعندما تقترب منهما يتوقفا عن الكلام.

لم يتبقى سوى يومان على رحيلها، تملكها الحزن. لا شيء يستحق أن تترك أسرتها. انتابها شعور بأنهم في حاجة إليها أكثر من أي وقت مضى. هكذا تكون الأمور دائماً. يرى الإنسان أن عليه أن يبقى. لكن في هذه المرة تشعر أن هناك شيء لا تعرفه. ربما خطوات ابنها الثقيلة، وعيناه التي أرهقتهما قلة النعاس، فصارتا ضيقتان بطريقة غريبة، قليل الكلام، نظرته الحزينة وعصبية زوجها. أمر غريب يحدث. قسوة، ولا مبالاة غير معهودتان، عناق متعجل وكأنه واجب. كل هذا تراه ابنتهما، تلك الفتاة الشابة في حاجة إلى صدر حنون، إلى شخص تستظل به، يربض على أكتافها. لا يوجد في هذا البيت سوى الحزن، يجب أن يرحل عن هذا البيت. ما هذا الشيء الغريب الذي حلّ على هذا البيت؟

كان زوجها يتردد بين نافذة غرفة النوم والباب ذهاباً وإياباً. يبدو وكأنه سينفجر في أية لحظة.

– يجب أن أخبرك بالأمر. لا أعرف السبب، كل ما أعرفه أنني لا أستطيع أن أكتب لكي عن هذا في الخطابات، لكن يجب أن تعرفي. إنها... امرأة، تعمل مضيفة...

كان يرى زوجته وهي تجلس على السرير، وتضع قدميها من تحتها، تبدو مثل الطفل الصغير، عيناها زائغتان، تملأنها التساؤلات، وتهز رأسها متسائلة.

– بدأ هذا منذ الربيع الماضي، لكنني لم أعط للأمر بالاً حتى جاء الخريف. عقدت إحدى الندوات، وبعد أن ألقيت بحثي، صعدت إلى حجرتي لإحضار شيئاً ما، فالتقيت بها على الدرج. مالت على... كانت طويلة وفارعة، صدرها كبير. مالت بجسمها على، مرت بشعرها على خدي، ثم دخلت ورائي إلى الحجرة، وأرادت أن تقبلني...

كانت المرأة التي تجلس على سرير الزوجية تستمع إليه، طأطأت رأسها قليلاً، تنظر إلى ذراعيها العاريين. كانت تراها وكأنها تقلصت إلى النصف، بدتا لها وكأنهما ذراعي طفل وليد، صغيرة وذابلة. كذلك كانا صدراها وجزء من قدميها وركبتيها. تقلص كل شيء عدة أضعاف. لا تعرف لماذا تذكرت من طفولتها حوض الاستحمام الأزرق الصغير والحمام بعطر الورد والكاموميل. في نفس الحوض كانت تحمي أطفالها. لمع كذلك أمام عينيها وميض لهب الشموع على طاولة أعياد الميلاد هذا العام، وهي تستمع إلى التراتيم الدينية...

كان الرجل يدور من حولها. ها هو أخرج ما في جعبته. يرمق زوجته بنظرات قصيرة: كم هو جميل منظره وصدره الأبيض المنتفخ، كم هي رقيقة. حزن هذا المساء يجذبه إليها

من جديد. ها هي قد عرفت. فما عساها أن تفعل؟
سألته بهدوء: ماذا تنوي أن تفعل؟ ولماذا أخبرتني بالأمر؟
– لأنني في حيرة و لا أجد مخرجاً مما أنا فيه. لا أعرف ماذا أصنع.
– هل تحبها؟
– لا أعرف. أشتاق إليها في غيابها. وأتحرق شوقاً إلى قدومها مرة أخرى، لتجلس عند قدمي وتمسح على يدي ورجلي، أستسلم لها. لا أعرف كيف أصف الأمر. لم أشعر بشيء كهذا من قبل...
كان المرأة تجلس بلا حراك، لا تفعل سوى أن تومئ برأسها أكثر وأكثر. ألم تكن تتوقع أن يحدث هذا منذ عدة سنوات؟ ألم تكن تعرف أنه سيحدث يوماً ما؟ أليست هادئة بعد كل هذا الاستعداد الداخلي الذي استغرق وقتاً طويلا؟ بما أخبرها الآن؟ أنه مازال يتذوق الجمال والصبا. أن هذا يجعله يصاب بالإثارة عندما تكون في متناول يديه. أخبرها للتو أنه مازال حيا. إنها تعرف هذا، تعرف جيداً أنه رجل صالح. أخبرها أيضاً أنها ليست الوحيدة في هذا العالم. حتى هذا هي تعرفه، لم تدعي شيئا غير ذلك. على العكس، قد يكون الأمر غير طبيعي لو أن ما حدث لم يحدث، لو أن هذا لم يحدث لزواجهما. الأخلاق... الأسوأ أن يخون الرجل أو المرأة نفسه بطريقة لا تخلو من النفاق. ثم بعد ذلك... نقرأ: من منكم بلا خطيئة فليلقي بحجر. وأيضاً: لو ارتكبت يدك اليمنى خطيئة فلتقطعها! لو فعلت عينك نفس الشيء فلتقتلعها... حتى الأفكار إذن تعد خطيئة. من إذن بلا خطيئة؟ ما هو الفرق الكبير بين الفعل والفكرة؟ هل يمكن أن يكون الإنسان في منتصف العمر بلا خطيئة؟ وهل يجب أن يكون الإنسان بلا خطيئة؟ هل معنى أن تكون بلا خطيئة أن تكون في نفس الوقت محصناً؟ كيف يمكن بعد ذلك أن يعيش الحياة؟ هل يمكن أن نعيش بدون خيال، بدون أفكار، أم أننا يمكن أن نحبس الخيال والأفكار، ألن تتحول عندها إلى شيء آخر؟
استحثها الرجل الجالس على الطرف الآخر من الفراش قائلا: قولي شيئا من فضلك!
سألته السيدة من جديد: "وماذا ستفعل؟
– لا أريد أن أجرح مشاعرك، فقط يجب أن أخبرك بشيء عليك أن تعرفينه: أنا لم أعاشرها.
رمقته المرأة بطرف عينها سريعاً. إنه يقول هذا شفقة عليها. مرة أخرى، تماماً كما كان فعل عدة مرات من قبل، يشرح أسباب صمتها.
– كيف هذا؟ لماذا تفسد الأمر هكذا، لماذا كل هذه الصراحة؟

– كلا، أنت لا تعرفين كيف سارت الأمور. لقد همت واقفة قبل نهاية اللقاء، وأخبرتني أنها ستذهب للاستحمام حتى ألحق بها. لكنني لم أذهب، لا أعرف السبب الحقيقي، لكنني لم أستطيع أن أفعلها. ببساطة أنا لم أنم معها. سنحت بعد ذلك فرص كثيرة، لكنني لم أستغلها. بعد ذلك تذكرتك... سألتني بعدها ماذا سنفعل، ربما فاض بها الكيل فدفعتني إلى الحائط. رفضت وقلت لها إنه لا يوجد سبب يجعلني أنفصل عن زوجتي، وأنني لم أفكر في شيء كهذا مطلقاً...

سألته بنوع من الإرهاق، وهي تتخيل كيف كانت العلاقة بينهما في ذلك الوقت: ولا في السنوات الأخيرة، وخاصة العام الأخير؟

رد على سؤالها بسؤال حتى يكسب مزيد من الوقت: ماذا تقصدين؟

يالها من امرأة. تجلس هنا وكأن الأمر لا يعنيها. وكأنني لم أخونها، بل تعطيني مزيد من الوقت للإجابة. ألم تعد تحبني؟

– أقول لك، لقد كان الأمر برمته لا يستحق.

ابتسمت والإجهاد بادي عليها قائلة: إن الإنسان يرى من بعيد... أن علاقتي هذه بك ليس في موضعها الصحيح. حسناً. إن كل ما بنيناه معاً، أطفالنا الذين ربيناهم... كل هذا لا يقف عقبة أن نعيش الحياة بكل ما فيها. لو أنك لم تقع في حبها، لما أخبرتني بالأمر. ولو أنك تحبها فيجب أن تعيد التفكير في الأمر. إنك في منتصف العمر. ولا يوجد نص يجبرك أن نموت معاً أو تموت قبلي في حياة مشتركة.

رد متحفزا: ماذا تقولين؟ أقول لك أنني لم أفكر مطلقاً في الطلاق.

سألته بنبرة ود قائلة: وماذا أعجبك فيها إذن؟

ضباب خيم على حجرة النوم. كانت لا ترى أمام النافذة الرمادية سوى يديه – يدان بيضاوان، أصابع طويلة، راحتان مازالتا ترسمان في الهواء بحركة حماسية جسد من الخيال: - وجه رائع، أبعاد جسد مثالي، ساقان طويلان...

قالت لها وكأن رجل يخاطبه: كان يجب أن تضاجعها حتى تتوقف عن التفكير فيها.

لكنها كانت ترى وهي تقول هذا الكلام عدة أمور مختلطة: اتخذت ملامحها المعتدلة الصغيرة حجماً صغيراً. لو أنها كانت صدقت ما قاله، فهي الآن تشكك فيه من جديد. كانت تعرف أنه سيظل يفكر فيها دائما. كانت أيضاً على قناعة بأن لقاءاتهما الحميمة لن تكون كما كانت حتى الآن. لكنها فجأة ارتبكت. لأنها أدركت الآن أن قناعتها مبنية على أن هذا الرجل مازال يحبها.

قال الرجل: "أتعرفين، رمقتني بنظرة إعجاب لم أراها منك طيلة حياتنا".

ماذا تقول؟ لكننا... كنا طلبة... ثم....

لم تكمل كلامها. قصاصات أفكار تحركت أمام عينيها من ذلك العهد، أوقات رائعة، خالية من الارتباطات... والآن هذا الشك...

راح الرجل ينظر إلى زوجته. وفجأة اختفى شعوره الكبير بالحزن. تبدلت طأطأة رأسها وتسمرت المرأة، جلست وكأنها تمثال. لم يكن يعرف أن الشك يؤدي إلى هذه الحالة.

– أنت غاضبة، لماذا أخبرتك بالأمر؟

– أتعتقد أنني يجب أن أكون سعيدة؟

قال بابتسامة مملوءة بالحسرة: "أنا لم أخبرك بكل شيء بعد". ثم صمت بتكلف وأضاف: "إنها الآن ترافق ابننا!"

صرخت المرأة قائلة: "ماذا تقول!" ثم نهضت وأسرعت نحو النافذة وكأنها ستواصل السير عبرها.

ابتسم الرجل بهدوء. كان يريد أن يصل إلى هذا الانطباع.

– لا تقل لي أنها هي تلك الفتاة التي كتب لي الكثير عنها، وأرسل لي صورها، وأنا أصف له بناء على ملامحها جمالها الداخلي، وشخصيتها الرقيقة الهادئة المتزنة...

– بالضبط.

أعطت له المرأة ظهرها، واتكأت على عتبة النافذة. راحت تنظر في الشفق، ثم انفجرت في الضحك. كان إيقاع ضحكاتها متأرجحاً. ولو أمكن تجسيده، لكان كعوارض النافذة التي تهتز، ثم تتكسر، وتتحول إلى نشيج واحد، يختفي على الفور مع بدايته. كانت تعتقد أن ما تراه ليس حقيقة. شعرت وكأن حالة من البلادة أصابتها من جديد، وفقدت السيطرة على نفسها. صارت عاجزة عن التفكير. لماذا تفكر في الناس باستمرار وبصورة منتظمة ودائمة...؟ فلتغلق هذا الباب وتذهب إلى غير رجعة. نعم. هكذا يجب أن تفعل. لن تستطيع أن تؤثر عن بعد في أية شيء. سيقف المحيط حائلاً بينها وبين رجليها المقربين.

ثم يأتي الليل بصمته وامتداده اللامتناهي. يرقد كل منهما بجوار الآخر. يبحثان عن الأسباب، ينقبان في الأمور المنسية، يسمع كل منهم أنفاس الأخر الثقيلة الغير منتظمة عندما يغشى عليهما. ثم يستيقظان ليغرقا في أفكارهما مرة بعد مرة. وخاصة فيما حدث العام الماضي.

يأتي الصباح مرهقاً ومبعثراً. تظهر النافذة وكأن بقايا الغسق الداكن وشبحه قد علق بها. لكن ما بقى في الإنسان في ميدان المعركة

مازال ينبض بالحياة. أو على الأقل تلك الحركات الأساسية والعادات. مثل الصليب الذي تضع المرأة نفسها فوقه عندما تجلس عليه: القلب خاشع وهادئ، اللهم اهدنا! هذه الصلاة القصيرة المؤثرة وكأنها اليوم اتخذت شكلاً ملموساً، محدد المعالم. لكنها ليست سوى لحظة تأمل قصيرة، يمضي بعدها كل شيء في طريقه المعهود. قد تقرر أن تحتسي قهوة بدون حليب، في صباح شتوي كئيب. غيوم مليئة بالسحب فوق الأرض. من يدري أن الطيران سيكون ممكناً بعد أن تزول الغيوم... على أية حال مازال هناك وقت حتى يوم الغد... يجب أن تنهي بعض الأمور هنا. لكن كيف؟ لا أحد يعرف، وبصفة خاصة هو. كيف أتكلم مع أبني وهو لم يأتي من نفسه؟ كيف أساعده أن يتحدث في أمور سببت الهالات السوداء حول عينيه؟ راحت تطوي ملابسها، وتضع بهدوء أخر قطعة ملابس في حقيبة السفر. ظهر زوجها يتحرك من حولها، لم يقل شيئاً سوى أن ألقى التحية. ربما أراد أن يقول شيئاً...

– هل ستنصرفين هكذا ببساطة؟ ألن تقولي شيئاً؟

– ماذا عساي أن أقول؟

– يجب أن نفعل شيئاً حيال هذا الأمر. فعندما أتخيل أنه سيظل يرافقها، وأن شيء ما قد يحدث، وسيضطر عندها إلى أن يتزوجها، أفضل أن أقتل نفسي قبل أن أرى هذا أمام عيني.

قالت المرأة بانفعال وقد ازداد حنقها، وخاصة بعد ليلة أمس، حيث لم تأخذ قسطاً كافياً من النوم ومرهقة: كفى! أنا أسمع ما تقوله دون أن أعلق، وكأنني أنا من ينشر الفوضى في البيت. من المسئول عما حدث؟ من جعلها تتعرف عليه؟

– لكنني أخبرته بالأمر.

صرخت صرخة مكتومة قائلة: متى؟

– في الوقت المناسب حتى يكف عن مرافقتها. وأخبرتها أيضاً بذلك.

– معنى هذا أنها ترافقكما معا. أمازلت تواعدها؟

– لا، حدث هذا مرة واحدة. وعدتني بأن تكف عن ملاحقتي، رغم صعوبة الأمر.

– مسكينة! وهى الآن تنتقم منك... إن مثل هذه النساء لا رادع لها. لا، يا عزيزي، هذا ليس حباً، إنها لم تحبك يوماً ما. ما هى هذه المرأة؟ أنا لا أراها سوى شيطان.

وفجأة بطريقة عبثية تتراءى أمام عينيها هذه الفتاة بائسة ويائسة، ربما هى كذلك...

نظر كل منهما في عيني الآخر. كانت نظرتها حادة، وكأنها اكتشفت شيئاً ما أما هو فظهر سخيفا، مترددا وكأنها تهم أن تأخذ منه شيئاً عزيزاً عليه. وما أن لاحظت ذلك انصرفت عنه... صار الأمر برمته بلا فائدة.

نادت على ابنها بعد الظهيرة: "تعال! قبل أن أسافر سنذهب لنتمشى معاً".

راقبته وهو يلبس حذائه، ويضع على كتفيه سترة. إنه يعرف أن أمه تعرف بالأمر، الأمر الذي أصابه بالارتباك. كان من قبل يرغب في الذهاب معها، أما الآن...

كانت الثلوج تتساقط طوال الصباح، وكست كل شيء باللون الأبيض. اختفت الغيوم في السماء، وسطعت الشمس... وظلت هكذا لمدة ساعتين على الأقل. جلسا في السيارة صامتين، انطلقا عبر الوادي الأبيض الذي سطعت عليه الشمس. غادرا السيارة في صمت، بينما راحت تنظر إلى واجهة المصحة – إلى النافذة الثالثة من جهة اليمين، حيث توفيت أمها خلفها في الخريف، بينما سار ابنها من وراءها يقيس آثار قدميها الضعيفة على السير في الغابة. ثم واصلا سيرهما في صمت. كانت أمه تنتظر. كان هذا الطريق على مدى أعوام مسرحاً لأحاديثهما. كانت تتأرجح أسفل الجبل، أدارت ظهرها للشمس. حتى الغابة تشرق عليها الشمس، وتتلألأ، وتصنع ظلالاً كثيفة.

أخيراً تحدث ابنها قائلا: "So, what's up?" إن الموضوعات الصعبة تبدأ غالباً بكلمات أجنبية. وكأنه يحتمي بها.

– فلنفكر معاً في الأمر. يجب أن نتفق على شيء قبل أن أسافر.

حالة جديدة – الابن الشاب يأخذ من أبيه عشيقته. ليست حالة حب أفلاطونية من طالب، لكن من رجل ناضج. الابن أمام أبيه، رجل أمام رجل.

مد لها يده وهما ينزلان من فوق تل منحدر قليلاً، تراكم عليه الجليد. كانت تفكر في يوم شتوي آخر منذ ثمانية عشر عاماً: تذكرت صديقتها وهي تسرع في هلع شديد خلف ابنها، وتصرخ. أما الصبي فيواصل نزوله من على التل، وكأن صراخ أمه استنفره. وقبل أن تلحق بابنها، راحت تقول بهدوء: كيف سأنزل من فوق هذا التل؟ مازالت تتذكر الصبي وقدميه الصغيرتين وهو يأخذ بيدها على مهل، وينزل بها إلى أسفل التل. من ساعد من؟ لكن أية حيلة تربوية وقتها لم تكن ذات جدوى ما لم يكونا متشابهين.

إن موقف اليوم فريد من نوعه. الابن يشعر في قرارة نفسه أن عليه أن يتنازل وهذا ما لا يريده.

– لقد أخبرني أبوك بكل شيء... أخبرني بما حدث معه وما يحدث لك.

قال الفتى بينما ثورة كامنة تظهر في صوته: "كيف له أن يعرف ما يحدث لي وهو لا يعرف عن ذلك شيء. حسناً أنه أخبرك بكل شيء. فأنا لم أستطع أن أتحمل ما تكتبينه، بأنها فتاة صالحة، وهادئة، وأنها نقطة بيضاء بين من رافقتهم. لكن... ربما لم يكن مضطراً إلى أن يخبرك. وكنت سأتدبر الأمر بنفسي ولا أدعك تتعذبين هكذا..."

توقفت الأم عن السير وكذلك فعل هو الآخر. وقف الابن عند منعطف الغابة وسط أغصان جافة سوداء، وكأنه في بيت العنكبوت. من خلفه سماء زرقاء. ظهر يافعاً ومنتفخ الصدر. هالات سوداء أسفل عينيه انتشرت حتى في عينيه. راحت الأم تتفحصه، فقد أخبرها بشيء من شأنه تفسير الأمر على نحو مختلف.

سألته: "هل تحبها؟"

صمت لحظة ثم قال: "إن الأمر معقد، لكنني سوف أحاول أن أشرحه لك". ثم واصل سيره. كانت ترى رأسه وهو يتحرك وسط شبكة سوداء. حاولت أن تجد لنفسها طريقاً، وتقفز بطريقة عشوائية وغريبة، وكأن جزلات سوداء قد أصابتها وهي حافية .

– أتعرفين، في البداية كان الأمر برمته غريباً، اعتقدت أنني وقعت في غرامها. اتصلت بها هاتفياً. قابلتها بعد أن عرفني أبي عليها بقليل. كنت أرى الأمر غريباً، وهي تمرر يدها على وجهي في أول لقاء لنا، وكأنها فعلت نفس الشيء في اليوم السابق. كانت تبحث في ملامحي عن أبي. قالت إنني أشبهه كثيراً. كانت دائماً تنسى الزهور التي أحضرها لها في المقهى. كان الحديث معها في البداية صعباً. حديث ينتهي بتعليق وحيد وهو أن ما قلته مجرد هراء. هذا الأمر مازال حتى اليوم يزعجني. وبعد أن أخبرني أبي بالأمر فيما بعد اعتراني اليأس الشديد. لكنها لم ترغب في التراجع. أقنعتني بأن علاقتها به انتهت، وأنني شاب جديد ترافقه لا علاقة لأبي بالموضوع. اعتقدت أنها صارت ملكي، ويمكنني أن أضع الشروط. هكذا قلت لنفسي أنها طالما كانت معي فلن معه. وسيكون زواجكم وأسرتنا...

صاحت الأم بحزم: - كفى!

ابنها يعرف هذه النبرة، قليلاً ما سمعها عوضاً عن البكاء.

– دعك من خدماتك الإصلاحية هذه، فلست بحاجة إليها. أبوك رجل رشيد، في منتصف العمر ولن يجبره أحد على فعل شيء. يجب أن يأخذ قراره بحرية. كيف لي أن أدعك تضحي بنفسك لحمايتنا؟

رد عليها بهدوء ولطف: لكنك لست هنا، ولا يمكنك أن تدافعي عن نفسك.

– أتعتقد أنني لو كنت وقتها هنا كنت سأدافع عن نفسي؟ ألا تفهم أنه من العبث أن أدافع عن نفسي، ولو حدث لكان على حساب كرامتي.

قال الشاب وهو مستغرق في التفكير: "إنك قوية جداً يا أمي. أبي يعرف هذا. وعندما تطور الأمر بينهما لم يرد أن يتركك. أعتقد أنه لم...". لم يرغب في إنهاء الجملة. تلعثم ثم بدأ يتكلم باللغة الإنجليزية.

سألته امه: "هل تعاشرها؟"

– ليس بعد، رغم أنها قد ترغب في ذلك فوراً. أتعرفين، لقد تعلقت بها كثيراً. وأبي مصمم على أن أتركها. لكنني لا أستطيع أن أتصور ذلك. عندما قال لي هذا، تركنا بعضنا لعدة ساعات، بعدها جاءت تبكي وتقول إنها لا تستطيع العيش بدوني. وعادت علاقتنا من جديد. إنها تهتم بي باستمرار وتسألني إن كان عندي ما آكله أو إن كنت أشعر بالبرد. تماماً كما تفعلين معي. لا أعرف ماذا أصنع. سأسافر معها إلى "آيسلندا".

– لكنك لن تستطيع العودة. أتريد ذلك؟

– لا أعرف ماذا أفعل. أنا عاجز تماماً...

– لا تنام جيداً.

قال بتحد: "هذا صحيح. السبب الأول هو أنت، ثم هي. لكن أنا وهي، حياتنا لا علاقة لها بكما".

ساد الصمت.

خرجا من الغابة إلى منحدر تشرق عليه الشمس. أذابت الشمس الجليد الذي سقط للتو. شعرت الأم بمدى المعاناة التي يتكبدها ابنها منذ وقت طويل. أدركت أيضاً طبيعة الموانع والأسباب التي تجعل هذه العلاقة مرفوضة. العلاقة التي تستدرجه إلى إيماءات لديه استعداد طبيعي لتقبلها.

– أحاول أن أتفهم ما تقول. إنك متورط في الأمر. ماذا عساي أن أقول لك، لكنها... لم تتردد في تدميرك. هل ما تقدمه لك هو نفس ما تتمناه لنفسك؟

ساد الصمت من جديد.

كان الثلج يصدر خشخشة تحت أقدامهما، وذبل ضوء الشمس. انتشر الضباب اختلط فيه اللون الأزرق بالأخضر والأحمر، وبدأت السحب تتجمع.

استأنفت الحديث قائلة: "أتعرف أنني كتبت لها بالأمس رسالة. من أجلك أنت. أخبرني أبوك أنك عاجز عن إنهاء العلاقة".
ثار الفتى وقال: "لن أسمح لكما بهذا، دعكما من هذا الأمر. إنها مسألة تخصني أنا وحدي ولا دخل له فيها".

– إن من تتحدث عنه هو أبوك، وما يحدث انتقام منه على حسابك. هذا يحدث أحياناً. لقد أخبرني أن...

– لكن يا أمي اسمحي لي! إنه لم يقل لك. المسألة هي أنه أسقط في يده، وهذا الأمر يعذبه. ولا يتردد في أن يستخدمك للتأثير علي.

صمتت أمه، والخوف يهز أوصالها. من أين له بكل هذه الكراهية المتدفقة مع صوته؟ كل هذه الثقة والسيطرة وهذا التشكك.

– إن دوافعك ليست واضحة، أنت لا تعرف ماذا تريد.

انقطع من جديد حبل الكلام. هذه الفتاة شيطان حقيقي.

بعد لحظة خاطبته قائلة: "يا ابني، لا يمكن أن نسمي ما يفرق بين الأب وابنه حباً. الحب خير، يجمع ولا يفرق. سأرسل لها هذه الرسالة. انظر! كان الأمر مختلفاً عندما لم أكن أعرف بالأمر. أما الآن فسأشعر بالذنب إن سافرت... افهمني! عندي حق في أن أتخذ الموقف الذي أراه. وافعلا بعد ذلك ما يحلو لكما. سأعطيك الرسالة حتى تعرف... إنها معي، اقرأ!".

أخذ ابنها الرسالة، وراح يجوب فيها بناظريه، ويقرأ: "كاترينا"! أكتب لكي ليس من أجل زوجي. إن مات الحب فلا طائل من الرسائل. أنا لا أعتبر الزواج عبودية. ولو قرر أن يختارك فسوف أتفهم الأمر. الأمر الذي يزعجني هو أنك سعيت وراء رجل متزوج. ربما تكون المسألة غير شائعة، وأنا أعتبرها خدعة. ولقد بدأت بهذه الخدعة في أسرتنا. أكتب لكي في الأساس كأم من أجل ابنها. لقد ربيت أولادي على الخير، وأشعر الآن بالمسئولية عما وضعته فيهم. إذا واصلتي علاقتك بابني فإنك تقفين بين الأب وابنه، والآن بين الأم وابنها. الكثير من النساء تأخذ من الرجال بيوتهم ويرتكبون خطأ. لا يمكنك أن تحولي بين ماضي ابني وحاضره. لا يمكنك أن تطلبي منه أن ينسى طفولته وبيته الذي نشأ فيه. وإن فعلتي فلا جدوى مما ستفعلينه. أنا واثقة كامرأة بأنك أحببت زوجي. لكنني لا أصدق أنك تحبين ابني. فكري جيداً كيف كانت حياتكما في الفترة الأخيرة. أعرف أنك لديك أم بشعة. ومن يدري ماذا ستقول فيما يحدث.

طوى الابن الرسالة بهدوء. رأى أمه تقف أمامه بعيدة عنه، تبدو صغيرة مثل الأطفال. راحت تقرصه في أذنه. انصاع لها واحتضنها من

أسفل زراعيها، اللتان غطاهما معطف وكأنه في كنف جناحين. وهكذا عادا إلى موقف السيارات.

قال لها عندما أصبحا أمام المنزل: "اتركي الأمر لي وسترين أن الأمر سينتهي على خير".

لم تجبه، كانت تود أن تصدقه، لكنها كانت مفعمة بشعور أن هذه الفتاة شيطان حقيقي.

أمام باب البيت حذرته قائلة: "لا يجب أن تعرف أختك بما يجري! سينصرف كل منا، وستبقي وحدها مع أبيك. إنها مازالت في سن... ويجب أن تواصل دراستها...".

في البيت راحت تفتح حقيبة السفر بروية، وهى تقول لزوجها أنها قد سوت المسألة، وألا يشغل باله بالأمر. ستفعل، حتى يزول التوتر بين الرجلين، وحتى لا ينفجر الموقف، ويتحول إلى مأساة يوماً وهى بعيدة عاجزة عن التدخل.

بعد ذلك جلست في الطائرة. وكأن طوفان الهواء الذي دخلت فيه قد حال بينها وبين نفسها التي كانت معها منذ قليل.

هواء وفراغ. ترى نفسها من بعيد وكأنها تحولت إلى مكان، منطقة هجوم واهنة مفتتة. نعم، هكذا كانت وهكذا ستظل بالنسبة لهم دائماً. فراغ يملأ نفسها. لا تعرف ماذا ستصنع هناك، خلف البحار، في قارة غريبة حيال هذا الشعور القاتل بالوحدة. عندما ينفصل الإنسان عن ماضيه وعن نجمه الذي لا يأفل، عن الثقة في بناء أية شيء ذو معنى. ربما سيقف كل إنسان ذات مرة في مفترق الطرق وحيداً تماماً. لكن سيظل هناك ضوء يومض في داخله. يا له من شعور يبعث على السرور الحذر، وهى ترى السعادة ترفرف على رجل ناضج.

روت ليخناروفا

Rút Lichnerová

ولدت "روت ليخناروفا" في عام ١٩٥١ في مدينة "مارتن" بسلوفاكيا. درست في كلية الآداب بجامعة كومنسكيهو في براتسلافا العاصمة. عملت في الفترة من ١٩٧٤ – ١٩٧٥ كمنظرة للفن التشكيلي في متحف مدينة "بانسكا بيستريتسا"، ثم في المركز الثقافي للمدينة. تعمل منذ عام ١٩٨٢ في المتحف السلوفاكي بنفس المدينة، حيث تتولى منذ عام ١٩٩١ إدارة متحف "يوسف كولار". نظمت أكثر من مئة معرضاً للفنون التشكيلية، وتعيش في الوقت الحالي في مدينة "بانسكا بيستريتسا".

تعد "روت ليخناروفا" واحدة من أن ألمع الأديبات السلوفاكيات المعاصرات. كتبت أولى مجموعاتها القصصية في عام ١٩٨٩ بعنوان "قصص من كرامانينسكو"؛ تعالج فيها الإبداع رغم ضيق المكان من خلال حكاية نفسية لأبطال قصصها. طورت الأديبة في أعمالها التالية؛ بدءاً من مجموعة "طابية شاه" ١٩٨٤، وانتهاء بمجموعة "النهر" ٢٠٠٠ فكرة التصوير والمجاز في الأدب. تناولت في رواية "السمكة العمياء" ١٩٩٨ واحدة من القضايا التي عالجتها في أعمال أخرى لها، وهى قضية الاتصال بين الحياة الاجتماعية الإنسانية والنص الأدبي.

obeikandl.com

obeikandl.com

أننا ريجينا

بدأت "أننا ريجينا" تشعر بألم متقطع في رأسها. لكن آلام اليوم قوية، جعلتها ترقد طوال اليوم في غرفة شبه مظلمة، غطت نوافذها بالستائر. حلقات حديدية تقلق نومها وآلاف المطارق تدق في رأسها. يزداد الألم مع كل حركة، فترفع رأسها من وقت لآخر، ثم تسند جسمها على مرفقها، وبدون أن تنظر تشرب الحساء. لم تفتح عينيها إلا في المساء بعد أن هدأ الألم. ذهبت لتقبل أطفالها وتتمنى لهم نوماً هادئا.

كانت "أراميشا" تجلس وسط أسِرّة الأطفال وتحكي لهم إحدى الحكايات.

"حدث ذلك في الوقت الذي أصبح فيه العالم صغيراً، وتغيرت فيه الحياة. صار الملاحون يجلبون معهم التوابل الغالية والأقمشة الثمينة من البلاد البعيدة، يحضرون لزوجاتهم طيوراً من بلاد بعيدة في أقفاص جميلة ملونة. وجد الناس أنه حتى في الشتاء يكون سماع غناء الطيور أمراً طيباً، فذهبوا إلى محل الطيور في إحدى الشوارع الجانبية في مدينة وسط البلاد". هكذا كانت تحكي لهم "أراميشا" عندما دخلت "أننا ريجينا" إلى الغرفة.

واصلت "أرميشا" الحكاية: "كان صاحب المحل رجلاً فرنسياً عجوزاً أصماً، وكانت "كريستينا" ترعى الطيور كل يوم. كانت فتاة ذات عيون زرقاء وشعر متعرج طويل يصل حتى خصرها. تلقي للطيور بالحبوب وتغير لهم المياه وتنظف الأقفاص. كانت تتكلم مع أناس أحبو طيورها كما أحبوا شَعرها".

سألتها "اليزابيث": وهل كانت الفتيات تذهب إلى هناك؟

نعم – ردت عليها "أراميشا" وواصلت الحكاية.

كانت الفتيات الصغيرات معجبات بشعر "كريستينا". طلبن من أمهن أثناء الاستحمام في يوم السبت أن تغسل لهن شعورهن لتكون مثل "كريستينا".

في أحد أيام الخريف لم يكن بالمحل سوى الرجل الفرنسي الأصم. طلبت منه "كريستينا" أن يعطيها أجازة، ثم ذهبت لتتمشى في منتزه يقف فيه ضابط من فريق الفرسان الملكي. كان السيف المعلق في خصره يصدر صليلا. تفوح من معطفه رائحة الحرب. ولأن "كريستينا" كان لا تزال صغيرة وساذجة، فقد اعتقدت أن هذه الرائحة الغريبة التي تميزه عن باقي الرجال يصنعها الضابط بنفسه. كانت الرائحة نفاذة وتشبه سرج الحصان في سلاح الفرسان. لم تكن "كريستينا" تعرف إن كان مسموح لها أن تقترح على الضابط أن

يستحم عندها قبل أن يرحل إلى فرقته بعد يومين. انحني الضابط أمامها قبل أن ينصرف وقال:

الآن على أن أرحل وسوف أعود في الخريف.

لكنه لم ينطق بكلمة ليخبرها بما سيفعل في اليومين المتبقيين. لم ترغب "كريستينا" الساذجة أن تسأله عن شيء لم يخبرها به من تلقاء نفسه. عادت إلى محل الطيور وبدأت كالعادة تتحدث مع الرجل الفرنسي.

أخبرها الرجل الفرنسي أن المنطق يسود العالم الآن، وأن العقل يطوق إلى معرفة الحقيقة. وراح الفرنسي ينطق الكلمات بوضوح وعلى مهل: إن معرفة الحقيقة تطهر الإنسان، ويجب أن يعرف الحقيقة كل من أراد أن يعيش حياة حقه.

فسألته "كريستينا": كم عدد النجوم في السماء؟

أجابها الفرنسي بابتسامة قائلاً: سؤالك ليس في محله. فلا يهم إن كان عدد النجوم في السماء يزيد أو يقل بضعة آلاف، فلن يجدي هذا نفعاً فيما نفعله نحن هنا على الأرض. فليس مهما أن نعرف عدد النجوم في السماء.

سألته "كريستينا": لكن ماذا علينا أن نفعل؟

أجابها الفرنسي الأصم: "يجب أن نعرف كيف نخفف الآلام عن الناس". ثم نظر إلى الطيور في الأقفاص وأضاف: "يجب أن نعرف كيف نجلب لهم السعادة".

كانت "كريستينا" تنصت إليه باهتمام، وتتابع حركات شفتيه، وكأن الأصم هى وليس الفرنسي. قرأت من شفتيه كل ما قاله.

أقنعت نفسها مرات ومرات أن الطيور تجلب السعادة للأطفال، وتسعد كل إنسان وحيد. كانت تقضي كل أيامها في المحل، لكنها لم تستطع أن تشعر بالسعادة. لم تتوقف يوماً عن التفكير في الضابط، ليس لأنه كان أروع إنسان على وجه الأرض. فهو لم يكن كذلك. وعندما بدأت تفكر فيه لم تحب أن تفكر في أحد غيره. لكن الخريف مازال بعيداً.

تحركت "اليزابيث" في الفراش. أخذت نفساً عميقاً ونامت من جديد.

سألها "كارل": هل كان مع الضابط حصان؟

نعم، كان معه حصان

وسيف؟

نعم

وبندقية؟

أجابته "أماريشا": كان معه كل ما يلزم أي ضابط.

تنهد "كارل" بسعادة واستدار على جانبه الآخر. وواصلت "أماريشا" الحكاية:

في أحد الأيام جاء إلى المحل شاب، أنفه كالبومة وعيناه حمراوان كالكهرمان. تفقد كل الأقفاص وكل الطيور، ثم توقف عند طيور القرزبيل واختار ذكراً أحمر اللون، منقاره كبير وقدماه قويتان.

قالت له "كريستينا": "اختيار رائع".

دفع الشاب الثمن، ووضع الطائر في القفص وانصرف. ثم عاد بعد أيام قليلة ليتفقد المحل ويشاهد الطيور. توقف عند العصافير واختار عصفوراً له ستة ريشات بيضاء على ظهره.

قالت له "كريستينا": إنه أفضل ما اخترت. هل أنت تربي الطيور؟"

أجابها الشاب: "لا، لا".

عاود الحضور مرة أخرى يتابع الطيور باهتمام كبير بوجه منشرح وعينين لامعتين. ثم اختار عصفوراً جميل المظهر والصوت.

سألته "كريستينا" بدهشة: "لماذا تختار في كل مرة أفضل أنواع الطيور؟".

أجاب الشاب: "لا أعرف، ربما أني لا أحب سوى الكمال".

لم تشك "كريستينا" للحظة أن الشاب الذي تشبه أنفه أنف البومة وعيناه حمرة الكهرمان لا يرغب سوى في أفضل أنواع الطيور.

اختفى الشاب لعدة أيام. وعندما دخل إلى المحل من جديد، اتجه مباشرة نحو "كريستينا" وقال لها:

اسمي "جان". أتعلم مهنة المجوهرات، ويسعدني أن أذهب معك للتمشية في المنتزه.

كان الشاب الذي استطاع أن يختار أفضل الطيور معجباً بـ"كريستينا". كانت تحب أن تتعرف على "يان" وتصادقه. لكنها بدأت في ذلك الربيع تفكر في ضابط فريق الفرسان الملكي الأول. لم تحب أن تعقد الأمور، لهذا نظرت برقة إلى "يان" وقالت: لا يمكنني أن أنصرف من هنا وأغلق المحل. فربما يأتي أحد الزبائن. ألا يمكنك أن تأتي أنت إلى هنا كالعادة؟

قال "يان": كما تحبين... شعر بالإهانة. ذهب إلى "أمستردام" ليتعلم صقل الماس.

راحت "كريستينا" تنتظر بيأس أن يدق جرس الباب ويدخل "يان" إلى المحل. الشاب الذي بدأت تتخيل بأن الحياة معه ستكون طيبة.

خفضت "أماريشا" صوتها.

أنفاس منتظمة تصدرها "اليزابيث" في نومها. استسلم "توماش" للنعاس من بعده "اليزابيث". وكذلك أغلق "كارل" عينيه. اعتدلت

"أننا ريجينا" في جلستها، وفردت قدميها وأغلقت عينيها وقالت: واصلي الحكاية يا "أماريشا"، واصلي ولا تتوقفين.

واصلت "أماريشا" الحكاية بهدوء.

لأول مرة تدرك "كريستينا" أنها تفكر مثل امرأة عجوز. إن الفتيات في مثل سنها يفكرن في كلمات الحب واللمسات المتقدة، وليس في حياة تعيشها مع شخص ما. هكذا ظلت تفكر، حتى جاء الخريف. انتظرت يومين آخرين حتى فقدت الأمل في عودة "يان"، فذهبت لتلتقي بالضابط.

كانت الغيرة تشتعل في نفس الضابط. راح يتخيل كل شيء، ماذا فعلت "كريستينا" من الربيع إلى الخريف. وبعد أن ألح مراراً وتكرار ليعرف إن كان هناك شيء لا تريد أن تتحدث عنه، أخبرته "كريستينا" وتحول وفاء الفتاة إلى مادة للسخرية. لاطف كل منهما الآخر. تركها الضابط في ليلة زفافهما وانصرف.

بدأت عدة شعيرات بيضاء تظهر في شعر "كريستينا" الأشقر.

حكى لها الفرنسي عن النفس البشرية والحقيقة: "الإنسان يصبح إنساناً عندما يرتكب الذنوب". نظر الفرنسي إلى "كريستينا". عرفت أنه قد أخطأ، ويسعى جاهداً بكل ما أوتى من قوة أن يصبح إنساناً أفضل.

أدركت "كريستينا" أنه يتحدث عن الضابط وعنها. تسمرت عيناها على شفتي الفرنسي. أنصتت باهتمام إلى كل كلمة. واصل الفرنسي حديثه: إن قلبه يدعوه أن يكفر عن خطاياه.

سألته "كريستينا": لكن كيف؟ كيف له أن يكفر عن ذنب قد حدث بالفعل؟

قال الفرنسي: "تقول الحكمة، ابتعد عن الشر وافعل الخير. أدر ظهرك للشر! ولا تجعل همتك تفتر ولا تتوقع من الشرور خيرا.

شعرت "ريستينا" بالخجل من ليلة زفافها إلى الضابط. لاحظ الفرنسي أن كم قميصها مطوي وضمادة على يدها اليسرى. لم يسألها إن كانت قد قطعت شرايينها من اليأس. وخجلت "كريستينا" أن تخبره بالأمر. خجلت من نفسها ومن الضابط.

قال الفرنسي: "إن كنت فعلتي أمراً سيئا فاتبعيه بعمل الخير".

كان رجلاً عجوزاً، توفي في النهاية. لكن كانت "كريستينا" تنصت لكلامه وهو يخاطبها عندما كان على قيد الحياة. كانت هي الأخرى تنطق الكلمات ببطء وبحرص. بعد ذلك تتابع بعينيها فم كل من تتحدث معه، وكأنها تتحدث مع الفرنسي العجوز. كانت تسمع بعينيها وإذنيها وبكل جسدها. من النادر أن تجد شخصاً يحسن الاستماع كما كانت تفعل "كريستينا"، أو ربما لن تجد شخصاً مثلها على الإطلاق.

كان الناس يترددون على المحل. منهم من يشتري عصفور الحسّون حاد المنقار، ومنهم من يشتري طائر القرزبيل. وكثيراً ما يدخل المحل أناس لا يرغبون سوى في تبادل الأحاديث. كانت "كريستينا" تستمع إليهم. وكانوا يعتقدون أن سماع "كرستينا" لهم يعالجهم من الأمراض. كانوا مقتنعين بأن المرض سيرحل عنهم طالما تحدثوا بالحقيقة الكاملة، ولم يدّعوا غير ما هم عليه. كان الناس يحضرون إليها الأطفال ضعاف البنية، والمعتوهين والمرضى. توقفت النساء التي تنزف دماً عن النزيف، طالما تحدثوا بالحقيقة. عرفت "كريستينا" أموراً غريبة. رغم ذلك كان تدعوهم إلى قول الحقيقة كما هي. وطالما أرادوا مساعدتها، فعليهم أن يتحملوا جزءاً من الألم.

هكذا سارت الأمور على مدى عامين. كانت "كريستينا" تجهز قصاصات لاصقة للعلاج. تدهنها بالعسل والأعشاب المطحونة، وتضعها للمرضى على الأماكن المصابة. إن تحدث الناس بالحقيقة تزول عنهم الأمراض. وإن كذبوا تتحرر اللواصق وتسقط.

بعد عامين عاد "يان" من أمستردام" وتوجه مباشرة إلى محل الطيور. رأى في طريقه من خلف أحد الأسوار "كريستينا" وهي تسير في المنتزه مع رجل عجوز يعرج. ثم دخلت إلى المتجر وخرجت مع شاب رأسه كبيرة متدلية على كتفه، ذهبت من جديد إلى المنتزه في صحبته. لمحت "كريستينا" "يان"، فلوحت له كما يليق برجل تعرفه جيداً. ألم الحزن بـ"يان". فلم تعره ذلك الاهتمام التي كانت تعطيه لكلا الرجلين. استطالت أنف البومة وانطفأ بريق عينيه، وخفت نور وجهه.

إنه صانع مجوهرات ويمكنه أن يحمل في كل أصبع من أصابعه فتاة مثلها، عشرة فتيات من أمثال "كريستينا". لكنه لن يختار من بين كل النساء سوى أفضلهن، تماماً كما يختار أفضل بذلة وأفضل حصان وأفضل حذاء. إن كل شيء فيه يبدو كاملاً. لذلك فسيعثر على أفضل فتاة يخطبها ويصطحبها إلى "كريستينا" لتراها.

إن خطيبته جميلة حقاً. بشرتها عاجية، مغطاة بطبقة رقيقة من المسحوق وطويلة. لكنها ترتدي شعراً مستعاراً. يبرز من فتحة فستانها الحريري صدر مستدير لكنه مصطنع. يرتفع رصيد "يان" بجوارها كما يرتفع رصيد المرأة بالتحلي بالجواهر الثمينة. أصطحبها إلى "كريستينا" في المتجر. لكن ماذا حدث؟ ترك المرأة عند قفص الببغاوات، وراح يتحدث مع "كريستينا". يتحدث معها عن حَبة الماس الزرقاء التي كان يصقلها في "امستردام". لكن حبة الماس لم تكن جيدة. كان بها عيب. فاضطر "يان" إلى أن يقطع منها جزءاً صغيراً. وهكذا صنع حبتين من الماس. لكن لم تعد حبة الماس كبيرة وجميلة كما كانت. أصابه ذلك الأمر بالحزن، لأن هذا العمل كان من المفترض

أن يؤهله للحصول على الترخيص. لكنه في النهاية حصل عليه. ومن وقتها وهو يفكر فيما أحدثه عيب وحيد وصغير. وعليه أن يسافر مجدداً إلى "امستردام" لكي يصقل حبة ألماس جديدة.

كانت "كريستينا" تتابع حركات شفتيه وكأنها تستمع إلى الفرنسي الأصم. وعندما أنتهى "يان" من حديثه أخذ خطيبته، واصطحبها إلى بيت جميل في الميدان الرئيسي. منذ مساء ذلك اليوم وصارت لا تعجبه خطيبته. أصابته بالضجر. سيبحث عن غيرها. إنه تاجر مجوهرات غني، ورجل ذو مكانه في المدينة. تكفيه إشارة من إصبعه حتى يمتلأ متجره بالخطيبات. حتى هذه الإشارة من إصبعه ليس في حاجة إليها. فسيدات البلدة يتوافدن عليه، ويرسلن بناتهن لتخترن المجوهرات. واحدة منهن تلفت نظر "يان"، ويلتفت إلى أمهاتهن أيضاً. يتابع الفتاة بعينيه، ويرسل بجسده إشارات إلى أمها التي لا تسعى وراء الحب. يرفض الفتاة بهدوء. ثم يختار أمها لتصبح على الفور عشيقة مثالية له. يأخذها إلى متجر الطيور، ويظهر معها أمام "كرستينا". يرضي غروره أن تراه "كريستينا" مع كل هؤلاء السيدات الجميلات. أراد أن يكون عنده الكثير من النساء، وها هو قد حصل على ما يريد. ومن جديد ينسى نفسه، ويسترسل معها في الحديث. كانت "كريستينا" تتابع شفتيه كما كانت تفعل مع الفرنسي الأصم. شعر "يان" بأنها ترى روحه.

كان يتكلم عن الخيول المثالية وأطقمها الجلدية الرائعة، عن الفرسان الأقوياء الذين يمتطون تلك الخيول الرائعة وهي في أبهى أزياءها. كان يريد الكثير. لكن "كريستينا" كانت تعرف أنه لا يريد كل شيء. يجب أن يكون ما يريده مثالياً. وبينما ترك امرأة ما عند قفص الببغاء من جديد، راحت كرستينا" تغوص في أعماق روحه التي لن تعرف الهدوء إلا عندما يحاط "يان" بكل ما هو مثالي. وهو ما لن يحدث. كثيراً ما كانت "كرستينا" تفكر في "يان".

حضر إلى متجر الطيور في أحد أيام الصيف بعد الظهيرة. كان بمفرده. وكما فعل منذ عدة سنوات طلب من "كرستينا" أن تذهب معه في نزهة في المنتزه. ذهبت "كرستينا"، كانت تعرف أن روح "يان" قد أصابتها الشيخوخة، وملأتها التجاعيد. كانت تستمع إليه بإنصات كما كانت تستمع إلى العجوز الأعرج أو إلى الفتى ذو الرأس الكبيرة الملقاة على كتفه.

لكن ما حدث أنها لم تستطع أن تشفي "يان" الذي كان يهمها أمرة إلى درجة كبيرة بالاستماع إليه. أخذت اللصوق ودهنته بالعسل والأعشاب المسحوقة، ولصقته على قلب "يان". التصقت، لكن روح "يان" فقدت لونها الوردي المفعم بالحياة وملأتها التجاعيد.

عندها قال لها "يان": "عندي منزل جميل في الميدان الرئيسي، لكن لا حياة فيه. لم ترعى أياً من خطياتي عصفور الحسّون ولا طائر القرزبيل. أنا وحيد. واليوم أرجوك أن تأتي لتعيشي معي، وغداً سأحضر قفصاً كبيراً للطيور". نظرت "كرستينا" بمودة إلى "يان". سألها "يان" من جديد قائلا: هل يمكنك أن تحبينني؟

قالت "كرستينا" له: "نعم، يمكنني. لكن لا يمكنني أن أنتقل إلى بيتك".

سألها "يان" قائلا: ولماذا؟

لا يليق أن يقف أمام بيتك في الميدان الرئيسي المعتوهون والمرضى والأطفال الضعاف.

شعر "يان" للمرة الثالثة بالإهانة وقال: "إنه بالفعل لا يليق".

اصطحب "كرستينا" إلى باب الخروج من المنتزه. انحنى أمامها بأدب، حني رأسه حتى لامست ركبتيه. الأمر الذي كان يعد في ذك الوقت قمة التأدب، بينما كانت روحه قلقة. ملأتها التجاعيد وذبل لونها. ثم عاد إلى بيته الجميل في الميدان الرئيسي.

توقفت "أماريشا" عن الحكاية.

سألتها "أننا ريجينا" قائلة: "هل كنت خائفة؟ هل دب الخوف في أوصالك؟ هل كنت تخافين أن تقعي في الحب؟".

كان إنساناً كثير المطالب. لم أستطع أن ألبي له كل ما أراد.

سألتها "أننا ريجينا" من جديد: "هل كل ما حكيته حقيقة؟"

أجابت "أماريشا": ليس كله

آه، نعم

كان الأطفال يغطون في سبات عميق هادئ. تسللت المرأتان على أطراف أصابعهما إلى الدهليز وتوجهت كلتاهما إلى غرفتها.

الحب مثل التفاحة

احتلت الضفادع الجزء الأكبر من طفولتي. فكان لون ضفادع الأشجار الخضراء يمثل اللون الأخضر الحقيقي بالنسبة لي. جسدت لي ضفدعة الأشجار معنى الضفدعة الحقيقي. فكل من أراد أن يرسم ضفدعة كان يرسم ضفدعة الأشجار بلونها الأخضر الوحيد، ملحق بها جذع شجرة صغير حتى تستطيع التنقل من غصن إلى آخر ومن ورقة إلى أخرى. إلى تسقط على ظهورنا وتصير باردة.

إن أختي "ماريانا" لها قدمان باردتان مثل ضفدعة الأشجار، خاصة عندما تضعهما على قدمي حتى تدفئهما تحت الغطاء. تصيبني بالبرودة، وتداعبني بأصابع قدميها، فيذهب نومي للحظة من أثر تلك اللمسة الباردة، ثم يتدفق السرور من وجهي، فها هو

الحلم بالضفادع يراودني من جديد. تخرج ضفدعة الأشجار من الماء وتمد لي يدها الكبيرة التي تشبه الطبق.

إن ما يجعل نومي يذهب هو نقيق الضفادع في الصيف، وشخير جدتي في الشتاء.. نصحتني "ماريانا" وهى تدفأ قدميها الباردتين من حرارة جسمي قائلة: "لابد أن تستسلمين للنوم قبلها". لكن نقيق الضفادع ينتشر وكأنني أستحم في النهر قبل أخلد للنوم. جيش من الضفادع يزعق. جيش يأتمر لقائده: واحد، اثنان، شمال. صوت يقود الضفادع. يتقافزون صوب البحيرة، يتساقطون بعنف على ورقة زهرة الحوذان وكأن جيش الضفادع يريد أن يصنع أسطوانات صوتية على ورقة واحدة من أوراق زهرة الحوذان. يريد أن يضرب بقدميه ويصرخ، فرحاً بالحب القادم على شكل أنثى الضفدع المحملة بالبيض.

أحمل الضفادع في يدي كل يوم، وأطالع يدي بين الحين والآخر لأرى إن كان الثؤلول يتزايد عليها. لكن الضفادع التي أحملها من قناة الماء وأضعها بين أصابعي تعالج الأمراض. إن النتوءات الصغيرة التي ظهرت على يدي وأنا أحلم بالضفادع اختفت بعد عدة أيام، بعد أن أحرر الضفدعة لتنطلق إلى العالم بحرية.

هيا انطلقي أيتها الضفدعة!

تقوم جدتي بقطف نبات ذو عصارة سوداء، ثم تحتار أين تضعه. وأنا ألعب في الحديقة. مازلت طفلة صغيرة، تصل ورود زهرة الربيع الصفراء بالقرب من عيني. أرى الحشرات السوداء تتطاير من عليها. سوداء كظلام الليل وصغيرة كأسنان الدبوس. أرتدي فستاناً خفيفاً من نسيج محبوك لا أحبه. لأنه يشبه الغطاء المحبوك الذي يوضع تحت المزهرية على الطاولة. وبدلاً من تلك المزهرية، تبرز رأسي وسط هذا الغطاء. وتتمايل على صدري كرتان صغيرتان. إذا سحبت واحدة ينفك الوشاح الذي يحملهن، ويتحرر النظام الذي يحمل الفستان فوق رقبتي، ويسقط على الأرض. بعدها لا أصبح زهرية ولا غطاء. أصبح "ليليانا" الحرة، شبه العارية.

تصيح "ماريانا" قائلة: "هل تجردت من ملابسك من جديد؟ ها هي تتجول في الحديقة عارية!"

يمسكون بي ويلبسونني الفستان الكريه. يلفون شريط حول عنقي – حبل. يعقدوا الشريط، ثم يعلقون عليه الوشاح. وأصبح سجينة في فستان محبوك لا يمكنني تحمله. فأسعى لأنزعه من على جسمي، وأنا أتجول حزينة في الحديقة.

وجدت ضفدعة الطين قابعة في حفرة حيوان الخُلد، تقف مثل تمثال القديسة في محراب يتردد عليه الناس للصلوات. أيتها الضفدعة القديسة! أيتها الضفدعة القديسة! أسألك أن يسقط هذا الفستان

من على جسمي! اخلعي عني الغطاء المحبوك، وامنحيني رداءً خفيفاً مثل رداءك، لا يراه أحد. سيدتي المحبوبة! رأيت وأنا أضع راحتي أمام ضفدعة الطين وكأنني أمام قديسة، حقيقية يمكنها أن تفعل المعجزات، عيني ساطعة ومتلألئة وكأنهما عينان رائعتان لأميرة جميلة. قدمت لها يدي تعبيراً عن الصداقة وتحدثت معها بلسان عذب، وغنيت لها أغنيتها العذبة. لكن هذه الضفدعة لا تفهم كلامنا. تقف على مؤخرتها وتستعرض بطنها البيضاء، التي تنتفخ مثل البالون. وحتى لا تنفجر قلت لها: "انتظري أيتها الضفدعة! انتظري حتى أقبلك وأحررك من السحر الذي ألم بك!"

لكن أختي تزعق كالمجنونة: "ها هي "ليليانا" عادت تلعب مع الضفادع!"

ومرة أخرى تمتد إليّ يد جدتي. ويحملوني هذه المرة إلى غرفتي. ثم تجلس جدتي على مقعد أمام الباب وهي تحمل في يدها فاصوليا صلبة لتزيل عنها القشور. لقد صرت محبوسة في صندوق حفظ الحبوب – في تابوت أسدلوا عليه الغطاء. ووضعوا عليه سبعة قمصان كثيبة، أظل ألبسها، وسبعة أحذية ثقيلة أحملها في قدمي وسبعة أنواع من الخبز البغيض، عليّ أن أتناولها قبل أن يطلقوا سراحي.

سألتني جارتنا السيدة "ميدراتشكا": "كيف ترين الحياة عند جدتك يا "ليليانا؟".

أجيبها بصراحة قائلة: "إنها كالسجن".

أدهشني أن جدتي غضبت من إجابتي التي تنسجم مع الواقع.

قلت لها وأنا أحاول أن ألاطفها: "يمكنك أن تكوني ضفدعة إن أردت!"

لكنها كانت قد ذهبت إلى الحمام. وقفت على الكرسي، ثم فتحت النافذة وراحت تستمع إلى الإذاعة التي تذيع مسيرة الضفادع والأخبار المحلية. كانت تضع رأسها وسط النافذة. لم تسمع الطرق على الباب، ولم تنتبه إلى صرخات العم "ميشا" الذي يسير وسط غرفة المطبخ ويلوح بيده في الهواء ويصيح: "تخيلوا أنهم اثنان! لقد رزقت "ماركا" بتوأمين! "زلاتوشكا" و"مارجريت"! أختي صار عندها أربعة بنات! "ماريانا" و "ليليانا" و" زلاتوشكا" و"مارجريت". لقد صرت خالاً لأربعة أولاد. أكاد أجن!".

أسرع نحو الحمام.

أتسمعونني؟

خبط بيده على تنورة جدتي التي مازالت تنظر من النافذة إلى فناء السيدة "ميدراتشكا"، وتستمع إلى الإذاعة المحلية.

"إن (ماريكا) عندها توأمان!"

"يا إلهي!"
نزلت جدتي من على المقعد. وراحا يصرخان. خالي "ميشو" يصرخ من السعادة، بينما تصدر جدتي صوتاً وكأن حيواناً عزيزاً عليها قد لقي حتفه.
"أكان ينقصها شيء كهذا! ابنتان توأمان!"
وكأن أمي ولدت عجلاً برأسين.
"زلاتوشكا" و "مارجريتا"
صار خالي "ميشو" متيماً بالتوأمين. لكن جدتي كانت تعتبرهما مبعثاً لكل مكروه قد يحدث. أما أنا فقد قررت أن أحبهما وأحب أيضاً أبي الذي كان سبباً في هذا كله. فجدتي صبت غضبها عليه.
راحت تجوب المطبخ وهي تشد شعرها وتقول: "مفلس! فاسق! وغد! أناني! متشرد! حقير!". ثم انطلقت تهرول وسط فناء البيت والدجاج يتطاير تحت أقدامها. ثم أمسكت بالمذراة. بدت في فستانها الأسود ضخمة ومنتفخة كالديك رومي، وجهها أحمر وذابل مثل تفاحة في نهاية الشتاء. راحت تبحث بالمذراة عن عدو مجهول وتصرخ: "سوف أصفيك!" كنت أرى الأمر مسلياً. فأنا أرى جدتي تغرس المذراة في مسخ خفي وتريد أن تصفيه من دمه في مصفاة شراب التفاح. لكن "ماريانا" تؤكد أن جدتها صرخت وقالت: سوف أقطعك. مما يعني أنها ستقضي بقية حياتها في السجن لأنها قتلت أبي.
صعدت السلم وذهبت إلى المخزن، وراحت تردد وهي تلقي التين للخيول من فتحة الجدار، ثم تدق بالمذراة قائلة: "سأصفيك! سأصفيك! سأصفيك!". لكن لهجتها هذه المرة كانت أهدأ وكأنها اختلطت بالبكاء.
في ذلك العام قضينا الصيف بالكامل عند جدتي. استطعنا أن نتحمل الأيام هناك باستثناء يومين قبيل أعياد الميلاد. بعد ولادة التوأمين بأسبوع صعدنا إلى القطار. كانت أمي تريد أن نتعرف أكثر على أختينا الصغيرتين.
فجأة قالت جدتي وهي منكبة على السرير: "يا لهما من فتاتين قبيحتين!".
كانتا مخبئتان في الغطاء، صغيرتان ولونهما أحمر.
"أتمنى أن تكونا سعيدتان!"
تلك كانت أمنية جدتي المتسلطة. "سأفعل ما في وسعي أن يكون أطفالي وأطفال أطفالي سعداء!".
"سأدفعهم دفعاً ليكونوا سعداء!"
كان مهماً أن أنظر إلى خالي "ميشو" لأرى كم السعادة في عينيه. لقد اشترى قبعة وبدد مصاريف المدينة الجامعية على الألوان.

نهرته جدتي وهى تلوي يديها قائلة: كيف استطعت أن تفعل ذلك؟!

أجابها خالي "ميشو": "لقد رأيت هذا في الصور. عندما أغلقت عيني رأيت جمالاً كجمال الملائكة وحقيقة مثل الحقيقة الإلهية. رأيتها واضحة أمام عيني. كنت قريباً منها حتى كدت ألمسها بيدي. فقمت برسم حديقة مليئة بالفواكه، ونهر ملئ بالأسماك. أردت أن أرسم السعادة. لكنني كنت قريباً منها إلى درجة أنني شعرت بعبء ثقيل سقط على كاهلي وامتلأت عيني بالظلام. فتكاثرت الثعابين في الصورة.

من وقتها وبدأت أهتم بعلامات الحب. إن في الحب تكمن قوة يمكن أن تدمره. تلك واحدة من أولى ملاحظاتي. وذلك عندما نضم صورة من نحبه إلى أفواهنا بقوة شديدة وبحماس متقد. لقد دمرت أجمل صورة عندي". أضاف خالي "ميشو": "انظري! كيف صارت جوانبها متآكلة".

"لكنها تسمو بالحبيب وتقويه. شعرت بهذا عندما حملتني على ركبتيك".

"آه، "ليليانا"، يا تفاحتي الغالية".

إن الحب مثل التفاحة. فهي تحمل سراً يختبئ خلف قشورها مثل اليرقة. إنه يقبع خلف بشرة "زلاتوشكا" و"مارجريت" الشفافة، في أعينهما التي لم تتفتح بعد. في "نيرو" الذي لا يفارقهما. في يد خالي "ميشو" التي يرسم بها ويمسك بها سيجارته. إنه في دخان السجائر الذي يموج مثل الحبل. إنها تشبه اسمي وتكمن فيه. تلتف حوله يده مثل الثعبان. إن الحب كامن في الشوق إلى المعرفة التي لا يمكن بلوغها. إنه الحياة والذنوب وجاذبية الأرض. إنه الثمرة التي نلتهمها بعنف حتى تنفجر منها عصارة التفاح. إنه في الأشياء الممنوعة التي تقابلها "ماريانا" والتي مازلت صغيرة حتى أتعرض لها. إنه في ملابس البحر الضيقة التي تستعيرها أمي سراً حتى تلاحقها أسراب الرجال. بينما أنا أسخر من الشباب الذين يريدون أن ينظموا مسابقة، ويؤكدون أنهم سيجعلون ذيول الضفادع التي يضعونها في زجاجة عند النافذة تنمو. هؤلاء الشباب يعرفون كل شيء عن الأمور الممنوعة. فهم يقسمون الفتيات إلى نوعين: نوع يرتدي الحذاء والنوع الآخر يمشي حافياً. إنهم يعترفون بـ"ماريانا". أما أنا فلا أساوي عندهم أي شيء.

في اليوم التالي فعلت أمراً يجعل مني أسوأ طفل على وجه الأرض. فبينما كانت "ماريانا"تنظر من النافذة وتلقي بنفسها أمام الشباب من خلف أحد جناحي النافذة، أغلقت الجناح الآخر وأدرت

المفـتاح، وتـركتـهـا مثل الضفدعة المحبوسة في الزجاجة أو مثل سمكات الصيد المنقوعة في الخل أو مثل الدمية في واجهة المحل.

إنهم يتعاملون معي كالسجينة. أمي تمنعني من الخروج إلى الشارع، وتتظاهر "ماريانا" وكأن أسنانها بدأت تؤلمها. وأبي يأمرني بالعزف على آلة الكمان.

خطر لي أن أنظم حفلاً موسيقياً للضفادع. فتحت النافذة وأنا أتمنى من كل قلبي أن يكون صوتي مرتفعاً بطريقة مصطنعة وأنا ألعب. فدسّت "ماريانا" قطعة قطن في أذنيها وكالعادة فقد أبي قدرته على التمييز. فكان يعتقد أنني ألعب بكل سعادة. فأرسلت بسعادة إشارة إلى الضفادع حتى تصبح.

أما خالي "ميشو" فكان يقلب الأمور رأساً على عقب، وكأنه قادم من آخر الكرة الأرضية. يمنع ما يأمرني به أبي. فيأخذ مني الكمان ويضعه في علبته ثم يلقي بي في الهواء.

قال لي وهو يضحك: "لقد أحضرت لك شيئا سيجعل أسنان تصاب بالسوس! ولن تأكلي سوى الجزر!"

حاولت أن أضحك مثله. أكشف عن أسناني وأضغط الهواء، الذي أستنشقه إلى الحجاب الحاجز ثم أدفعه إلى معدتي التي أعتقد أنها تهتز مثل بطن خالي "ميشو" ونقهقه ها ها ها! مثل الخيل. بعدها نجلس على المقعد ونضع أقدامنا على الطاولة ونحن مرتديين الأحذية.

"إن كل شيء مباح في أمريكا، في الجانب الآخر من الكرة الأرضية".

بدأت أكبر وراح جسمي يطول. ومع طول حجم جسدي تزداد رغباتي. فقد كنت أحلم وأنا في الصف الرابع بضفدعة ضخمة اكتشفها الرحالة في الكاميرون، حيث تعيش في الجبال الهادئة، ضفدعة خجولة، وزنها أربعة كيلوجرامات وطولها ٤٣ سنتيمتر.

أتمنى أن أسافر إلى أفريقيا.

استدعتني المدرسة عند السبورة لأكتب جدول الضرب وهي تقول: "فيما تفكرين يا "ليليانا"؟" تقدمت وأنا أسير مثل عالم الرياضيات المقبل على مهمة. أسير على أطراف أصابعي حتى لا يسمع صوت الصندل. أنسل مثل المواطن الكاميروني الذي يحاول ألا يزعج الضفدعة وأن لا يلمسها. فهو يؤمن بأن قوة سحرية تكمن في عظامها وتجلب له السعادة. تناولت الممحاة، ثم بللتها بالماء بحرص حتى لا يسقط اللون الأسود في قاع الحوض. تقدمت بهدوء من السبورة. فأنا أعرف أن الرغبة متأججة، كما أن حياء ضفدعتي كبير. قمت بحرص شديد بمحو الأرقام التي تشير إليها المدرسة بإصبعها. وبدأ مفعول القوة السحرية.

"لم أعرف يا "ليليان" من قبل أنك منمقة إلى هذا الحد! لقد فشلت أيتها الضفدعة العوراء!"

عرفت أنني لمست بمخيلتي القوة السحرية الهائلة التي تحملها الضفدعة في عظامها. فلن يمر أكثر من ثلاثة أيام وعندها سيتجنبني سوء الحظ!

أردت أن أتسكع بعد المدرسة في حدائق الآخرين. فالغربة ليست تطفلاً ولا يربطنا بها علاقة قرابة ما لم يلاحظك أحدهم وتلفت انتباهه.

في بادئ الأمر لا بد أن أتخلص من "دانيسا" التي أحبتني لأنني أعرف كيف أفتح النافذة. إن النافذة هى ما يمكن أن أفتحه حتى لو لم تنتظر "دانيسا" هذا.

رحنا نتسلق السقالات وندخل من نافذة مستديرة صغيرة ونحن نحبو على بطوننا كالغواصين إلى السلام المؤدية إلى برج الكنيسة. دخلت الصالة الرئيسية، ثم تناولت شمعتين وأشعلتهما، ثم وضعتهما بحيث تكونا قريبتين من رأسي وأنا نائمة.

"هل أنت ميتة؟"

"نعم!"

أجهشت "دانيسا" بالبكاء، وبدلاً من أن تنصرف سريعاً راحت تحتضنني وتقبلني. تمنعني الدهشة من الإحساس ولو بالقليل من الحب.

لكنني استسلمت وعدت إلى الحياة.

قلت لـ"دانيسا": "هذا لا يجوز! فقد مستني القوة السحرية اليوم وأريد أن أكون وحدي لمدة ثلاثة أيام حتى يفارقني النحس".

إن السحر طاقة جديدة فتحتُها أمام "دانيسا". ودت لو أن تبقى معي إلى الأبد، لكنها تتفهم سوء الحظ الذي حل بي.

توجهت بمحاذاة السور الحجري إلى حديقة خلف روضة الأطفال. كنت أعرف مكاناً تعفنت فيه ألواح الخشب وتحررت من تحتها الكتل الحجرية. رحت أتفادى أحد الأسلاك وأنا أنسل وسط ألواح الخشب البالية، ثم أدلفت من إحدى الفتحات بين رقعة من زهور السوسن التي سأموت فيها لمدة ثلاثة أيام، أو على الأقل سأقوم بمراقبة الضفادع لمدة ربع ساعة.

وبدلاً من زهرات السوسن وجدت نفسي وسط الطين، هناك بقيت آثار أقدامي. لم أستطع التحرك بسهولة في ذلك الجو الشتوي. فالشجيرات تعوق حركتي وتلسعني من حيث لا أدري، وكذلك الأعشاب الضارة ذات الخطاطيف الصغيرة التي تقبض على جواربي كأسنان القطة، تلتصق بي وتعترض طريقي. وعندما أحاول أن أستخلص نفسي منها تخدشني وتمنعني من الرحيل مثل حبيب

يعرف أن حبيبته الغالية قادمة، ويخاف أن تتركه وتنصرف بعد أن عثر عليها. وانشرح صدره وهو يستقبلها. رحت أتحرر من غصن تلو الأخر، ومن حلقة بعد الأخرى، من بين أحضان حبيب لي. فلا يمكنني أن أبقى غارقة في الطين حتى كاحلي. فيكفيني هذا الاستقبال الحار الذي يبدد الغيوم من قلبي في هذا اليوم.

يوجد خلف روضة الأطفال مرحاض. تنبعث من أخشابه المتعفنة رائحة الفطر الذي نبت وسط كومة من المجلات، مظلات المطر في جزيرة "ليليبوت" التي تحدث عنها "جاليفر". رأيت أيضاً وسط المجلات صحف عن الموضة. إنها صحف لا طائل منها، فلا أحد يلبس ما يصورونه سوى "كاثي هوليك". عندما ظهرت لأول مرة في المدرسة، كان وجهها مغطى بالدقيق وكأنها دست أنفها في الدقيق قبل أن تخرج إلى الشارع، أو ربما أنها رشته على وجهها عمداً. ابتسمت. كانت المدرسة تحذرنا بالقول بأنه لا يوجد شيء يدعو للسخرية. وقفت "دانيسا" وراحت تفسر سبب قهقهتنا: لكن ماذا نصنع وهذه السيدة تبدو هكذا؟! لم توافقنا المدرسة الرأي. كانت حركت صدرها تنم عن أنها تريد أن تبدو مثل "كاثي هوليك" التي تضع على أظافرها طلاء لونه أحمر مثل الدم.

حزنت من أنني أشعلت الشمعتين في الكنيسة. فالجو في المرحاض مظلم، بينما الجو يغرق في الضياء خارج المرحاض والطيور تغرد.. اخترت أن أسمع تغريد الطيور فخرجت من المرحاض، واتجهت نحو الشجرة الصغيرة التي يقف عليها سرب من الطيور وكأنها صورة من الصين.

إنني في الصين. ينادوني من البيت حتى أذهب لتناول العشاء، لكنني لا أفهم اللغة الصينية. لذلك سأبقى.

بقيت أنظر إلى أغصان شجرة الكستناء اللامعة، تشبه فمي "زلاتوشكا" و"مارجريتا" الصغيرين. أشجار الحور تصدر حفيفاً في الهواء مثل أوامر جدتي. توجد تحت شجرة التفاح سبعة أكوام من التراب حفرها حيوان الخلد لحجره. واختبأت إثنى عشر جوزة بلوط تحت أحد النعال. لحاء ثمرات البلوط متصدع، وتظهر من خلفه بشرة تبدو مثل ثمرات الكستناء المشوية بطريقة رديئة. فاحمرت في الهواء وتصدعت. استدارت جميع رؤوس حبات الجوز نحو الأرض لتصبح بذور نابتة. مررت يدي على ثمرات الجوز وأنا أشعر بالحرية التي تتمتع بها، وبقيدها الذي يربطها كذلك بالأرض. إنها تبدو مثل الأطفال وأبويهما. أشعر بقوتها وضعفها. أما رأسها المقطوعة فهي تمثل المدرّسة.

عدت إلى البيت ووضعت مجلة الموضة تحت الباب.

إن فلسفتي هي الحياة. كل ما يعنيني هو الاستمتاع بها كما يجب. أما جدتي فتقول إن هذا حماقة. لا أعرف لماذا يعتبر بعض الناس الاستمتاع بالحياة حماقة.

إن فلسفة أبي هي الحياة في الظل، خلف السياج الذي عليه أن يتجاوزه سواء أراد أم لم يرد. ليس هو وحده. أنا أيضاً أقفز من فوق السور، أو بالأحرى أتسلل من بين الأحجار المتهدمة، أما أبي فيخرج من البوابة الرئيسية. شيء ما يقوم به في "المجر". إنه يستدعون جنود الاحتياط لإجراء مناورات.

تقضي جدتي أوقات فراغها في مساعدة أمي. تصيح من عند الباب مستنكرة شكل أمي وكأنها لا تعرف أن شعرها قد تساقط بعد مولد التوأمين.

"هذا السافل، الحقير!"

ثم تبحث في حقائبها الأربع. إنها مثل القائد العسكري الذي قرر أن يضمن لنا الصحة. تصدر الأوامر لتقرر من سيتناول أية أعشاب، وبأية طريقة سيعالَج. تعد الضمادات والصبغة والمراهم. عصائر تعطيها لنا بالملعقة، وتضع الشاي في الأكواب. أحاول أن أعترض ألا آكل بسبب المدرسة، وإلا لن أتمكن من غسل فمي. لكن الإجابة هي استهجان جدتي مما أقول.

في البداية تضم شعر أمي، ثم تدلك بشرتها بمادة مستخلصة من أوراق البتولا وبقلة الخطاطيف وبعض من نبات القراص الذي تعتبره جدتي إكسير الحياة. تقول إنه ينظف الجسم ويقويه ويفرغه من الأمور الضارة. نشرب كميات شاي القراص. يختفي بعدة الطفح الجلدي من على بشرة "ماريانا" وتختفي الاكزيما من على التوأمين وينبت رأس أمي.

إن جدتي عندها دواء لكل داء. عندها عصير أبيض بلون الذهب لعلاج الاضطرابات في جمهورية المجر. وفي كل مساء تتناول منه كوب صغير قبل النوم. إن العلاج يشعرها بالسعادة. كذلك أبي قد يشعر بنفس السعادة إن كان يعاني من مرض الاستسقاء أو ألم النسا أو تقرحات في العين. لكنه معافى تماماً مثلي، لذلك لن نحتاج إلى جدتي أبداً.

أخيراً خرجت من البيت. ألوان متعددة تتلألأ في وقت الأصيل: البرتقالي، والأصفر، الفاتح، والبنفسجي المائل للاحمرار على خلفية خضراء داكنة. إنها صورة الحديقة التي توجد في كتاب خالي "ميشو". إن الحياة تتكون من نفس الألوان. يطغى في كل لحظة لون على الأخر. لكل لحظة لون مختلف. تناغم متنوع الألوان أو رعشة مكتومة، صرخة وكأنني أرى زميلتي في الصف الثامن "بولجوفا" وهي تُولَد. تداخل وتشابك في ظلال عيني المدرسين المتأرجحة. لكن ماذا

عن "بولجوفا"؟ وماذا عن الباقين الذين يُأمرون أن ينظروا إلى تنورة ملونة بلون وحيد يؤكدون عليه؟

كل ما لاحظته هو أن خالي "ميشو" يرى الحياة على نحو مختلف. وكذلك تفعل جدتي ومدرستي أيضا. تأمرنا بما أمروها به. ولا ترى إلا ما تريد أن تراه.

"هل علقتم صور الحمَام على النافذة ؟"

"نعم".

لا تسأل عمن لم يعلق الحمام، ولا عمن ينعتوه في البيت بأنه يشبه الديك، ولن يذهب مع أية حشد في الشارع الذي نقيم فيه ليرى ديكي هذا. إن أول شهر مايو وقت مناسب لأن نعزق الحديقة. علقت على النافذة صورة ضفدعة الشجر التي أرسمها أفضل من أي شيء آخر.

أما "ليليانا" فعلقت على النافذة ضفدعة عادية، فاشتكاها "بيكيش" الطالب المثالي.

فتساءلت المدرسة قائلة: "وماذا يمكنها أن تعلق غير الحمام؟"

كدت أعترف بحبي للضفادع، لكن المدرسة كانت قد التفتت نحو السبورة. فهمست لـ"دانيسا" قائلة: "إنها ضفدعة الشجر!"

"ماذا تقولين؟"

"إنها ضفدعة الشجر، علقتها هناك لحبي للضفادع."

إن الحب سر من الأسرار. يكمن في لحاء ثمرة التفاح مثل البرقة. عندما تقضمينها، تشعرين على لسانك بشيء غير متوقع، تشكين في الأمر فتلفظينه وأنت لا تعرفين أنك قريبة منه..

همست "دنيسا" قائلة: "إن الحب سر ، إنه تفاحة أو برقة".

obeikandl.com

أورشولا كوفاليك

Uršuľa Kovalyk

من مواليد ١٩٦٩ ممثلة مسرح، وأديبة أدب النساء. تخرجت في كلية العلوم الاجتماعية، وتهتم في الوقت الحاضر بقضية أطفال الشوارع. قامت بنشر جزء من إنتاجها القصصي في مجلة "أسبكت" في الفترة من ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ ، وفي مجلة (القصة) عام ٢٠٠١. كما كتبت المجموعة القصصية (السيدات الخائنات لا تضع بيضا) عام ٢٠٠٢ ، تبعتها بمجموعة (محاكاة) عام ٢٠٠٤، ثم قامت بكتابة عملين مسرحيين لمسرح المشردين - الأولى هى "المفتاح الدامي" ٢٠٠٥ والثانية "أوكتاجون" ٢٠٠٦. أصدرت في عام ٢٠٠٨ أولى رواياتها "امرأة مستعملة".

ظهرت منذ البداية كأديبة جريئة لديها رؤيتها الخاصة، تجيد التعبير عنها بأسلوبها المتميز. وكما تقول عن نفسها أنها لا تعنيها آراء الآخرين في كتاباتها النثرية حيث أن كتاباتها دائماً ما تكون مثار جدل. يمثل النثر لها فراغاً حراً تحقق فيه ذاتها. أظهرت المجموعة القصصية (محاكاة) شخصيتها الأدبية المستقلة بصورة كاملة وواضحة كما برهنت على أسلوبها المتميز وآراءها الفريدة في الحياة.

obeikandl.com

شجرة المشمش

حطت فراشة صفراء سعيدة على وشاح أحمر فوق رأسها، تاه وسط شعرها الأشيب. تناولت السيدة "بريسكا" من يدي دلواً صغيراً، وألقت برواسب القهوة على الشجرة. رحت أتابع بقايا قهوة الصباح وهى تتسرب إلى التربة، بينما وقفت الفراشة برشاقة على الأرض، وهى تتذوق الطين الرطب المفعم بطعم القهوة. علّقْت قائلة: "أرجو ألا تصاب بنوبة قلبية من هذه القهوة". لكن السيدة هزت يدها، وراحت تصب الماء على شجرة المشمش، التي مر على وجودها في حديقة البيت ما يقرب من قرن من الزمان. تبلغ السيدة "بريسكا" من العمر أربعة وثمانين عاماً، شعرها فضي رائع. تقيم في شقة بالدور الأرضي بها حديقة صغيرة، محاطة بسور حجري ضخم. رغم أنها بلغت أربع وثمانين عاماً إلا أنها مازالت تعزق نباتات التيوليب الخشنة، والسوسن البنفسجي، والكوبية الوردية التي تشبه حبات السكر. "تعجبها دائماً القهوة وأغاني "ألفيس". علقت السيدة، ثم توجهت ببطء نحو باب الشقة المظلمة لترفع صوت مشغل الاسطوانات. جاء وقع أغنية "I got a woman" وكأن نسيماً قد هب، فجعل أغصان الشجرة تهتز. كانت السيدة "بريسكا" من محبي "ألفيس بريسلي". ولولا التجاعيد المنتشرة على وجهها وشعرها الأشيب لاعتقدت أنها صبية مجنونة، ترتدي فستاناً مرقطاً صنعته شركة "ديور" في الخمسينات. كانت تسمع ملك "الروك اند رول" كل يوم. كما كانت تغني لأزهارها بصوتها الأجش عصر كل يوم من أيام الصيف الطويلة. كانت شقتها ممتلئة بأشياء بسيطة تحمل صورة "ألفيس"؛ وعاء السكر، والكؤوس، والتماثيل، والأطباق، وحتى فرشاة أسنانها تحمل صورته. لم تستخدم هذه الفرشاة يوماً ما. بل وضعتها في خزانة العرض في كأس زجاجي. راودني شعور بأن "ألفيس" قد غسل بها أسنانه منذ قليل. قالت وهى تحسس بيدها على قماش من الجوبالين، طبعت عليه صورته بالحجم الطبيعي وهو يمسك ميكروفوناً في يده: "إنه توأم روحي". وأضافت وهى تومئ بيدها بإشارة لتوحي بأنها ليست مجنونة: " لولا المحيط الكبير الذي يفصلنا لكنا التقينا، لكن لا أحد يرغب في أن يعبر الأطلسي".

كانت السيدة "بريسكا" من أكبر سكان بيتنا سناً. لا يكبرها سنا سوى شجرة الفاكهة التي توليها رعايتها. كانت وحيدة. سلبها القدر أخواتها، ونبتت أزهار البنفسج على قبور صديقاتها منذ زمن. كانت تعرف تاريخ كل شقة بالمنزل؛ تعرف صاحبها، ومتى أقام فيها، ولماذا تركها. كانت تتذكر المكائد القديمة وحكايات العشق التي قد محا النسيان صورتها من الذاكرة. قالت وهى تشير إلى الشجرة القديمة،

وقد بدت ذقنها كصور العرافات في كتب الحكايات الخيالية: "لم يبقى سوى أنا وهي". لم تعد تعطى ثماراً وفيرة منذ سنوات. غير إن السيدة "بريسكا" قامت برعايتها على أفضل وجه، كانت تهذبها، وتعزق الأرض من حولها، وتضع لها السماد. كانت تأتي بوصفات جديدة كل يوم، وتجهد نفسها في البحث عنها، وتتذوق باستمرار ثمارها الرائعة التي لا توصف. "لا يمكن أن تفهمي الأمر ما لم تتذوقي هذه الثمار. إنها نوع نادر. أحضرها شيخ تركي كهدية للآنسة "ارجيكا". أحضرها من اسطنبول نفسها! كانت الآنسة "ارجيكا" تسكن في الطابق الثالث وذات مرة وقع هذا التركي في غرامها أثناء علاجه، وكما ترين، لقد ذهبوا جميعاً وبقيت شجرة المشمش... تنبض بالحياة"!

كانت السيدة "بريسكا" ترعى هذه الشجرة حتي في هذا الصيف الغريب، الذي حلت الأمطار محل الحرارة المرتفعة، وراح كل شيء ينمو ثلاث مرات أكثر من ذي قبل، ولم تجد الوقت الكافي لتهذيبها. كانت الحديقة أشبة بالأحراش الاستوائية. نمت الحشائش حتى بلغت الأذرع، بدت أزهار الكوبية الوردية الآن كمصابيح الشوارع المضيئة في وضح النهار. أحضرت للسيدة "بريسكا"في صباح شهر يوليو الكمية المعتادة من بقايا القهوة. إنها رواسب تجمعت على مدى أسبوع، وتخمرت في قاع دلو بلاستيكي أحضرته لها وأنا حافية القدمين من الطابق الثاني. قالت السيدة بريسكا: "لم يعد هناك حاجة للقهوة". شعرت في ثنايا كلامها بسعادة غامرة. جاء صوتها مضطرباً، وتطاير من عينيها شرر كاد يحرق قدمي الحافيتين. وقفت في الحديقة متباهية، وأشارت إلى شجرة المشمش وكأنها تقدمها لأحد أو تقودها إلى صالة المجد، وقالت بشكل احتفالي: "سأقوم بطهي ثمار المشمش"، ثم وضعت في يدي ثمرة صفراء مائلة للاحمرار، وأضافت: "تذوقي!" دفعتني برفق عندما رأتني أنظر ببلاهة مرة إلى يدي، ومرة إلى الشجرة. كانت الشجرة مثقلة بالثمار حتى أعوجت، وانتشرت على الأرض من حولها ثمار المشمش المتساقطة والتي تسللت إليها الديدان بالتأكيد. "غير معقول!" هكذا صحت، ثم قضمت الثمرة الطرية. سائل حلو سال منها جعل لعابيَ يسيل فأخذت أرتشفه. صاحت السيدة "بريسكا" مبتهجة: كيف هو طعمها؟ انطقي!". حاولت متشككة أن أصف طعم الثمرة الغريب وقلت: إنه مثل، مثل... الأناناس المخلوط بالفانيليا". صاحت السيدة قائلة: وجدتها! وبحركة نشيطة انطلقت إلى داخل الشقة، وأشعلت اسطوانتها المفضلة. ارتطم صوت "ألفيس" العميق بجدار الحديقة، علا صوت الجيتار، وأصاب قطة متسكعة مخططة بالهلع. قالت "بريسكا": "إن أغنية "blue suede shoes" تضخ الدم في عروقي. خذي هذه واذهبي لتشتري لي

عشرة كيلوجرامات سكر!". ثم وضعت في يدي النقود. وبينما أنا أنصرف راحت العجوز ترقص رقصة بدت لي من بعيد كرقصة الروك.

على مدى شهر كامل راحت رائحة مربي المشمش تتسلل من النوافذ إلى شقق البيت، وتسيطر على أنوف الجيران الذين يصعب إرضائهم. سال لعابهم على السجاجيد وهم جالسون أمام التلفزيون. ليكير المشمش، شرائح المشمش المطبوخ، زبد المشمش، المشمش المجفف، كريم المشمش... رحت أحمل من المتجر أطناناً من السكر، ومازلت ثمار شجرة المشمش في ازدياد. أغصان الشجرة تئن كل يوم بحمل من الثمار الطازجة بينما تقوم السيدة "بريسكا" بتخزين الثمار المطبوخة حتى وصلت الحمام. "ألا تريدون مشمش؟". هكذا راحت السيدة في عرض المشمش على جيرانها الذين هزوا رؤوسهم بالرفض. راحت الثمار تتساقط على الأرض، وتتعفن، وتتخمر، بينما السيدة "بريسكا" تجتهد في العمل. قلت لها مساء أحد الأيام وبعد مرور أيام أحمل إليها السكر بانتظام : "إنه أمر غير طبيعي!". دست "بريسكا" يدها في حوض صغير للأطفال ملئ بثمار المشمش المهروسة، ثم ابتسمت كالمجانين وقالت: "لقد توصلت إلى وصفة رائعة لعمل شامبو من المشمش، يقال إنه يجعل الشعر ينمو بطريقة غير طبيعية". نظرت إلى شعر "بريسكا" الأشيب الذي طوته على شكل عقدة ضخمة، وقلت لها: "يجب أن تكفي عن طهي هذا المشمش وإلا ستصابين بالجنون!". هزت رأسها بتحد، وقالت: "انظري إلى الشجرة يا عزيزتي!" كانت شجرة المشمش مدججة بالثمار. نمت في كل سنتيمتر مربع كرات مخملية صفراء مائل للاحمرار، وراحت تزاحم الأوراق. بدت الشجرة مثل كعكة المشمش التي أذابتها الشمس. تحللت من حولها كيلوجرامات أخرى من الفاكهة الحلوة. راحت الدبابير تحوم حول المائدة، ووصل طنينها إلى آذان سكان البيت. فنبا جنب "السيدة "بريسكا" عن الفراش، وعلى غير العادة أشعلت أغنيات ألفيس بصوت أعلى وراحت بلا كلل تجمع الثمار وتطبخها. وفي الصباح تجد المزيد منها على الأغصان. أثارت رائحة المشمش معدتي، فترددت على الحمام أتقيأ. لاحظت أن يدي التي كانت تلامس ثمار المشمش قد تغيرت. تمددت بشرتي وصارت ناعمة، صارت مثل يد الأطفال الناعمة، صارت خالية من التقرحات والبقع. حتى السيدة "بريسكا" تغيرت فجأة هي الأخرى. اختفت التجاعيد من على وجهها. غطى شعرها الأشيب شعر آخر أسود، وصارت أصغر من عمرها بعدة سنوات. تتحرك بنشاط في أنحاء الحديقة وعلى إيقاع الموسيقى وهي ترتدي فساتين غريبة منقطة. بدت كفتاة في المدرسة الإعدادية. قلت لها في يوم من الأيام "لن أشتري لك سكراً بعد اليوم يا سيدة "بريسكا"، يجب أن تفعلي شيئاً حيال هذه

الشجرة. انظري إلى نفسك! لقد صار الأمر خطيرا". ضحكت كالمجانين وقالت "من اليوم ناديني "بريسكيلا". نخرت كالخنزير وراحت تتناول كمية أخرى من مربى المشمش التي تقرقر فوق الموقد. "أشعر أنني أصغر من سني بمئة عام، أخير لم تعد قدماي تؤلماني" ابتسمت، ورقعت بيدها الملطخة بمربى المشمش صوت المشغل القديم. انطلق وسط فوضى عمت المطبخ صوت إحدى مقطوعات موسيقى الروك الأكثر صخبا. جعل صوت موسيقى "jailhouse rock" زجاجة المشمش المطهي تتراقص. أصدر الزجاج أزيزاً، وراحت "بريسكا" أثناء الرقص تفصل البذر عن الفاكهة. صحت وأنا أحاول أن يعلو صوتي فوق صوت الموسيقى: "أمر لا يصدق، يجب إبلاغ المختصين بالأمر". لكن السيدة "بريسكا" لم تعطي اهتماماً لما أقول، وراحت منتشية تقذف بثمار المشمش في الهواء على طريقة المشعوذين. لم تعد السيدة "بريسكا" التي أعرفها. لم تعد وحيدة. فجأة أصبح صندوق بريدها ملئ بالمراسلات. كانت تتلقى رسائل احتجاج، يطالبها فيها الجيران بالحفاظ على الهدوء أثناء الليل واحترام خصوصيتهم. راحت هي تنظم أمسيات غريبة لكبار السن، وتقدم لهم فيها المشمش بالكحول. التقيت عندها بأناس مسنين غريبي الأطوار. شعورهم مسدلة للخلف. بدوا كالممثلين في الأفلام الأمريكية. أحدهم يعزف في منتصف الليل على الساكسفون موسيقى "blues". همست "بريسكا" بطريقة تنم عن مؤامرة "هؤلاء هم أصدقائي الجدد، أنا أحب كرات المشمش جداً". نظرت ذات مرة من النافذة ورأيت "أصدقاءها الجدد" يلهون في حمام سباحة من البلاستيك مخصص للأطفال. كانوا يتمرغون في عجينة من المشمش، عراة كما ولدتهم أمهاتهم.

حذرتها بيأس قائلة: "سيدة "بريسكسلا" أرجوكي على الأقل لا ترفعي صوت الموسيقى عالياً، وإلا سحبت منك أهليتك". لكنها طأطأت رأسها، وقالت بحرص "ألا يمكنني أن ألهو قليلا؟"

كنت خائفة عليها. التغيير في سلوكها، وظهور علامات صغر السن بشكل غير طبيعي والضحك الجنوني، جعلني أعتقد أن السيدة "بريسكا" تتعرض لاضطراب عقلي. كانت عندما أتوسل إليها وأقول: "توقفي عن طبخ المشمش من فضلك!" تدس في فمي حبات المشمش. راودني في الليل حلم غريب. وقفت في حديقة السيدة "بريسكا"، وشعرت أن جسمي يكبر ويتورم حتى صار كالكرة الضخمة. اختفت يداي وقدماي، ورحت أتدحرج نحو زهور التوليب المشعرة. فجأة انفجر جلدي، وسال من المكان الذي به سرة بطني سائل أصفر غريب. استيقظت على شعور رهيب بالاشمئزاز. العرق فوق الملاءة، وهاجس غريب دفعني بأن أستيقظ وأذهب إلى السيدة "بريسكا". كانت شقتها مفتوحة وخالية. كانت الموسيقى تعزف في

الغرفة المليئة بأشياء تحمل صورة "ألفيس". نغمات أسبانية حزينة تتطاير بين الزجاجات المصطفة من المشمش المطهي. صوت ناعم يغني "love me tender, love me sweet"، شعرت أن "ألفيس" يقف عن قرب في المطبخ ويغني لها خصيصا. ذهبت إلى الحديقة حيث تضئ مصابيح السيدة "بريسكا"، والقمر المكتمل يبدو كأقراص "سيلاسكون" الوردية الفوارة. كانت السيدة "بريسكا" تقف عارية تماماً في وسط هذا الضوء الأصفر. يتدلى شعرها الأسود الطويل على ظهرها العاري وكأنه نهر متدفق. شعرت بأن جلدها يهتز على جسمها؛ وكأن نمل يتحرك من تحته. ناديت عليها "بريسكيلا!"، لكنها لم ترد. وفجأة بدأت ترقص وتتهادى على أنغام الجيتار، وهى ترسم بيدها في الهواء خطوطاً وهمية، وتهز خصرها منتشية. استدارت، فتسمرت عيناي على صدرها الغض البهيج الذي راح يتمايل على إيقاع الموسيقى. أغلقت عينيها بإحكام، وبدت على وجهها علامات من يستعد للقفز من الطابق الثامن. أحسست بقشعريرة في يدي، وبعقدة في لساني. راحت السيدة العارية ترقص وهى تتحرك ببطء نحو شجرة المشمش. فجأة بدأت تتقلص وتملأ جسدها التجاعيد، واختفت نهائياً قبل أن أصل إليها. امتصتها شجرة المشمش في نفس المكان الذي كانت تسكب فيه بقايا القهوة. وكذلك اختفت ثمار المشمش من على أغصان الشجرة، ولم يبقى عليها سوى لحاء أسود جاف وكأن حريقاً دب فيه. لاحظت أن شيئاً ما يزحف على جسمها. اقتربت منها، فرأيت آلاف الفتيات الصغيرات تجلسن، وتمسكن بأرجلهن أغصان الشجرة. كانت ترتدين فساتين مرقطة من صنع "ديور" من فترة الخمسينات. رحت أنظر إلى النماذج المصغرة من السيدة "بريسكا" التي كانت تضحك من شيء ما. لمحتني إحدى هذه النماذج، وأشارت على بإصبعها، فسكتت الفتيات.آلاف من الأعين راحت ترشقني بنظراتها. فسال عرقي خوفاً وهلعاً. تلجلج لساني وأنا أقول لها: "سيدة بريسكا، ماذا حدث لكي؟" رسمت على وجهها ابتسامة خبيثة، وقالت: "أنا لست بريسكا". جاء صوتها وكأنه صدى راح يتردد بلا توقف. علت أصوات وجوه السيدة "بريسكا"، واختلطت بصوت أغنية "ألفيس". صار الصوت نشازاً لا يحتمل. شعرت بألم. لطخ الدم المتدفق من أذني ملابسي باللون الأحمر وثمار المشمش تلوح لي وأنا أهرب في هلع.

عرض ترافستي

انتشرت أصوات أجراس الكنائس في الهواء، وتسللت إلى الغرفة عبر نافذتها المغلقة. راحت تدوي في أذنها وتجلجل، حتى أجبرتها أن تفتح عينيها. كانت الشمس تسطع في كبد السماء، وامتلأت الغرفة التي مازالت غارقة في أجواء الصباح بالزهور المجففة، والفساتين، والصور المثبتة خلف إطار مرآة ضخمة. نهضت "ايلينا" من السرير. لقد أصابتها حفلة الأمس بالإرهاق الشديد. شعرت بأنها سلبتها عشرة أعوام من عمرها. راحت تفكر في القناع الذي ستضعه على وجهها اليوم حتى يحسن من مظهرها.

لم تكن "ايلينا هوراتشكوفا" تغادر سريرها قبل الساعة الثانية عشر. فنمط حياتها جعل ليلها طويلاً حتى التهم وقت الصباح المبكر. لم ترى شروق الشمس على مدى ثلاثين عاماً. لم تسمع غناء طيور الصباح، ولا هدير عجلات عربات القمامة. لبست خف به كرة بيضاء تشبه أذن أرنب. أعدت القهوة، ثم جلست بتلقائية على مقعد وثير. وضعت السكر في القهوة، وهامت بأفكارها في المجهول. كانت "ايلينا هوراتشكوفا" نجمة. كانت تذاكر حفلاتها يوماً ما تنفذ بالكامل . ازدانت كل أغلفة المجلات بصورها. جيوش من المعجبين يرسلون إليها خطابات العشق والإعجاب. كان صوتها المميز يتردد في كل محطات الإذاعة، وصورها تباع بالكيلوجرامات. شاركت في جميع العروض الموسيقية، وبرامج أعياد الميلاد. كانت مركزاً لصناعة الموسيقى، معبودة الجماهير التي يتودد إليها الجميع، ويدللونها، ويكرهونها في نفس الوقت. كانت على قناعة بأن الأمور ستظل هكذا إلى الأبد، وأن نجمها سيظل يعلو ويلمع إلى الأبد، وستبقى سيرتها تجوب الآفاق إلى الأبد. غير أن ظهورها في التلفزيون تقلص في السنوات العشر الأخيرة، كما تصفها هي بأنها سنوات لعينة، وأقصى ما تقوم به هو إقامة حفلة موسيقية يتيمة سنويا. توقفت خطابات المعجبين التي كانت تحمل مشاعر الحب والإعجاب. اعتقدت في أول الأمر أن أنها حالة مؤقتة، وأن نجمها أفل إلى حين. وأن ما يحدث ليس سوى خطأ سرعان ما سيتداركه الآخرون. لكنها عندما وقفت ذات يوم أمام المرآة مجردة من زينتها، مرتدية روب الحمام الملفوف حول جسمها، وعيناها المنتفختين أدركت أن أترابها شابت.

لم تفكر في الشيخوخة يوماً ما. لم يكن هناك ما يدعوها لذلك. ففي عالم النجومية لا مكان للحديث عن الشيخوخة حيث يباع الجمال والموهبة والأداء. كانت تسمع لسنوات الكثير من المديح عن جمالها وروعتها ومظهرها الرائع. فاعتادت على ذلك حتى اعتبرت أن كلمات الثناء ما هي إلا تحصيل حاصل. غير أن عبارات المديح

تقلصت وعروض العمل صارت في تناقص مستمر. وعندما أبلغها وكيلها الموسيقي يوماً ما بأن تعاونهما معاً قد انتهى، متعللاً بأن المغنيات اللاتي تشدون أغاني عاطفية عن الحب قد انحطت رتبهن، عندها أدركت بأن العالم من حولها قد انهار. لم يكن الأمر يتعلق بالأموال. اكتشفت "ايلينا" أنها لا تعرف شيئاً سوى الغناء والرقص. أدركت أنها لا يمكنها أن تتعلم شيئاً آخر، وأن حسابها في البنك يتناقص يوماً بعد يوم. وراحت تقلب كفيها من الهم وهي تتخيل أنها ستبقى وحيدة، طاعنة في السن، منبوذة.

كانت "ايلينا" امرأة عاطفية. كانت دائماً تتخيل نفسها مع فتى أحلامها، ستلتقي به في غرفة تغيير الملابس بعد حفلتها الموسيقية. سيقوم بتطويقها بذراعيه ليحميها، راحت تنتظر الأمير القادم في سيارة "رولز رويس" بيضاء. رجل يتمتع بروح الدعابة، رقيق، وبالطبع ثري. عندما اكتملت هذه الصورة لديها، آمنت بها تماماً غير مدركة بأنها لم تلتقي بأي أمير في غرفة تغيير الملابس، بل بمعجبين سرعان ما تقربوا منها بمجرد أن فتحت لهم ساقيها، راحوا يستغلونها مادياً، ويعيشون على حسابها. وما أن يشعرون بأن الأمر صار جاداً يكونوا أثراً بعد عين. لذلك كانت "ايلينا" تنتقل من علاقة فاشلة إلى أخرى، وفي كل مرة تعتقد أنه الحب الحقيقي الوحيد. لكنه لم يكن كذلك يوماً ما. لهذا السبب هي تجلس الآن وحيدة على مقعدها الوثير الضخم، تضع أمامها القهوة المحلاة بسكر للحمية حتى تحافظ على وزنها، وتهيم بأفكارها في الخواء. تحيط بها فوضى تماماً كحياتها. نظراً لأنها كانت ذليلة النفس، فقد انزوت ودموعها لا تفارقها، من وقت لآخر تغني في حفلات خاصة، ينظمها أشخاص طاعنون في السن يدعون أنهم رجال أعمال. راحوا يقنعونها بعمليات تجميل تغير من شكلها، غير أن فكرة أن يقوم جراح بوضع مشرط في جسدها تصيبها بالقرف. كانت على قناعة أنه بمجرد أن يتدخل الجراح في جسدها سيجعله أسوأ. قد تتعرض عينيها للضرر، أو تتجمد شفتيها، أو يتعرض وجهها للتشويه. إن الحياة بدون شهرة لها إيجابياتها. فلم تكن مضطرة للهرولة أو الهروب، فكانت عندما تذهب لإلقاء كيس القمامة لا يشعر بها الصحفيون. لكن أحياناً، بالفعل نادراً ما تعرف عليها أحد معجبيها السابقين وهي تسير الشارع. كان في استطاعتها أن ترتدي الملابس الفضفاضة التي لا تساير الموضة، وكثيراً ما كانت تفعل ذلك. فلم تكن مضطرة إلى تعذيب قدميها بارتداء أحذية مدببة. تخلصت من مشدات الخصر وسراويل شد الجسم، والأهم أنها لم تعد تتبع حمية. لهذا نهضت الآن من مقعدها، وتوجهت إلى المطبخ، وقامت بإعداد فطورها المفضل؛ المكون من لحم الخنزير المقدد، والبيض، والخبز بالمربى، وكاكاو محلى، ثم تتبعه بكأس من

الآيس كريم. في زمن مجدها كان تناول مثل هذا الفطور يجعلها تشعر بتأنيب الضمير لمدة شهر على الأقل، وشهر آخر تقضيه في التمرين في صالة الألعاب. تناولت "ايلينا" كل هذا بنهم وهي تطالع خطابات البريد البعثرة على طاولتها منذ أسبوع. تلمظت بالطعام. عكرت فواتير الغاز الكهرباء من مزاجها للحظة، لكنها سرعان ما تجاهلت الأمر وتناولت المزيد من الآيس كريم.

لم يكن بريدها أية عروض، ولا حتى بيانات مهمة تذكر. مجرد إفادة عن حسابها من البنك، ومنشورات دعاية، ورسالة بيضاء وحيدة. قرأت عنوان المرسل الذي لم تكن تعرفه. اعتقدت أنه سيكون أحد المعجبين السابقين الذي يتعافى بالتأكيد من جراحة فصية بالمخ بما أنه لم يعلم بعد أن نجمها قد أفل بلا رجعة. فتحت الرسالة. يد ملوثة بالدهن تركت بقعة كريهة على الرسالة. كانت الرسالة تتضمن دعوة ذات لون وردي، وأحرف كتبت باللون الذهبي. يدعونها فيها إلى لقاء للخريجين بعد مرور أربعون عاماً على تخرجها. أصابتها الدعوة بالدهشة. فقد مر وقت طويل دون أن تتلقى أية دعوة من أحد. قرأت مرة أخرى تلك الأحرف الذهبية، وراحت تتخيل المدرسة الثانوية التي كانت تذهب إليها وزميلاتها في المدرسة، ومدير المدرسة الذي كان يوبخهن باستمرار. بدت صور زملائها وزميلاتها في المدرسة أمام عينيها كالطيف الباهت، كالزجاج العكر المثبت في الباب. حاولت جاهدة أن تتذكر وجوههم أو أسمائهم أو صفاتهم. لم تتمكن من تذكر أحدهما. يقول التاريخ المكتوب على الدعوة أن اللقاء سيتم اليوم في الساعة السادسة في مطعم "الأسد"، وهو محل متدني قليلاً في مستواه، حيث يقدمون فيه نبيذاً رخيصاً ولحم بقري رخيص. ترددت. لم تكن لديها الشجاعة الكافية للقاء أناس يذكرونها بشبابها، وتعود بذاكرتها أربعون عاماً إلى الوراء، وتجدد الذكريات التي تبدو لها الآن جميلة، لكن مؤلمة. راحت للحظة تجوب الشقة . تعثرت وهي غارقة في التفكير بجورب ملقى على الأرض. راحت تتحدث في نفسها عن مزايا وعيوب المشاركة. ثم راحت تكتب هذه المزايا وهذه العيوب على ورقة كما نصحها طبيبها النفسي. في خانة العيوب كتبت كلمات تتعلق بمظهرها بشكل أساسي، ووضعها المادي، وأقول نجمها. امتلأت خانة المزايا بالفضول، والوحدة، والملل، والعلاقات الاجتماعية الجديدة، وفارس الأحلام الذي طالما انتظرته. كانت الساعة تشير إلى الثالثة إلا ربع عندما اتخذت قرارها. رفعت من على الطاولة طبقاً كان الذباب يتطاير من فوقه. وبدأت تستعد للخروج.

توصلت "ايلينا" إلى حقيقة مفادها أن استعدادها للخروج في أيام مجدها كان يستغرق أربعة ساعات. ملأت البانيو بالماء، وألقت فيها

ببعض الأعشاب العطرية، ثم وضعت على وجهها ماسك لتغذية البشرة، ماسك أخضر كالسبانخ المتعفنة. ثم غاصت في الماء. كانت المياه تشعرها بالسكينة، وتحمل بطنها السمينة لتخفف عبئها عنها. تنهدت بارتياح، وراحت تغني واحدة من أغانيها القديمة عن الحب. فلم تكن تغنى سوى عن الحب أو الفراق. راحت تغني وطال بها الغناء على إيقاع قطرات الماء التي تتساقط من الحنفية. اعتدل مزاجها تماماً، وصارت على قناعة بأنها اتخذت القرار الصائب، حتى أنها راحت تتطلع إلى هذا اللقاء. بدأت تترائى أمام عينيها بعض ملامح وبقايا من أسماء زملاءها وزميلاتها التي لم تخطرن على بالها على مدى سنوات. "ازدينو"، نطقت الاسم بعفوية فجأة. طبعاً "ازدينو" زميل الدراسة الذي أمسكت به مسئولة الفصل وهو يغازل زميلته في حجرة تغيير الملابس في حصة التربية البدنية. اعتدل مزاجها أكثر بتذكرها "زدينو".

جففت "يلينا" جسمها بالمنشفة، وأزالت بقايا الماسك المغذي. وقفت أمام خزانة الملابس وهى تتفحص كل قطعة ملابس في الخزانة العامرة. أخرجت من الخزانة فستاناً كانت ترتديه وهى تغني في وقت من الأوقات، وآخر أحمراً مرصع بعملات ذهبية لامعة. به خيوط بنفسجية وأربطة على الخصر. تنورات طويلة، وبلوزات بها زهور، وأحزمة، وقباعات، وجوارب ناعمة. استمرت في البحث دون أن تستقر على ما سترتديه. في نهاية الأمر اختارت فستاناً عادياً لونه أزرق غامق يغطي بحشمة صدرها الذابل. عندما فتحت الروب لاحظت في المرآة صدرها الذابل. تذكرت ذلك الصدر الفاتن، وعلى الفور تعكر مزاجها، فحبسته في حمالة الصدر الصلبة. قامت بتعقل شديد بإخفاء تجاعيد وجهها، وتجاهلت أحمر الشفاه تماماً، وهو ما لم تكن تفعله في الماضي. وضعت القبعة على رأسها ثم دست الحافظة في حقيبة يدها وأغلقت الباب.

كانوا الجميع قد وصل إلى المكان. يرتدون ملابس باهتة تصيب الضجر. النساء ترتدين ملابس غير رسمية لا لون لها. كانوا مجموعة من البشر الباهتون، رؤوس صلعاء، ووجوه مسنة، وبطون منتفخة، زملاء وزميلات تعطروا بأنواع رخيصة من العطور. ايلينا!، ناداها رجل مسن، وتقدم منها. "لم نكن نتوقع قدومك!" هكذا صاحت سيدة وضعت مشبت للشعر حديثاً على رأسها. تذكرت "ايلينا" بشكل مشوش أنها كانت تحمل معها ماكينة لتنظيف الأسنان. لكنها ردت بحماس: "لا يمكنني أن أترك مناسبة كهذه تفوتني". قبلها الرجل المسن ولعابه يسيل. صاح العجوز بحماس: "ألا تذكريني؟" وقفت "ايلينا" وتسمرت في مكانها وراحت تفكر، من يكون هذا الرجل؟ لكن وجهه كمرآة خالية من أي ملامح. أنا "إيفان". كنت أجلس في

المقدمة بجوار الباب مباشرة. تظاهرت "ايلينا" وكأنها تعرفه وتعرف أين كان يجلس، وابتسمت له بود، وأضافت من باب الأدب: نعم، "إيفان، طبعاً أتذكرك..." ثم جلسوا عند الطاولة. راح الجميع يسترقون إليها النظر. سيدتان لا تذكر أسميهما ولا وجهيهما تتهامسان بسخرية.

موقف غير مريح. شعرت وكأنها تسير على الأشواك. هذا الصمت وهذه النظرات جعلتها تتسمر في مقعدها. لكن "ايفان" أنقذ الموقف وقال: "أيها السادة! لنشرب نخب لقاءنا!" ثم رفع الكأس، وشربوا نخب لقاء عقد بعد مرور كل هذه السنوات. تطايرت إلى أنفها رائحة نبيذ "فيرموت" الأبيض الرخيص. ألقى إيفان الكلمة الافتتاحية وتمنى أن يتكرر اللقاء وللجميع الصحة والعافية، وألا يغيب عن مثل هذه الأمسية أحد، وأن يسعد الجميع بها. وأضاف أنه سعيد أن يرى الجميع، وأن يرحب بضيفة الشرف؛ المطربة والنجمة المعروفة التي حرصت على الحضور رغم ارتباطاتها، النجمة "ايلينا هوراتشكوفا". شخص ما ضحك ساخرا. شربوا النخب. ثم بدءوا يحضرون الطعام والنبيذ. شعرت "ايلينا" بالندم على حضورها. راح رجل سمين يجلس أمامها يقلب فيها نظره. كانت تشعر بأنه يمزق بنظره صدرها، ويتحسس وجهها، ويقيم ويقارن حتى تفصد جبينها عرقا. جففت عرقها. ترك المكياج خطاً بنياً على المنشفة. قالت له بينما حبة من الحساء تسقط من فمها: "لا أستطيع أن أتذكر اسمك". قال الرجل السمين وهو يتأرجح في مكانه بقلق: "ازدينو!". راحت "ايلينا" تنظر في عينيه بإمعان، حقا، لقد بدأت تتعرف على ملامح "ازدينو" ونظرته المستفزة المليئة بالضحك. ابتسمت وقالت وهي تعني ما تقوله: "ازدينو!" كدت لا أعرفك. رد "ازدينو" وقال: "إنه بسبب هذا الكرش. لقد ذاد وزني بعد بلوغي الثلاثين، ومنذ هذا الوقت وأنا غير قادر على إنقاص وزني". التقط لحم الخنزير المقدد بيده بطريقة بشعة، وراح يهتز معه. شعرت "ايلينا" بالقرف، لكنها رغم ذلك شربت الحساء. وتناولت المزيد من الطعام حتى أنها لم تبقي في معدتها مكاناً للحلوى. قالت عندما دعتها زميلاتها لتناول حلوى صنعنها في البيت: "لا أستطيع". فردت عليها واحدة منهن: "هل السيدة المطربة تتبع حمية ما؟" فالتقطت "ايلينا" بغضب من طبقها أكبر قطعة حلوى، وقذفتها في فمها. وقالت لنفسها وهي تمضغ الطعام: "حيوانه!" راحت تتساءل، من تكون هذا السيدة التي ترتدي فستاناً مزركشاً وبذيئا. راحت تقلب فيها طرفها، وتتفحص كل سنتيمتر في ملامح وجهها حتى عرفتها، عندما رأت علامة بجوار أذنها تماماً. إنها "أولينا"، أعز زميلة لها أيام المدرسة، كانت تهزأ منها قائلة لها بأن لديها مفتاحاً كهربائياً بجوار أذنها. صاحت "ايلينا" من خلف

الطاولة: "أولينا!" أمعنت "أولينا" في الضحك وهى تقول: "أخيراً تذكرتي!".

ذهبت "ايلينا" للجلوس بجوارها وهى تقول: "اللعنة! "أولينا!" هكذا تغيرنا، أليس كذلك؟ حمداً لله أنك مازلت تمتلكين مفتاح الكهرباء هذا! وإلا لما عرفتك!". عانقتها، فشمت رائحتها المميزة التي كانت تفوح منها وهن يغيرن ملابسهن بعد حصة التربية البدنية؛ رائحة العرق الخفيف على بشرتها والتي تشبه الشيكولاتة بالمكسرات.

بدأت "أولينا" الحديث: "ماذا جرى لك يا فتاة؟ توقفت عن حضور لقاءاتنا، أعتقد أن النجمة الكبيرة لا تهتم بالناس البسطاء، لكنك اختفيت في السنوات الأخيرة ولم تعدي تظهري حتى في التلفزيون". لم يعد لي مكاناً بينهم. تعرفين كيف تسير الأمور في مجال الفن. اليوم أنت هنا، وغداً هناك. وأشارت بأصبعها إلى الأرض.

انفرط عقد الحوار مرة واحدة، وأخرجت السيدات صور أطفالهن، وأحفادهن، والبيوت، والأجازات، والكلاب، والقطط، والبيوت الريفية، والمقاعد الجلدية الغالية، والمقتنيات الفنية الثمينة. كانت "ايلينا" تستمع إلى الحكايات، وباتت على قناعة بأن الأمر ليس بهذا السوء. والأهم أنها ليست وحيدة. وضعت صورها مع المشاهير في حقيبة يدها. كان من الصعب الإجابة عن سؤال عن أطفالها وزوجها. قالت: "إن كل فرسان أحلامها كانوا مجرد معجبين". لم ترغب أن تتحدث عن ليالي الوحدة الطويلة وهى تتناول فيها الخمور، ولا عن الوحدة في غرف تغيير الملابس، ولا عن الشعور الزائف بالسعادة أثناء التصفيق الأخير عند نهاية العرض. راحت تسمعهن حتى منتصف الليل، حيث بدأ زملاءها وزميلاتها ينصرفون واحد تلو الآخر. لم يبقى غير "ازدينو" الذي مازال يرغب في السهر. مازحها "ازدينو" قائلا: "ايلينا! لا تكوني غبية، من يدري إن كنا سنكون على قيد الحياة في المرة القادمة". شربت "ايلينا" النبيذ الذي بدأت تستسيغ طعمه، ووافقت على الذهاب معه.

كان المكان الذي دعاها إليه ملئ بالسيدات اللواتي يرتدين ملابس غريبة، سيقان طويلة داخل جوارب فضية وسراويل لامعة. دفعوا رسم الدخول. أصيبت بالارتباك من أصوات الرجال التي تصدر من السيدات. أعلن مقدم الحفل عن مواصلة السباق من على منصة، بها أضواء خافتة. جلست مع "ازدينو" عند طاولة صغيرة. ضوء أزرق يصدر من مصباح صغير. سألته "ايلينا": "أين نحن يا "ازدينو؟" تظاهر بالغموض وقال: "سترين! إنها تسلية رائعة هنا رغم أن أسعار المشروبات مرتفع قليلا".

وصاح المذيع: "والآن سيداتي سادتي، نعلن عن مسابقة أفضل من يقلد "ايلينا هوراتشكوفا" في هذا العرض. أرجو من أعضاء لجنة التحكيم أن يتخذوا أماكنهم". جلس أعضاء لجنة التحكيم في أماكنهم. علت أصوات البوق. عكست الكرات اللامعة في سقف الحلبة بريقاً فضياً على الحاضرين. سألهم الساقي عن ما سيشربونه. طلبت "ايلينا" نبيذا مع مياه معدنية، فلم تكن ترغب في أن تثمل. ظهرت على المنصة ستة فتيات ساذجات على هيئة "ايلينا هوراتشكوفا". يرتدين جميعهن ملابس جميلة، وتشبهن تماماً الملابس التي تحتفظ بها في خزانتها. وضعن فوق رؤوسهن عصابات مرصعة باللؤلؤ، وزينة على أكمل وجه، ورحن يهزون مؤخراتهن. راعها ما تراه. اعتقدت أنها تحلم وراحت تمتم: "مستحيل!" سمعت صوت الموسيقى قادم من وراء الكواليس. أمسكت "ايلينا" الأولى بالميكروفون وهي ترتدي فستانا أحمراً تماماً مثل الفستان الذي بات صغيراً عليها، وبدأت الغناء. انتشرت أغنية "أجمل عيون" في الصالة مثل العسل اللزج. راحت المطربة ذات الفستان الأحمر تؤدي الأغنية تماماً مثلها، تتحرك مثلها، ترقص مثلها، تلوي شفتيها مثلها وتدعو بيدها المشاهدين للتصفيق. وبدأت حفلة المرح. صاح "ازدينو" ليوحي بأول تصفيق بالموافقة. صاحت "ايلينا" وهي تحاول أن يعلو صوتها فوق صوت الموسيقى: "أين نحن يا ازدينو؟" صاح في أذنها: "عزيزتي "ايلينا"، مرحباً بك في عرض ترافستي".

جلست ايلينا وراحت تشرب. تناوبت مقلدات "ايلينا" على المنصة واحدة تلو الأخرى. كن جميعهن تشبهانها قبل ثلاثين عاماً. يغنين أشهر أغانيها مثل "الخريف الملتهب العاطفة" و "ومازلت أحبك". يرتعشون بأجسادهم، ويقلدونها بالضبط. راحت تنظر إلى نفسها، وبدا لها الأمر سخيفا. انتابتها أحياناً رغبة في البكاء. وعندما لاحظ "ازدينو" تعبيراً غريباً على وجه "ايلينا"، قال: "كنت أعرف أنها ستكون مفاجأة لكي". تنهدت "ايلينا"، ثم قالت بعد لحظة: "يجب أن تعترف بأنني كنت رائعة". كانت تحسدهم على ما هم فيه. كان المشاهدون يستمتعون بوقتهم ويصفقون، وبعض العجائز منهم كانوا يغنون مع الفتيات المقلدات. كانت تحسدهم على هذا الإثارة وأجواء النجاح والمصابيح والملابس التي بدت فيها نحافتهن. انتابها شعور بأنها تشاهد عرض مسرحي عن شبابها الذي لم تتمكن يوماً ما من رؤيته، لأنها كانت دائماً على خشبة المسرح. ولم يكن الأمر جذاباً عند عرضه في التلفزيون. انتابها الحزن وهي ترى إحدى الفتيات تقلدها، وهي ترتدي فستانها الأسود المفضل وفتحت صدره الواسعة التي يضئ صدرها فيها، الصدر المنتفخ الرائع. جعلتها أغنية "أبدا لن

تكون لي" أن تتذكر أحد فرسان أحلامها – أحد المعجبين الذي كانت تحبه بالفعل في ذلك الوقت.

دمعت عيناها، فجفف لها ازدينو دموعها، ثم هم من على المقعد، واتجه نحو المذيع. همس له بشيء ما. أنهت الفتاة التي تقلدها بالفستان الأسود أغنيتها، وصاح المذيع الذي يرتدي حلة زرقاء لامعة قائلا: "سيداتي سادتي، يشرفنا أن نرحب بيننا اليوم بالنجمة والمغنية "ايلينا هوراتشكوفا" شخصيا". ومن جديد علت أصوات البوق. ارتبكت "ايلينا"، ونظرت إلى "ازدينو" بغضب ،وحاولت أن تبدو طبيعية. غير أن المشاهدين التفتوا يبحثون عنها. أشار "ازدينو" بإصبعه نحو رأسها مباشرة. تحولت هالة الضوء نحوها. استحثها "ازدينو" بعصبية وهو يمسك كتفها قائلا: "اذهبي إلى هناك، اذهبي!" تمتمت "ايلينا" قائلة: "لقد بالغت في الأمر". ثم نهضت من مقعدها وراحت تفكر وهى تسير في الطريق الضيق بين الطاولات في فستانها الغير لائق الذي ترتديه، وكيف أنها ليس في زينتها كما ينبغي، وهل أن هذا بالفعل ضروري الآن.

أخذت الميكروفون بيدها. قال المذيع شيئا للموسيقيين، وعلت من مكبرات الصوت أغنية "لا تتركني وحدي"، أشهر أغنية لعام ٦٩. جاء صوتها متهدجاً قليلاً. غير أن الأجواء التي اعتادت عليها، والجمهور جعلتها تتغلب على الخوف . شعرت من جديد بأنها عادت كما كانت. راحت تغني، وتغني. أغنية عاطفية عن الحب، وماذا غير ذلك؟ راحت الفتيات تتهادي بجوارها، انطلقت الموسيقى وابتسامة عريضة ملأت وجوه الجماهير. وبعد أن هدأت أعصابها تماماً لاحظت أن هناك نجوم يجلسون بين الجمهور: "ديانا روس" و "أماندا لير" وأعضاء فريق "أبا" بالكامل و ثلاثة من فريق "سوزي كواترو" ونجوم موسيقى آخرون لم تعرفهم على وجه التحديد. أدركت أنها لم تغنى من قبل أمام مثل هؤلاء النجوم. وما العيب في أنهم ليسوا نجوماً حقيقيين؟ شعرت وكأنها تزدهر في هذه اللحظة، ارتفعا ثدييها، واختفت التجاعيد من على وجهها، وصارت من جديد "ايلينا هوراتشكوفا" الشابة الجميلة النجمة المغنية. جميع النجوم المزيفون راحوا يصفقون. "دايانا روس" يرقص مع "أماندا لير"، أما هى فراحت تغني كما لم تغني من قبل، و"ازدينو" يصيح بين الجمهور. وعندما انتهت من الغناء شعرت بأن التصفيق الحاد الذي دوى بين الجمهور قد رفعها متراً من على الأرض. مررت يدها على الفستان الأحمر الذي ترتديه إحدى الفتيات المقلدات لها، ونظرت بإعجاب إلى ثدي "ايلينا" التي ترتدي الفستان الأسود. أثنت عليهن جميعاً وعلى محاكاتهن لها بطريقة رائعة، ثم عادت إلى طاولتها. تمتمت "لازينو" قائلة: "سأقتلك يا ازدينو!" في ذلك الوقت كانت

لجنة التحكيم تعلن نتائج المسابقة. هنأت "ايلينا" الفائزة، واستمرت حفلة السمر. رقصت مع "ازدينو" في الحلبة حتى الصباح. دقت الساعة الخامسة وهم يغادران المكان. قدماها تؤلمانها. الحافلات تقتحم بجرأة ضباب الصباح. يصل إلى سمعها غناء الشحرور. شعرت بالعرق على جسمها. ودوائر تحت عينيها تتدلى على وجهها. قالت لنفسها: "منظري بالتأكيد فظيع!" لكن هذا لم يعد يزعجها. تأبطت زراع "ازدينو"، لاحظت أن أزرار قميصه المنفلتة التي تفصح عن بطن بيضاء وأن شعره أشعث وسرواله معلق على منتصف مؤخرته. لم تشعر بالنفور كما كانت تشعر دائماً. بل شعرت برغبة ملحة بأن تدعوه في بيتها لتناول فنجان من القهوة.

opeikandl.com

السيرك

حل الظلام على "اليونورا" وهى تتجول في الشوارع. تحول الضباب الرطب الأبيض تحت الأضواء إلى ندى كثيف. سارت على مهل، تجرها قدماها إلى حيث لا تعلم، عبر شارع تضيئه مصابيح واجهات العرض في المتاجر. لم تكن تنظر إلى تلك الواجهات. نظرت إلى نقاط الضوء الملون المنبعثة من المصابيح النيون وهى تسقط على الرصيف المبلل؛ فتكون بركة صغيرة ملونة. الهدوء يعم المكان، والريح تصفر في هياكل الحديد التي أقامها العمال على واجهة بيت متهدم. يكشف وجه "اليونورا" في ضوء الواجهات الأزرق التي مرت به منذ قليل عن مدى استغراقها في التفكير. سارت على مهل، رغم أن دقات الساعة فوق البرج قد أعلنت الثانية صباحاً. واصلت السير وقد خلا الشارع من المارة، وانطفأت أضواء البيوت. كان مواء القطط بين الفضلات المبعثرة هى الإشارة الوحيدة على وجود حياة. إنها لا تشعر بجسدها، ولا ترى سوى شوارع خالية من المارة، ولا تسمع سوى وقع خطواتها التي تذكرها بطرقات كرة البينج بونج على طاولة خشبية. تصنع بخطواتها إيقاعاً منتظماً ومستمراً. لا يقطعه سوى احتكاك كعب حذائها بالرصيف. إن هذه الأجواء تبعث في نفسها الهدوء، ففيها تتشكل موسيقى تذكرها بانسياب مياه النهر الهادئ. الأمر يختلف أثناء النهار. ضجيج المارة في الشارع يصيبها بالعصبية، فالصوت الذي يصدر من أحذيتهم صوت فوضوي ومزعج. يرتطم بطبلة الأذن، ويبعث على الضيق. في مثل هذه الحالات تصم "اليونورا" أذنها وتضيع خطواتها وسط صخب المارة. ينتابها شعور بأنها غير موجودة، وأنها مجرد شبح، اعتقد أنه فقد توازنه وصار مجرد مخلوق لا ملامح ولا هوية له. لذلك هى تكره الشوارع المزدحمة المشحونة بالهرولة والضجيج. وتذهب من حين لآخر للتمشية أثناء الليل فقط.

جاوزت حدود المدينة. تحول الرصيف الأسمنتي إلى حصباء مبعثرة على طريق أبيض كالثلج يقود إلى منتزه كبير. الظلام يعم المكان، ويحجب سواد الليل الرؤية، كعين الضرير. لا يوجد ضوء واحد مشتعل سوى ساعة "اليونورا" التي يصدر منها ضوء أزرق كلما يتجاوز المؤشر نصف الساعة. الظلام ينتشر كالفقاعة الضخمة وهى تسير نحو المنتزه الغارق في الضباب. يغوص حذائها في الحصي المبلل. كانت "اليونورا" تعرف أن الطريق يكشر لها عن أنيابه غاضباً. يريد أن يلتهم نعل حذائها مقابل إزعاجها له. صارت الساعة الثانية والنصف. ابتسمت وهى تغوص بقدميها بشكل أعمق في الحصي، والرصيف يقاوم بصلابة. راحت قدماها تتعثران وكأنهما تعرفان.

ترددت أصداء أغنية حزينة في المنتزه، والريح يهز أغصان الأشجار ويصدر نحيباً. إنه أنين الألم. يشبه صرخة من يواجه الموت. لكن "اليونورا" لا تشعر بالخوف. ربما شعرت به لو كانت تهتم لأمر نفسها. لو أنها أحبت نفسها ولو قليلاً. إنها لا تشعر بشئ حيال نفسها. بل تشعر بالدهشة وهى تنظر الى نفسها في المرآة. ياله من قلق قد يصيبها إن راحت تشعر بشئ حيال جسدها وأعطته عنايتها. وكأنها ظهرت فيه على سبيل الخطأ، فهي تطعمه وتغسله بعناية وكأنها ترعى ماكينة غريبة تقيم فيها، ماكينة جائتها في أعياد الميلاد على سبيل الهدية. أحياناً تتحسسه للتأكد من أنه لم يختفي في مكان ما... وتصاب بالدهشة عندما تصطدم بجلد دافئ وجاف. تقول لنفسها أن عليها أن تحبه أكثر من ذلك، وأن يكون له مكانة عندها.

لكنها لا تستطيع. ما يهمها هو وقع خطواتها في الشوارع الخالية من المارة. بدأ المطر الخفيف يتساقط. الأشجار الصغيرة في المنتزه تزداد سواداً. مرت بأيكة. تركت الحشائش التي تخطو عليها وحلاً خفيفاً على حذائها. كانت قد اقتربت من نهاية المنتزه بينما لمحت بافطة نيون خافتة تقول "السيرك" بدون اسم له. كان ضوء مصباح النيون أحمرا. لا شيء آخر سوى كلمة **سيرك**. توقفت "اليونورا". توقفت الحشائش كذلك عن لعق حزائها. كانت تسمع صوت المطر وهو يتساقط على المواد الصلبة. يقف عند مدخل السيرك مهرج صنع من مادة صناعية. وجهه أبيض وفمه أحمر كبير، يتكلف الابتسامة وسط الظلام. اقتربت منه "اليونورا". عينان المهرج عبارة عن فتحات لإلقاء العملات الفضية. ميزان على ما تعتقد. بحثت في جيبها على بضعة قطع معدنية وألقتها في عين المهرج. أومأت عيني المهرج وأصدرت صليلاً ثم أومضت بضوء بنفسجي، وانفرج باب الدخول فدخلت.

إنه سيرك عجيب مختلف عن ذلك السيرك الذي كان والديها يأخذونها إليه. إنه مجرد حلبة هائلة مفروشة برمل فضي ولا وجود لعازفي موسيقى ولا جمهور. ولا يضيئه سوى مصباح وحيد أحمر اللون. الحلبة خاوية . شدت من فوقها سلاسل وحبال. انطلقت "اليونورا" تسير في الحلبة. رمل الحلبة يشعرها وكأنها على شاطئ البحر. خلعت حذائها ومعطفها. راحت قدماها تغوصان في الرمال الفضية وهى تتنهد بسعادة، ثم سمعت صوت امرأة قادماً من مكبرات الصوت.

مرحباً بك في السيرك الليلي! رجاء الاسترخاء وخلع المعطف والتريث. يجب الالتزام بجميع تعليمات الأمان. يمكنك أن تختارين واحداً من هذه العروض. ترويض الحيوان المفترس، القفز على الحبال، القطع بالسكين أو ابتلاع النار. كان صوتها هادئاً. صمتت لحظة ثم

كررت العرض من جديد. راحت "اليونورا" تفكر في العرض الذي ترغب في مشاهدته، وسرعان ما قررت. فصاحت: ترويض الحيوان المفترس. عزفت الموسيقى. في الواقع لم تكن موسيقى بل دقات طبول وكأنها قادمة من بعيد. سرعان ما تقترب وتزيد حدتها. تحول اللون الموجود بالحلبة إلى اللون الأخضر. جلست "اليونورا" على الأرض وراحت تنتظر. ملأ صوت الطبول الأجواء. رجلان قادمان من خلف الكواليس يقفان مباشرة حول الفقص المعدني الذي تقف فيه "اليونورا". ثم يضعان في المنتصف كرسياً ضخما، تماماً مثل الكرسي الذي يضعونه للنمر المدرب. نظرا بغير اهتمام إلى "اليونورا" ثم انصرفا. قرعت الطبول. بدأ المقعد يلمع بينما هي تجلس بمفردها في القفص وتشعر بالإثارة. نبضت شرايينها واستفاقت الماكينة. راحت "اليونورا" تراقب الباب بشغف، وتنتظر أن يدخل الى القفص نمر طليق.

إن فكرة أن تقف وجها لوجه أمام حيوان مفترس جعلت جسمها يتجمد. لا تشعر بالخوف، بل بفضول كبير إلى ما هو قادم. انفتح باب القفص، ثم دخلت امرأة ترتدي حذاء أسوداً، وملابس داخلية، وحمالة جوارب، وقفاز يصل حتى كوعها. كل شيء مصنوع من الجلد. تمسك في يدها كرباج وطوق فضي. بشرتها البيضاء تضيء كالفسفور. راحت تنظر في عيني "اليونورا". لاحظت أن وجه المرأة جميل وغريب وضيق. وجه غير بشري. لاحظت ثؤلولاً فوق أنفها. ابتسمت المرأة ابتسامة خبيثة كشفت عن أسنان سليمة وجميلة. بقيت "اليونورا" جالسة على الأرض في انتظار الحيوان الفترس. تغير إيقاع دقات الطبول. تقدمت المرأة من "اليونورا" وأخذت منها ساعة يدها، ثم وضعت لها أطواق حول رقبتها وزراعيها وقدميها. تطايرت ساعة اليد من القفص عبر الفتحة المقنطرة الكبيرة. لاحظت "اليونورا" وجود سلاسل متصلة بالأطواق. ضربت المرأة بالكرباج في الهواء، وسحبتها من بطنها نحو المقعد. ثم أشارت بنظرة الآمر الى المقعد. أدركت "اليونورا" أنها لعبة. وصل الحيوان المفترس الى الحلبة، وراح يزأر. خبطته المروضة برفق على ظهرة وأثنت عليه. أحضر الرجلان الأطواق الى القفص. أطواق ضخمة، صفراء اللون موضوعة على قاعدة على هيئة أنبوب. وفي المنتصف مقعد حديدي صغير. صوت صفارة يتداخل مع دقات الطبول. أخرجت المدربة ولاعة وأشعلت الأطواق. اشتعلت فيها النيران التي اهتزت في الهواء لتصنع ظلاً راقصاً فوق الرمال. صاحت المرأة: "هيا!" تحركت "اليونورا" من على المقعد، واقتربت من النيران. أحست بحرارة ألسن اللهب، وشعرت وكأن عيناها تشتعلان. كررت المرأة: "هيا!" إن الماكينة الغريبة لا تخاف. تنظر الى الأنبوب المشتعل وكأنه حلم.

قالت لنفسها أنها مجرد لعبة. ضاقت المدربة ذرعاً بها، فراحت تدفعها من فخديها. شعرت بوخز فأمسكت بذراع المدربة وعضتها. صاحت المرأة: "حيوانه!" ثم أخذت الطوق المعلق في رقبة "اليونورا". ألسنة النار تتراقص بشراسة وتدعو متحدية، تقفز من مكان الى آخر. دخلت "اليونورا" على مهل الى الأنبوب المشتعل. صارت في أحضان النيران. تسير في الأنبوب فتصطدم ركبتها بالمقعد المعدني. الحرارة تلعق جسدها. تشعر بصدرها ومنكبيها. الهواء المغلي يدخل الى أنفها. شعرت برائجة شعرها وهو يحترق.

لم تكن "اليونورا" في عجلة من أمرها. فالماكينة لا تخاف. تتابع النار باهتمام وهى تمر بجسدها وتمتصه وكانها تستحم فيه. المقعد المعدني ملتهب. ملايين الإبر توخز يدها. ثم تتوقف في نهاية الأنبوب. راحت تنظر الى قميصها الذي اشتعلت فيه النيران، وكأنها تشاهد الحلبة من قرن عميق. نادت عليها المدربة. لكن "اليونورا" لم تتعجل الخروج، فما هى إلا لعبة. تنتظر الى أن تصل حرارة المقعد الى درجة لا تتحملها. نادت عليها المرأة التي ترتدي الزي الأسود. لكنها لم تبرح مكانها، فالحرارة تحتك بجسدها كالكلب السعران. أمسكت المرأة بالسلسة المتصلة بالطوق وراحت تجذبها الى الخارج وهى تسبها. لكن "اليونورا" تتشبث في مكانها. راح المقعد يحرق بشرتها. أحست بأنها تريد أن تلتهم جلدها. شعرت للحظة أن لهب أحمر يتسلق رقبتها. جذبت المدربة السلسلة بشدة فسقطت "اليونورا" من على المقعد الملتهب، وانطرحت على الأرض. شرع الرجال في إطفاء النيران وإخراج الأطواق من الحلبة بينما "اليونورا" ترقد على بطنها في الرمل والعرق يسيل من وجهها. الأطواق والسلاسل ملتهبة، شعرت بالنار تشتعل في كل جسدها، وأنها صارت مثل جمرة تسقط عفوا من كومة جمرات. كل أحشاءها تلتهب، عيناها وفمها. فراحت تبتسم بهدوء.

أخذت السيدة التي ترتدي حذاء عال سطلاً، ثم سكبت عليها كمية من الماء. راحت "اليونورا" تشرب المياه بنهم وهى تسمع صوت حسيس المياه تسقط على جلدها. التصق ثوبها على الفور بجسدها. وكأن ساقاها وفخديها قد التصقا ببعضهما بدأ يذبلان. حاولت المدربة إجبارها على النهوض مستعملة السوط، ضربتها به على رجليها. فمها ممتلئ بطعم الجلد المشبع بالماء. والمرأة تضرب بالسوط. مازالت اللعبة مستمرة. نهضت "اليونورا" وهى تتمتم رغم أن ركبتيها كانتا ترتعشان. ناولها الرجلان عبر شباك القفص أحزمة تشبه شرائط عربة الأطفال التي توضع لمن يحاول القفز منها. ثم لفوها بها وعقدوها عليها. كانت تتنفس بصعوبة. انطلقت دقات الطبول الغريبة من مكبرات الصوت، بينما المدربة تنظر الى وجهها

وهى تضحك باستهزاء. أضاء الثؤلول على أنفها على نحو ينذر بالشر. ثبتت الأشرطة المعقودة على جسمها ويديها ورجليها بحبل نزل من قبة السقف. راحت المدربة تخبط على وجهها و"اليونورا" تحاول أن تعض يدها. لكن المرأة كانت أسرع منها. فجذبتها وهى تصيح: هيا! رفعوا "اليونورا" على مهل الى أعلى والمدربة تطعنها في بطنها بذراع السوط. ابتسمت "اليونورا". استلقت ويداها ورجلاها منفرجتان في الهواء مثل طائر اللقلق وهو يطير. ارتفعت عن الأرض. سحب الحبل رجلان قويان بينما إيقاع الموسيقى في ازدياد. رفعاها الى أعلى حتى وصلت الى سقف الخيمة المستدير. لم تكن "اليونورا" خائفة. تنظر من أعلى وهى ترى المرأة والرجلين من هذا الإرتفاع، وكأنهم خنافس سوداء. بدأت تشعر برعشة وهى تسقط على مهل الى أسفل. شعرت بدغدغة في معدتها وضيق في صدرها. اقتربت بوجهها من الأرض وهى تحلق بيديها المنفرجتين كالطائر. علت ضحكاتها. ذهب الرجلان والمرأة ينظرون في وجهها. توقفت عن الضحك في حين كادت رأسها تلمس الرمل.

راحت تقول لنفسها: "يالها من لعبة!" اعتقدت أنهم سوف يجرونها الآن الى أعلى بسرعة. تخيلت نفسها كالطائر الذي يعلو بعيداً حتى يبلغ الشمس. إن جذبها الى أعلى يكاد يذهق روحها. يتبعه سقوط سريع وحاد. ترى الآن أنها تحولت الى نيزك يسقط بشدة الى أسفل. إن أمعائها تموج من قوة الجاذبية، إنها تشعر بها في حلقها. ودوى من حلقها بدون أن تدري صوت غير بشري: "أنا أطير!" الرمل في الحلبة يقترب بسرعة جنونية من وجهها. كانت على ثقة بأن بأن رأسها سترتطم بالأرض من هذه السرعة. وأنها ستغوص في الأرض وتحدث فيها ثقباً. غير أن أيادي الرجلين القوية أمسكت بها بقوة على بعد نصف متر من الأرض. رائحة الرمل تأرجح في أنفها. راحت تضحك بحنون وهى تصرخ: "المزيد!" راح الرجلان والمرأة ينظرون اليها لبرهة ثم يبدأون من جديد رحلة مجنونة في مصعد شديد الإندفاع ذهاباً وإياباً. وكأنها تجلس في قطار دائري سريع. أحشائها تتقافز من حلقها، وخلايا جسدها تختلط بالهواء. لم تعد تعرف الفرق بين الأرض والسقف. تشعر بأنها تقفز من خلف جلدها، وأن نشوة جنونية تموج في عقلها. تحولت الماكينة الى جسد حي نابض. راحت تبتسم وتقول: "اللعبة مازالت مستمرة". الأحبال تصدر أزيزاً، والسلاسل صليلاً، ويدان الرجلين القويتان تقذفانها بانتظام، وتمسكان بها قبل ارتطامها بالأرض مباشرة. إلى أعلى وإلى أسفل. لكن "اليونورا" كانت في عالم آخر. نسيت نفسها، وذابت مع دقات الطبول، وهى تطير بجسمها الطائر النابض.

تحرر الشريط من على إحدى يديها. وبينما هى تقترب من الأرض، أصدرت العقدة صوتا، وارتطمت رأسها وبدنها بشباك القفص الصلبة. هالها الإرتطام. شعرت كأنها تخترق القفص، وأن قلبها وصدرها ينفصلان ويتخبطان بين ضلوعها. وكأن حجارة صلبة سقطت في صدرها. دوائر أقحوانية ضخمة تتراقص أمام عينيها. تحولت دقات الطبول الى نغمات متنافرة يصعب سماعها.

لا يوجد في مقطورة السيرك سوى مصباح وحيد، مثبت فوق الحوض. رقدت "اليونورا" على السرير، مغطاة ببطانية مزينة بألسنة لهب وردية. رجلان منكبان عند رأسها، ويضعان عليها ضمادة ثلجية. جلست المرأة التي تلبس حذاء عال عند الطاولة. أسندت رأسها وهى تعض على شفتها السفلي، مستغرقة في التفكير. فتحت "اليونورا" عينيها، فوجدت أحد الرجلين يحسس على شعرها، ويقول: "هل تشعرين بألم؟" حركت رأسها ببطء. رأت أمام عينيها شاشة سوداء وشعرت بدوي في رأسها. "أنا لا أرى شئ؟" أجابته وهى تحاول أن تلقي نظرة على الحجرة التي ترقد فيها. قال لها الرجل الذي يجلس على حافة السرير: "لقد فُزعنا كثيرا". بدأت "اليونورا" تميز الرجلين، والسرير، والخزانات الغريبة، والأرفف، والمفرش الملون على الطاولة، والصورة الصارخة المعلقة على الحائط. جلست. لاحظت أن الرجل الذي يضع لها الضمادات يحمل على يدة وشم تنين أسود. أشارت "اليونورا" الى التنين، وأرادت أن تسأل عن شيء. وبدلا من الكلمات، انطلق من معدتها سائل ساخن أصفر. تقيأت فترة. بينما أدارت السيدة الجالسة عند الطاولة رأسها من الإمتعاض. أصدر المصباح وميضاً، ثم طقطق وانطفأ.

ساد الظلام في الحجرة بضعة دقائق. بعدها راحت السيدة الجالسة عند الطاولة تقول: "اللعنة؟"، لكن سرعان ما أضاء المصباح من جديد. مسح الرجل ذو وشم التنين الأسود الأرضية والسرير. علا صرير يصدر من الخرقة المشبعة بما تقيأته "اليونورا"، وانتشرت رائحة كريهة في الهواء. شعرت "اليونورا" أن الألم انتشر في كل جسمها، وأن ساعة يدها الزرقاء قد عادت الى معصمها من جديد. تشير الساعة الى الرابعة والنصف صباحاً. "سأنصرف!" قالت وهى تحاول النهوض من على السرير. اوقفها الرجل ذو التنين وقال: "ليس بعد! قد تسقطين على الأرض في الطريق. سأصنع لك شايا!". استلقت مرة أخرى على السرير. ظلت السيدة ذات الحذاء الجلدي العالي جالسة عند الطاولة تراقبها بصمت. وارتسمت على وجهها من جديد تلك الإبتسامة الشريرة، وقالت بينما يعد الرجل الماء لعمل الشاي : "لقد أفسدتي العرض!" لم تجبها "اليونورا" وراحت تنظر الى معصمها

الذي خلا من الرباط إلا من كدمات زرقاء. كررت السيدة من خلف الطاولة وبصوت أعلى: "لقد أفسدتي علي العرض!"

نهرها الرجل الثاني الجالس على السرير بلطف قائلاً: "أرجوكي يا "ايرينا"، ربما كان سيحدث أسوأ من هذا!" لاحظت "اليونورا" سنة فضية تلمع في فمه. في هذه الأثناء كان الرجل ذو وشم التنين يصب الشاي. أومض المصباح من جديد لينذر بأنه سينطفئ. وضعت "ايرينا" رأسها على الطاولة وهي تقول: "كهرباء لعينة!: صمت وانتظار. أضاء المصباح من جديد. قدم الرجل ذو التنين الشاي الى "اليونورا" والبخار يتصاعد من الفنجان. أمسكته "اليونورا" بصعوبة وبحرص حتى لا تحرق أصابعها. أخذه منها الرجل الجالس على السرير وهو يقول: "أعطه لي يا "أليكس"! إنها مازالت ضعيفة". جلس "أليكس" على الطاول بجوار "اليونورا" التي قالت فجأة: "لقد شعرت بجسدي". تحسست جبينها الذي أصيب بكدمة حمراء ضخمة. فأضاف "أليكس": "إنها من تلك العقدة الغبية..." كررت "ايرينا" وهي تشعر بالإهانة: "لقد أفسدتي علي العرض، كان من المفترض أن تخافي وأن تتضرعي إلي، لا أن تصرخي وتقولي المزيد.. المزيد". طأطأت "اليونورا" رأسها وقالت: "لقد شعرت بجسمي..." قاطعها "أليكس" قائلاً: "بالطبع، هذه العقدة اللعينة". كررت "اليونورا" كلامها وهي تدللك رقبتها المتجمدة: "لقد شعرت بجسمي". أعطاها الرجل ذو السنة الذهبية الشاي فشربت. طعمه مثل زهرة البلسان مع العسل. قال "أليكس": "ألم أقل لك يا "يواي" أننا لا ينبغي أن نفتح السيرك بالليل!" ثم قام يغسل الخرقة في الحوض. كان الماء السائل يخرق لحظات الصمت بينما "اليونورا" تشرب الشاي. تشعر بسخونته تتسلل إلى معدتها. توقف الطنين في رأسها، وأضاءت ساعة يدها باللون الأزرق. صارت الساعة الخامسة. نامت ايرينا على الطاولة، ويدها داخل القفاز مسدلتان بجوارها من التعب. قال "أليكس" بهداوة: "لا يأتي الينا في الليل سوى أناس شاذون، وليس عليك سوى أن تسليهم..." ثم أضاف وهو يتأمل الكدمة على وجهها: "يبدو أنها بخير". فردت "اليونورا": "ليس الذنب ذنبي..." ثم ارتشفت الشاي وأضافت: "أنا فقط كنت أريد أن..." قاطعها "أليكس" مكملاً: "تعرف، كنت تريدين أن تشعري بجسمك، فضلاً عن هذه العقدة..". قالت "اليونورا": "إنكم سيرك عجيب. لم أرى مثله في حياتي". ردت "ايرينا" بسخرية: "وأنت امرأة عجيبة أيضاً، مجنونة. كنت أعتقد أنني لن أتمكن من إخراجك من ذلك الطوق المشتعل". تحسست "اليونورا" بيدها على وجهها وبدأت تتذكر. "نعم، الطوق المشتعل، لقد شعرت بالفعل..." أدارت "ايرينا" عينيها بملل. قال "أليكس": "لن نفتح السيرك في الليل

بعد الآن". جلست "اليونورا" على السرير وهى تمسك بفنجان الشاي الفارغ. تشعر بمدى الإرهاق والتعب، رغم ذلك تشعر براحة كبيرة. "سأنصرف!" قالت، ثم وضعت الكأس في حجر "يوراي". حاول "أليكس" أن يقنعها بأن تبقى، لكنها تريد أن تتنفس هواء طلقاً. راحت تبحث عن معطفها. نهضت "ايرينا" من عند الطاولة وناولتها إياه. وللحظات التقت عينا السيدتين. همست "اليونورا" قائلة: "لقد أفسدت العرض!" ردت "ايرينا" بحزم: "أعرف، لكنه ليس ذنبك". قالت "اليونورا": "ليس هذا هو المهم"، ثم فتحت الباب وأكملت "المهم هو صوت خطواتي وسط شوارع خالية من المارة". لمست قفازات "ايرينا" برفق وخرجت من المقطورة.

إنه صباح أحد أيام شهر اكتوبر. قاربت الساعة منتصف السادسة. كتل الضباب تنتشر على الرصيف ممزقة كمناديل ورقية على الطاولة بعد سهرة كبيرة. الطريق أمامها مضئ، ومفروش بكسرات الأحجار. لاينزل مطر ولا تغني طيور، الهدوء في كل مكان وهى تسير. راحت الحصي من جديد تسن أسنانها. التقتت ورائها عند نهاية المنتزه. كان السيرك غارق في ضباب بلون اللبن. لاحظت "اليونورا" أن المصباح انطفأ في المقطورة. واصلت السير بينما يتحول الطريق المغطى بالحصي الى رصيف أسمنتي. أول المارة يغزون المدينة المبللة. خطواتها السريعة تحدث على استحياء حالة من الفوضى. حاولت أن تتجنبها فتوقفت عند محطة الحافلات، ثم جلست على المقعد في بين الحاجزين الزجاجيين. وبهدوء بدأ ضباب الصباح يفك مراسيه. ابتسمت "اليونورا". الساعة الآن الخامسة والنصف، وستأتي أول حافلة بعد عشرة دقائق.

obeikandl.com

مونيكا كومبانيكوفا

Monika Kompaníková

مونيكا كومبانيكوفا أديبة سلوفاكية مواليد ١٩٧٩، ولدت في مدينة "بوفاشسكا بيستريتسا". تخرجت في كلية الفنون الجميلة في مدينة براتسلافا، حيث درست في قسم الرسم بالألوان، وقسم الألوان. تعمل في مؤسسة خيرية في مدينة براتسلافا. حصلت على جائزة القصة القصيرة في عام ٢٠٠١ و عام ٢٠٠٣ على التوالي. أصدرت أول مجموعة قصصية لها بعنوان "مكان للوحدة" في عام ٢٠٠٣، والتي حصلت على جائزة "إيفان كراسكا". وفي نهاية عام ٢٠٠٦ أصدرت مجموعتها القصصية الثانية بعنوان "أماكن بيضاء". نشرت العديد من القصص القصيرة والمقالات الأدبية في صحيفة "الحقيقة" اليومية.

orbikandl.com

obeikandl.com

قواعد اللعبة

عندما تسللنا لأول مرة إلى بيت عامل الفحم، لم نكن نعرف عنه سوى أنه يخرج صباح كل يوم من البيت، ويعود مع الظلام. يجر وراءه وهو يهمهم عربة صغيرة صنعها من بعض الأنابيب، ومن ألياف أرانب برية.

لا يمكن تسمية ما كنا نفعله سوى أنه عملية سطو. رغم أننا لم نكن نجد عنده في البيت سوى الأخشاب – في الواقع نحن لم نكن نبحث عن شيء آخر. لم نشعر بتأنيب ضمير على ما نفعله، ولم نعتبر زيارتنا له حتى على أنها سطو. بل كانت مجرد استكشاف للمكان وسبر أغواره. لقد انتقل عامل الفحم إلى البيت المهجور دون أن يشعر به أحد. جاء إلى البيت حاملاً معه عربته الصغيرة الممتلئة بأكياس البلاستيك. لم يكن أحد في استقباله، ولم يقدم نفسه لأحد. هكذا ظهر، وصار هنا بيننا. لم نكن نعرف عنه أكثر من هذا.

كان الناس يسمونه"الفحام"، لأن رجل يحمل نفس الاسم كان يسكن في هذا البيت قبله.

انتظرنا في الصباح حتى ينصرف. جلسنا على أحد التلال المطلة على البيت نراقبه وهو يصارع عربته التي انحشرت في مدخل البيت، ثم يغلق الباب بقطعة خشبية. تبعناه بأنظارنا حتى وصل إلى الطريق الذي يحف "البستان الأسود" حتى اختفى بين الأشجار. انتظرنا حتى تنصرف الحافلة، ويخلو الشارع من المارة، ثم فتحنا بوابة البيت، ودرنا حول البيت وقد حنينا ظهورنا. كنا قد استطلعنا محيط البيت من قبل، وعرفنا أن زجاج إحدى نوافذ الدور الأرضي مهشمة. كانت الغرفة التي دخلناها من النافذة فارغة تماماً. توجد على حوائطها أشكال اسطوانية وبقع فاتحة اللون منتشرة على الصور المعلقة عليها. ممر البيت أيضاً فارغ، خال من أية حمالات لتعليق ثياب أو أحذية. لا شيء به سوى سجادة على الأرض. أما الغرفة التالية فقد كانت غريبة للغاية. فبدلاً من الأثاث تبعثرت في كل أرجاءها قطع الخشب، بل أكوام من الخشب. رصت ألواح الخشب المهذبة وأغصان الشجر الغليظة فوق بعضها. وفي الركن الغرفة خلف الباب وجدنا كومة كبيرة غطتها أخشاب هشة، وأغصان، وقطع من أطر النوافذ المتكسرة. في وسط الحجرة رأينا فتحة كبيرة تطل علينا. لم نرى مثلها من قبل، توجد وسط خشب الأرضية المنزوع. لكن الأخشاب التي تم نزعها من أرضية الحجرة لم تكن موجودة. كان أرضية الغرفة التي مازلت صامدة تصدر أزيزاً من تحت أقدامنا. رغم ذلك كنا نحاول أن نتبادل الحديث بطريقة طبيعية وبلا خوف. كان صوت كل كلمة يسمع وكأنه صفير أرغول. انتظر كل منا أن يقول له

الآخر شيئا، يكون سبباً في أن نعود أدراجنا عبر النافذة، ونخرج إلى فناء البيت، ثم ننطلق إلى الشارع، ونختفي بعيداً عن هذا المنزل. لكن كلانا لم يرغب أن يوصف بالجبن. وهكذا تسمرنا في مكاننا، نكتم رعشة في أقدامنا، وندور حول كومة الخشب. إلى أن انتزعنا أغصان ملتفة ومنشطرة، ورحنا ننقلها من كومة، ونضعها على أخرى. ننبش بمقدمة أحذيتنا في التراب المتراكم بين ألواح خشب الأرضية، ونرسم في التراب أشكالاً هندسية. ثم انفجرنا في الضحك بطريقة مصطنعة. لم نغادر الحجرة إلا عندما سمعنا أنين وخشخشة الفئران تحت كومة الخشب.

خرجنا من باب لا يؤدي إلى دهليز البيت، بل إلى المطبخ. ربما أن ما أغرانا في الذهاب إلى هناك هو الدفء الذي ينبعث خارج المطبخ من خلال الباب المتحرك. كانت الحرارة في المطبخ شديدة، لا تطاق. كان يدفئون الحجرة بواسطة موقد قديم مصقول، وفرن يقف على قطعة معدن أسفل النافذة. ظهر الفرن وكأنه صاروخ له ثلاثة أرجل صغيرة. يوجد بجوار الفرن قفصان للموز مملوءان بالخشب، وقضيب معدني لإذكاء النار، وجاروف. كانت النوافذ مندادة بالماء الذي تسرب عبر حافة عتبة النافذة، وسقط على الأرض الدافئة؛ فتبخرت المياه على الفور. فكرنا أن الأمر قد يكون غير آمناً عندما تدفئ باستعمال الخشب، بينما صاحب البيت غير متواجد فيه. وجدنا في هذا أيضاً إسراف لا فائدة منه. رحنا نحاول أن نتذكر إن كنا شاهدنا دخاناً يتصاعد من المدفأة، ونحن نجلس في محطة الحافلات أم لا.

أردنا أن نلقي نظرة على المطبخ الذي يبدو أنه الغرفة الوحيدة التي تستحق الاهتمام في هذا البيت الكبير. خلع كل منا معطفه، جففنا العرق الذي تصبب على جبيننا، وألصق شعر رأسنا بأهدابنا. بدد الدفء الخوف من نفسينا. تجولنا بناظرينا في المطبخ من أعلاه إلى أسفله، ثم رحنا نفتح أدراج الخزانة وأبوابها. سحبنا بعض البطاقات. جميعها أرسلتها سيدة اسمها "لوتسيا"، خطابات وفواتير. خجلنا أن نقرأ الخطابات. فتحنا فقط مظروف واحد كان مندساً بين كوبين... عثرنا في المظروف على تقرير طبي تداولته الأيادي، وعلى إعلان وفاة إحدى السيدات. يعود تاريخ كلا الورقتين إلى عام ١٩٨٦. اعتقدنا أنهما يخصان زوجة "الفحام". بالطبع لم تكن تلك السيدة تحمل اسم زوجها "الفحام". وبعد أن أعدنا كل ما أخرجناه إلى مكانه، دسسنا أجسامنا في الموقد والفرن على سبيل المزحة. ارتدينا معاطفنا، ثم تسللنا عبر النافذة إلى الخارج.

عاودنا التسلل إلى البيت بعد أسبوع. عثرنا على خشب في الحجرة التي كانت خالية تماماً من قبل. لم يكن الخشب مرتبا، بل كانت الألواح والأغصان ملقاة على ركام الخشب. تبعثرت قطع الخشب في

كل أنحاء الغرفة التي سادتها البرودة والرطوبة. كان الخشب الموجود فيها فاسداً، يتغذى على الفطر والعفن. الجو في المطبخ كما كان من قبل، حاراً وخانقاً، خاصة أننا جئنا في وقت الغذاء وبعد أن انصرف العجوز بثلاث ساعات تقريباً. لم نكن نعرف تماماً السبب الذي دفعنا لمعاودة الذهاب إلى هذا البيت. لكن بمجرد أن وجدنا أنفسنا مرة أخرى في هذا المطبخ الحار والخانق، شرعنا بدون تفكير في إخراج الأوراق والبطاقات من الخزانة، ورحنا نقرأها بالتناوب بصوت عالٍ، مرة أنا ومرة هو. كتبت "لوتسيا" عن الشقة التي استأجرتها، عن أبيها وحالته الصحية، وحديث عن أحد البنوك. فهمنا من الرسالة أنها كانت جارته أو شخص كان يسكن بالقرب منه. أو ربما تكون ابنة أخيه أو شقيقته. كتبت في الرسالة عن الأخشاب تقول: "أتمنى أن يكون عندك ما يكفيك من الأخشاب. يمكنني أن أرسل لك بعضها إن احتجت إليها". فهمنا أن "الفحام" ربما كان يقيم قبل مجيئه إلى هذا البيت مع "لوتسيا" في إحدى الشقق التي تعرضت للدمار، وافترقا بعد ذلك لبعض الوقت. ثم عثرت عليه فيما بعد وبدأت تراسله. يبدو أنه لم يكن يرد على رسائلها، لأنها في نهاية كل بطاقة ورسالة ترسم علامة تعجب في مستطيل كتبت فيه عنوانها. وفي نص الرسالة بعض الجمل تقول فيها أن "لوتسيا" تكتب، وستظل تكتب، رغم أنها لا تتلقى ردود على رسائلها.

أعدنا الرسائل إلى مكانها مرة أخرى ثم دخلنا إلى الفرن والموقد تماماً كما فعلنا من قبل. خطر لنا أن نقوم بتغيير شيئاً في الحجرة أو إخفاء شيئاً فيها أو نفعل شيئاً يشير إلى تواجدنا فيها، شيئاً ما على طريقة الهنود الحمر. شيئاً بسيطاً لا يستدل به الفحام على هويتنا ولا يمكنه من العثور علينا. غير أننا كنا نخاف منه وكأنه عفريت. فلو أنه ظهر أمام بيتنا أو بالقرب منا، أو مجرد أن يشير إلينا بإصبعه لارتعدت أوصالنا من الخوف. لذلك اكتفينا بعلامة تدلل على هذه الرغبة. فحفرنا حرفين صغيرين على الحائط فوق باب المطبخ.

قمنا عدة مرات بمراقبة "الفحام" وهو يجر عربته ويسير في الحي، أو يتجول في "البستان الأسود". كان يرتدي رداء سروالي ومريلة وقبعة من الفرو وحذاء طويل أسود، حتى في حرارة شهر مايو، عندما كنا نرتدي سروالاً وقميصاً خفيفاً. كان يسير منحنياً، إلى درجة أنه يكاد يرتطم بأي شيء أمامه عندما يحاول أن ينظر أمامه مباشرة وليس في الأرض. لذلك لم نكن في حاجة إلى الاختباء أو التخفي ونحن نراقبه، فلو أننا مشينا خلفه مباشرة لما شعرنا بوجودنا. حتى أننا ذات مرة ساعدناه في تحميل بعض ألواح الخشب الملقاة عند حاوية القمامة. عندها رأيناه عن قرب. شاهدنا وجهه، ونظرنا في عينيه التي

بدت غريبة. ظهرت وكأنها غارقة في الدموع. انتابنا وقتها شعور بأنه يعرفنا. لا ينظر إلينا باعتبارنا غرباء. شعور مزعج سرى في جسدينا، رغم أننا لم نأخذ أي شيء من بيته ولم نسبب له أي أذى.

مر وقت طويل دون أن نراه. كنا نجلس على محطة الحافلات أمام بيته كل يوم تقريباً. أحياناً نبقى هناك ساعتين متصلتين حتى يحل الظلام. لم نراه يخرج أو يدخل إلى البيت، رغم أن الدخان كان يتصاعد من المدفأة. وعندما مر أسبوع على هذا الحال قررنا أن ندخل إلى البيت. لم يكن الأمر سهلاً. كنا فقط نخاف التسلل إلى البيت لنرى ما يحدث. في اليوم الذي قررنا فيه الدخول إلى البيت خرج "الفحام"، ومر بعربته المتهالكة بموقف الحافلات حيث نجلس. واتجه صوب "البستان الأسود". لم ننتظره حتى يحتفي عن الأنظار. تسللنا عبر فتحة في سور البيت بين قطعتين خشبيتين. قمنا بعملها خلف البيت حتى لا نضطر إلى التسلل إلى المنزل من ناحية الشارع، ثم دخلنا. كانت الحجرة التي تفتح أبوابها بسهولة من أجل الخشب خالية. لم يكن بها سوى ألواح إطار نافذة متكسرة وبعض الأغصان. كان واضحاً أن "الفحام" اجتهد خلال هذا الأسبوع في تدفئة البيت، ولم يحضر خشباً جديداً. كان رائحة عفنه تملأ المطبخ. الهواء فاسد والفوضى تملأ الغرفة. حوض الغسيل ملئ بالأواني وقرون الفاصوليا الفارغة. بدا الأمر وكأنه لم يأكل غير الفاصوليا، لاشيء آخر. كان ما علق بالحوض حبات فاصوليا خضراء نيئة. في تلك اللحظة شعرنا نحوه بالأسف واعترانا الخجل، لكن بما أننا نلعب دور الهنود الحمر لم نعرب عن خجلنا صراحة. كل ما قلناه أننا سوف نغسل الأواني، ليس لأننا نشعر بالذنب لكن لأننا قررنا أن نخيفه قليلاً.

وجدنا على الخزانة عدة علب دواء فارغة وكؤوس بها سوائل غريبة وبطاقة جديدة من "لوتسيا". استنتجنا من علب الدواء ونقص الخشب والأكل الموجود بالمطبخ أن "الفحام" قد يكون مريضاً. فكرنا في أنه قد يكون من المفيد أن نخبر "لوتسيا"، غير أننا لم نعرف أين نجد عنوانها، فلم نكن نعرف عنها شيئاً على الإطلاق. لم تقع في أيدينا أية رسالة منها لنقرأها. فلم نتمكن من ذلك.

رغم ذلك علقت هذه الفكرة بأفكارنا المشوشة، فرحنا نقلبها على كل الوجوه. حاولنا أن نجد لها مكاناً في قواعد لعبة الهنود الحمر الجاسوسية. ربما تملكنا خوف من أن نجد "الفحام" يوماً ميتاً. عندها ستشخص أبصارنا وربما لمسناه بأيدينا، ربما سنضطر إلى الإعلان ما حدث، ونفسر كيف دخلنا إلى بيته، وماذا فعلنا هناك. أكثر ما شغلنا كانت فكرة ما قد يحدث إذا توقفنا على التسلل إلى المنزل، ولم نخبر أحداً عن حياه هذا الرجل، وأنه مريض، وماذا قد يحدث قبل أن يلاحظ أحد سكان الحي أن الدخان قد توقف على التصاعد من

مدفأته. وفجأة شعرنا بنوع من المسؤولية، والخجل في نفس الوقت. علق هذا الشعور في رأسينا مثل حبة الفاصوليا في حوض الغسيل القذر. قرأنا خطاباته وفتشنا في خزائنه. دخلنا منزله وتحدثنا معه. لقد عرفناه، أما كونه لم يتعرف علينا، فلم يكن إلا نتيجة لعميلة التمويه وقواعد لعبتنا. تحدثنا طويلاً عن السبب الذي يمنعنا من الكتابة لهذه السيدة. لكن كلانا كان على ثقة بأننا إن عاجلاً أو آجلاً سوف نكتب لها شيئاً.

بعد أن مرض "الفحام" في المرة التالية، كتبنا أول بطاقة. لازم البيت لمدة أربعة أيام، ثم خرج في اليوم الخامس عند الظهيرة. سار على مهل وقد حني ظهره. توقف كثيراً أثناء سيره. مر ما يقرب من ساعة حتى اختفى عن أنظارنا. لم نبقى في البيت طويلاً، انصرفنا بمجرد أن دونا العنوان. عدنا إلى البيت مرة ثانية بعد الظهيرة، فقد كنا نحتاج إلى معرفة خط يده. كذلك أحضرنا له بعض الأخشاب. وبمجرد أن وضعنا الأخشاب في الصندوق توقفت الأفكار عن اللعب في رأسينا لفترة. لم نجد شيئاً آخر يساعدنا في كتابة الرسالة إلا ورقة اجتزها من كراسة ما. مكتوبة عليها بعض الملحوظات والأرقام الغامضة. وكل مما كتبناه كان مبهما. الخط ونص الرسالة. وصلنا في نهاية الرسالة إلى كلمتين: "أنا مريض". لم نكن نعرف عمر "لوتسيا" ومن هي أصلا. لن نذكر شيئاً عن هذا الأمر. وضعنا البطاقة في مظروف من باب الاحتياط.

جاء الرد. في البداية كنا نريد أن نتابع سيدة البريد، ونأخذ الخطاب من صندوق البريد لنقرأه قبل أن يقع في يد "الفحام". لكننا لم ندركها. وفي النهاية وجدنا الخطاب داخل البيت. كتبت له تقول إنها سوف تحضر في أقرب ممكن لتعتني به. أرادت أن تعرف مما يعاني على وجه التحديد وأية أدوية يحتاجها. لكننا لم نكن نعرف شيئاً عن هذا الأمر. أسقط في أيدينا. كتبنا لها رداً عبارة عن كلمتين: "لا أعرف، تعال!". كان رداً مضحكاً، لكننا لم نعرف شيئاً نكتبه أفضل من هذا. كذلك لم نلتفت إلى أننا كتبنا لها بصيغة الجمع "لا نعرف"، فقد كان كل ما يهمنا هو محاكاة خطه. لم ننتبه إلى ذلك إلا لاحقاً ونحن في مكتب البريد. الآن علينا بأية طريقة أن نأخذ الرد من الصندوق قبل أن يصل إليه "الفحام".

لم يكن الأمر صعباً، فصحة "الفحام" كانت قد تحسنت.

كان يذهب لإحضار الأخشاب كل يوم. ملأ الغرفتين بالخشب. بدأ يرص الخشب حول المنزل، يرصه في البداية أسفل سقف البيت، ثم بعثر الباقي في أرجاء الفناء. وجهت "لوتسيا" في رسالتها الحديث إلينا مباشرة – على أننا أصدقاءه فكتبت: "أيها الأصدقاء". لم تكن الرسالة طويلة، ولم تكتب شيئاً عن نفسها، فلم نعرف من تكون. كل ما

علمناه هو اسم المدينة التي تعيش بها. طلبت منا أن نكتب لها عنواننا. لكننا لم نفعل وشرحنا لها قواعد لعبتنا. فصارت واحدة من الفريق. في هذا الوقت بدأنا نأخذ قواعد اللعبة بصورة جادة جداً.

كتبت لنا في الرسائل التالية التي كنا نأخذها من صندوق بريد "الفحام" عن زوجته، التي ماتت في المستشفى وعن الشقة التي كانا يتشاركان فيها والتي تعرضت للتدمير من قبل إحدى شركات المقاولات كتبت لنا كذلك عن جيرانه وعن أهمية الخشب بالنسبة له. لكننا مازلنا لا نعرف شيئاً عنها. كذلك كنا حريصين على ألا تعرف شيئاً عنا هي الأخرى.

بدأنا نتردد على بيت "الفحام" عدة مرات في الأسبوع الواحد. لكن بعد غروب الشمس، أو عند سقوط الأمطار وبعد أن يكون المكان حول البيت خالياً من المارة. كنا نحضر له الأخشاب ونشعل المدفأة حتى لا يشعر بالبرد عند عودته إلى البيت. وعندما كان يبقى في البيت كنا نلقي له بالأخشاب من على سور البيت. أحياناً كنا نحضر له الطعام، أو بعض المعلبات. كنا نضع كل شيء في الخزانة بحيث لا يعثر عليها على الفور. توقعنا أن ذاكرته ضعيفة، ولا يتذكر بالتحديد أين ومن أين يضع أشياءه. وفجأة اكتشفنا أن ما نفعله أمر عادي تماماً، وأننا نفعله بالطريقة الصحيحة، فهو ليس بالفرض ولا باللعبة. هكذا أكدت لنا "لوتسيا" في رسائلها. لم تشجعنا على أن نتحدث معه. لم تكن نريد أن نزوره كأشخاص طبيعيون يأتون من باب البيت ليساعدوه على الملأ وبإرادته. لقد اتفقت معنا في قواعد اللعبة. كانت تعرفه أفضل منا وتعرف لماذا يفعل ما يفعله.

في فصل الخريف تعرض "الفحام" للمرض، ولم يخرج من البيت لمدة أسبوعين كاملين. أشارت إلينا "لوتسيا" بأننا يجب أن نتردد عليه حتى أثناء وجوده بالبيت، لنرى على الأقل من وراء الباب إن كان بخير، أو مازال عنده المزيد من الأخشاب، أو يعاني من البرد. كتبت تحذرنا من أن نرسله إلى المستشفى، أو نستدعي له سيارة الإسعاف. فهو لن يذهب إلى هناك، وقد يموت من الخوف قبل أن يصل إليها. استغرق التفكير في الأمر بعض الوقت إلى أن اتفقنا، وكان هذا ضد قواعد اللعبة. في البداية كنا ننقل الخشب من الخارج إلى داخل البيت، إلى الغرفة المجاورة للمطبخ. وفيما بعد نضعها في الموقد أو الفرن عندما نرى أنه نائم. أحضرنا له طعامنا وأكواب بها شراب النبيذ المطهو. كنا نأخذ علب الدواء الفارغة من على الطاولة، ونحضر له من صيدلية بيتنا زجاجات أخرى بدلا منها مملوءة. كانت "لوتسيا" ترسل لنا كل يوم التعليمات وتطمئننا بأننا نفعل كل شيء على ما يرام.

على مدى أسبوعين كان "الفحام" يتجول بالمنزل أو ينام أو يحمل الخشب إلى المطبخ ويكسر أغصان الشجر التي مازال يقوى على تكسيرها. لم يكن يأكل أي شيء تقريباً. أحياناً كان يحدث أن نجلس وراء الباب ننتظر أن يعود إلى المطبخ بعد أن يرص جذوع الأشجار في الصناديق، حتى نتمكن من أن نحضر له المزيد منها. لعبة غريبة كانت
يلعبها معنا على مدى أسبوعين.

عندما مات توقفت "لوتسيا" عن الكتابة. فلم نعد نعرف ماذا بعد. الشيء الوحيد الذي فعلناه هو أننا أطفأنا النار التي بقيت مشتعلة في الموقد، وفي الفرن. فتحنا النوافذ حتى يتجدد الهواء. غطيناه بأحد المفارش، ورحنا ننتظر في وجل عاملة البريد على موقف الحافلات. ننتظر أن تأتي برسالة بها تعليمات أخرى. وبعد يومين من الانتظار اتخذنا قرارنا.

بعد ذلك قرأنا في الجرائد أن النيران اشتعلت في أرجاء البيت قادمة من غرفتين. أحد ألسنة اللهب انتشر في المطبخ والآخر في مكان ما بفناء البيت. تأكدنا من الأمر عندما وقفنا مع باقي سكان الحي أثناء الليل في الشارع نراقب ألسنة الدخان وهي تتطاير. تارة ضد اتجاه الريح، وتارة أخرى نحونا أو صوب "البستان الأسود". كان الناس يهرولون في صمت، يمسحون أعينهم من الدخان، ويلملمون معاطفهم التي لبسوها على عجل فوق ملابس النوم. لم يكن سوانا يعرف من أشعل هذه النيران في المطبخ. وقفت عند موقف الحافلات تنظر إلينا. لم نشك لحظة أنها هي. جاءت على عجل في أقرب حافلة، والتزمت بقواعد اللعبة.

obeikandl.com

الطريق إلى البيت

جلست "تريزا" في الحافلة وهى تضرب بعصبية على لوحة مفاتيح الحاسوب المحمول. كانت الحافلة تنساب بهدوء، بينما هي تشعر بتصلب في قدميها. جلس أخوها الأصغر في المقعد المجاور يجذبها من يدها باستمرار حتى تنظر إلى البقع التي تتحرك خلف نافذة الحافلة. لقد أخذت أجازة من عملها لمدة نصف يوم، وغداً سوف تواصل العمل حتى ساعة متأخرة من الليل. لكن عليها الآن أن تنجز وهى في طريقها بعض الأمور، مثل تسديد بعض الفواتير والطلبيات، النظر في بعض الشكاوى والحجوزات. كان أخوها يصرخ ويزعجها، بينما الضوء الأحمر أسفل الشاشة ينبهها إلى أن بطارية الحاسوب على وشك الانتهاء. أخيراً نظرت "تريزا" من النافذة بينما اللون الأسود يكتسي شاشة الحاسوب. لاحظت أن الحافلة تغادر المدينة. لوحات الإعلانات الكبيرة ترافق آخر حافلة إلى نهاية الخط، وتغطي البيوت والصالات المتهدمة ومواقع البناء. تحول دون أن تحمل الرياح قليلاً من الأكسجين معها إلى المدينة. الطريق السريع يمرق من الشوارع المزدحمة بالسيارات وأمطار خفيفة تزيل المياه الراكدة من على الأرصفة.

على المحطة استقلا حافلة قروية مترنحة. المشهد خلف النافذة يغرق في الظلام تدريجياً، بينما توقف المطر. انتصب "دافيد" عندما مرت الحافلة بإحدى القرى، يبحث على المقابر. أضواء الشموع مازالت خافتة وسط ما تبقى من نور النهار، ظلال داكنة لنسوة يزرعون في التراب حول الصلبان شجيرات جافة وأغصان الصنوبر. انتشرت في الحافلة المزدحمة رائحة زهور الأقحوان وزهور اكتست بالشمع حتى تبقى إلى عيد الأرواح القادم. غلب "تريزا" النوم.

كانت حدود العالم الذي يعرفونه في طفولتهم تنتهي على بعد خطوات من فناء بيتهم. عنده تنتهي حدود مدينتهم. مدينة صغيرة، نقطة صغيرة بيضاء على الخريطة، تكدست في وادي في إحدى السهول. لا يمكنها أن تكبر وإن أرادت. كان السهل متعرجاً قليلاً، ليس به سوى أشجار، بالكاد تمنع البذور من أن تتطاير. امتلأت الطرق التي قسمت المدينة كالكعكة بنتوءات وسط مياه المطر. تمر بها السيارات من وقت لآخر. عند مروركم بالحافلة لا ترون سوى سهل منبسط من الأراضي الزراعية. خال من أي مبنى، أو علامة تشير إلى أن السهل يقطنه بشر. توقفت الحافلة للحظات عند إشارة تقع عند مفترق طرق. غادرها بعض الركاب الذين يعيشون في مكان ما في الوادي المختبئ. انصرف الناس من الأراضي المضيئة، ودخلوا في مضيق مظلم يبحثون عن بيوتهم وسط الظلام. مصابيح الإضاءة

العامة لا تعمل منذ وقت طويل، فالبلدية ليس لديها ميزانية تدفع منها فواتير الكهرباء. على أية حال الناس هنا لا يخرجـون في الظلام، فما عساهم أن يفعلوا في
الخارج؟ إلى أين يذهبوا؟

تراكمت أوراق الشجر على طريق مفروش بالحصي، يقود إلى البيت. انغرست كسرات الأحجار في الطين. يأتي الربيع دون أن تدعم بكسرات جديدة. فتلتهم حشائش الصيف الطريق، وكأنها صدأ دب فيه. فتتآكل حدود الطريق على مدار العام. يسير الأقارب بهدوء وعلى مهل، يراقبون الطريق الذي يختفي، ينظرون إلى الأشجار، وجذوع الأسوار التي تحد حدائق مهجورة وأسلاك الكهرباء المنفلتة.

سألته تريزا قائلة: "أين كنت هنا آخر مرة؟".

أجابها بسؤال فهمته على أنه نوع من التوبيخ تماماً كما تعني هي الأخرى بسؤالها وقال: "وأين كنت هنا آخر مرة أنتِ؟".

صممت "تريزا" حتى وصلا قرب البيت الصغير القابع بين مجموعة من الأشجار. أسرع "دافيد" خطاه، وراح يجر قدمه على الحصى تماماً كما كان يفعل في صغره، فيترك فيها آثار تطول بطول ظل الأحجار. توقف أمام البيت مترددا. صاحت فيه "تريزا" وهي تدور حوله قائلة: "لماذا لا تدخل إلى البيت؟" لاحظت وهي تجري أن ما كان سوراً من قبل لم يعد سوى نباتات وبرية، وعشرات من جذور الأشجار المتكسرة، وعاموديان مائلان بهما مفصلات تحملان البوابة البيت التي مازالت قائمة. في فناء البيت وخلف البوابة الخارجية مباشرة وقف طفل صغير ينظر إليهما. يقف على إحدى قدميه ويكاد يلصق الأخرى ببطنه،

ولا يكاد يرى من خلف المعطف الكبير الذي يرتديه.

رمقه "دافيد" باستغراب. إنه يجهل سنه وجنسه. يبحث في ذاكرته فربما يجده بين أحد الوجوه التي يعرفها والتي توارت في ذاكرته. كطوابع بريد خلف ورق شفاف، ثم سأله شقيقته: "تريزا! من هؤلاء الناس؟ أتعرفينهم؟ ماذا يفعلون هنا في بيتنا؟". ثم جذبها من معطفها، وانتظر ليرى ماذا ستفعل أخته. فهي تكبره سنا ويجب أن تفعل شيئاً أو تقول شيئاً.

اتكأت "تريزا" على بوابة البيت وهي تنظر إلى النباتات المتكسرة تحت قدميها، ثم تنظر إلى الطفل الحافي الذي يقف بلا حراك وسط الطين وسألته: "ما اسمك؟". عبس الطفل، وتمتم وهو ساكن في مكانه. وعندما تقدمت منه قهقه الطفل، وانطلق إلى داخل المنزل.

يوجد على يمين المنزل سقيفة صنعت من ألواح الخشب ورقائق معدنية، يتصاعد الدخان من سقفها. تتدلى على جانبيها أحبال، علقت عليها علب أغذية محفوظة وزجاجات يخيفون بها الطيور. لا

يغطي مدخل البيت الذي يضم مطبخاً غرفة نوم خاصة بالأم سوى بطانية. شرخ طويل يظهر على امتداد الحائط، وقطعة فرو تغطي إطار النافذة وقاعدتها. يقف خلف النافذة طفلاً مجهولاً، يرتدي معطفاً وعلى وجهه ابتسامة متكلفة.

خرجت بعد قليل من المنزل سيدة بدينة بعد أن أزاحت البطانية، كانت شبة عارية، تحمل دلواً في يدها التي تشبه النقانق؛ فذراعاها ضخمتان، وساعداها نحيفان، ينتهيان بأصابع، تبدو وكأنها غير مكتملة النمو. وضعت المرأة الدلو على الأرض، وراحت تصلح البطانية المثبتة على مسمارين مثبتين في إطار الباب.

سألتني المرأة بريبة قائلة: "من أنت؟"، كان واضحاً أنها تبحث هي الأخرى في ذاكرتها عن شيء يذكرها بهذين الزائرين.

أجابتها تريزا قائلة: " أنا هنا في بيتي". رغم ما قد يبدو غريباً من هذه الجملة فهي بالفعل كذلك.

قالت المرأة: "بالتأكيد! كثير من السكان كان هنا" ثم صاحت: " شتيفان! تعال، عندنا ضيوف!".

راح "دافيد" يشب بجسمه نحو أذن أخته الباردة وهو يهز يده ويسألها: "من هذه السيدة؟ إنها ترتدي قميص أمي، إنها ترتدي قميص أمي. هل تعرفينها يا تريزا؟!"

انصرفت المرأة إلى خلف المنزل، وهي تتحسس طريقها وسط النباتات، ثم ألقت بما في الدلو عند الشجرة. ظهر من خلف البطانية رجل نحيف وهو يزيح بيده الباب المعلق على حجرة المخزن. انطلقت من المخزن مجموعة من الأطفال وهي تصرخ، ومعهم فتاة وصبي يرتدي معطف كرنفالي أحمر.

سأل الرجل وهو يدفع الأطفال التي تموج من حوله مثل الخنافس.

أجابته "تريزا" بهدوء قائلة: "جئنا نلقي نظرة على البيت الذي ولدنا فيه... لم نأتي إلى هنا منذ وقت طويل، لذلك جئنا لأخذ بعض الأشياء. فقد تركنا خلفنا الكثير منها. وربما مازال هناك شيء". تخيلت أنها أمها وهي تبكي كمداً على أشياءها التي جمعتها، واحتفظت بها على مدى أعوام، والتي تعرضت الآن للتلف أو اختفت.

سأل الرجل بدون اكتراث أو تعجب:"بيتكم؟ هذا البيت؟ تعال انظري!" ثم رفع البطانية حتى يدخلا مع المرأة التي جاءت من خلف المنزل.

دخلت "تريزا" مع أخيها إلى المطبخ المفعم بالذكريات، ورائحة دجاجة أخرجوها للتو من ماء مغلي، وانتزعوا من عليها ريشها. جلست السيدة الغجرية عند الطاولة، بينما استلقى زوجها على

سرير والدة "تريزا" في وضع يمكنه من رؤية القادم. أسند رأسه على الحائط، وراح يدخن، ورماد السيجارة يسقط على الغطاء. غطائهم. كانت المرأة الغجرية ترتدي قميص نوم، كانت أم "تريزا" تلسبه. راح الرجل يرمقها متجهما. لقد أزعجتهم الزيارة، فقد كانوا يستعدون لتقسيم الدجاجة التي حصل عليها مقابل تنظيفه شواهد المقابر. كانت الدجاجة ملقاة على الطاولة، رأسها مدلاة من على حافة الطاولة، بينما الأطفال يجلسون تحتها ويخبطون رأس الدجاجة بأصابعهم القذرة. خافت المرأة أن يكون الزائرون من مكتب البلدية، فأنتابها القلق، وراحت تجوب أرجاء الغرفة. تنقل الأواني من موضع إلى آخر، ثم تصيح في الأطفال الذين انتشروا في الغرفة، يقطعون عليها طريقها. تترقب ما سيقوله زوجها. فقد كان دائماً المبادر بالحديث.

قالت "تريزا" بعد أن تقدمت خطوات نحو باب حجرة النوم المفتوح: "هل تسمح لي؟" أومأ الرجل برأسه وهو يتابع قدمي "تريزا". كانت الغرفة على حالها، تماماً كما كانت قبل أعوام مضت، لم يتغير فيها شيء. لم تتغير سوى النافذة المغطأة من الخارج بألواح خشبية. وخزانة الملابس التي صارت بدون أبواب. لاحظ الرجل اهتمام الفتاة بالنافذة فقال: "لقد غطيناها حتى لا يرى الصغار الحجرة من الخارج".

توجد خلف النافذة سقيفة. كان بها يوماً ما طست، ومرآة، ودلو للماء ومناشف معلقة على مسمار وكذلك طبق متهشم به صابونة. كانت هذه السقيفة بمثابة حمام لهم. غادرت "تريزا" الغرفة، ثم دفعت الباب دون أن تستأذن، ودخلت إلى السقيفة المظلمة التي كانوا يتصارعون كل صباح مساء من أجل بعض الخصوصية والنظافة. أما الآن فترى أمامها شابة تقف مع أحد الشباب، ومعهما ثلاثة أطفال.

قالت الشابة بأدب: "تفضلي بالجلوس يا سيدتي! سأعد لكي القهوة". ثم خطت خطوة إلى الخلف، واختفت داخل ظل الحجرة. أما الشاب فنهض من على المقعد وهو يزيل كسرات الخبز من على الطاولة، ويصرخ في الأطفال التي تحاول نزع كوب به حبات البن والسكر من يد أمهم. لم تسأل الشابة عن شيء. فهي تعرف ما عليها أن تفعله عندما يأتيها ضيوف. تعرف أن سبب حضور هذين الشخصين سيتضح أثناء تناول القهوة، وسيقتنع الجميع. قالت لنفسها باستسلام: "يا إلهي! فوضت إليك أمري! فلقد أوليتنا رعايتك على نحو أفضل مما نستحق".

قفز الأطفال فوق السرير وبعثروا غطاءه. راحوا يتابعون القادمين من ركن الغرفة. أما "دافيد" فكان يرقب سريره وينبه إليه أخته بإحدى الإيماءات.

وهمس وهو يشعر بالمهانة قائلاً: "إنه سريري". لكن "تريزا" وقفت صامتة تراقب المكان الذي كانوا يقطعون فيه الخشب ويرشونه بالمياه المفعمة بالصابون. مازال الطين ونشارة الخشب تلتصق بالأرض. أجابته "تريزا" قائلة: "نعم، إنه كذلك". لا تكاد تميز سوى القليل من الأشياء التي بالكاد تراها وتخصها هي وأخيها.

إن الشاب لا يعرف ماذا يصنع. فهو يتحرك في الغرفة. تارة ينظف الطاولة، وتارة أخرى يمسح الموقد المصقول. لكن ما أن راحت المرأة تعنفه، حتى جلس على الطاولة، وأشعل الراديو. تعرفت "تريزا" أيضاً على الراديو. كانت أمها تستمع إليه بإنصات شديد وهي تضع أذنها ملاصقة لسماعاته؛ حتى لا تفوتها أية كلمة. كانت تستمع إليه كل مساء وهي في السرير، أو عند الطاولة، تسجل الكلمات التي لا تفهمها. للحظة أصاب "تريزا" نوع من اعتلال الذاكرة، شعرت معه باستياء. وما أن تخلصت من هذا الشعور ظلت جالسة في مكانها، وهي على يقين بأن كل الأشياء في موضعها الصحيح، رغم أن الأمر لم يكن يبدو كذلك من الوهلة الأولى. فظلال الأشياء أصابها التشويه من حرارة الشمس، ولا يمكنها تبديله.

وبينما صفير الرياح الخفيفة يبدد الرائحة العفنة، والصبي يتابع إبهامه، والطفل يلهو في سريره ويبدد بيده الدخان القادم من المدفأة المثقوبة، كانت الفتاة الشابة تزيل بالملعقة حبات البن من على حافة الفنجان، وهي تتابع بترقب الشخصين القادمين اللذان التزما الصمت، ووقفا بلا حراك. ينظران حولهما. أدار الشاب محرك المذياع على محطة تبث برامجها للأقلية العرقية في المجر. يجلس على السرير بجوار الطفل وهو يحمل المذياع في يده. فجأة توقف الزمن للحظة على صوت مكتوم لمذيع معروف. هدأ الأطفال. ظلت الفتاة واقفة، ويدها مثبتة على حركة لم تكتمل. أغلقت "تريزا" عينيها وراحت تقول لنفسها "إنهم هنا في بيتهم، لكن أين بيتنا نحن ؟"

دخل "دافيد" إلى البيت مرة أخرى يبحث عن أغراضه. أشياءه الصغيرة اللامعة التي كان يجمعها وهو صغير. كان يعتقد أن أنها ستكون في مأمن وهي في البيت.

مازال الرجل يستلقي على السرير، والدجاجة تغلي في المرجل، والمرأة تجلس خلف الطاولة، وتقص الشموع.

عندما دخل الصبي إلى الحجرة سألته: "ماذا تريد؟"

أجابها: "جئت لأخذ بعض الأشياء".

"وماذا عندنا نعطيه لك؟ الماء مازال يغلي في المرجل والمذياع في أيدي الشباب". "يجب أن تصبر. فما عساناً أن نعطيه لك؟" ثم واصلت الحديث وهى تقطع الشموع وتعدها للجبانة "في جبانة: (بافلوفيتسا) لا نضع الشموع عند الأقدام بل على الرأس". أنهت المرأة حديثها، وهى تبتسم، وتتخيل نفسها في الصباح تسير في طريق صخري، وتقابل سيارة أخ زوجها القديمة التي اجتز سقفها. تجلس على المقعد الأمامي بجواره ليقلها إلى مدينة (بافلوفيتسا)، مرتدية الأوشحة. يجب أن تأخذ معها معطف المطر تحسباً لنزول الأمطار.

يمر في المدينة الصغيرة نهر ضحل. تحده في بعض الأماكن شطآن واهية مليئة بالزجاجات الفارغة، وخرقات بالية من القماش. يبدو مجرى النهر من طائرة رش زراعية وفي المنطقة المأهولة بسكان القرية كرجل انحنى ظهره، يسير بهدوء متكاسلاً. لا يصدر منه صوت إلا عند حوائط السدود. فيصدر خريراً وكأنه يحتج.

سارت "تريزا" مع "دافيد" قليلاً بجوار النهر، لا يلتفتان حولهما. شواطئ النهر تكسوها الأعشاب وتعلق ملابسهم بأشواك الشجيرات. تعثرت خطواتهم، فأسرعا نحو الطريق الأسفلت، وواصلوا السير عليه. امتلأ الطريق بحفر ملأتها المياه الراكدة التي تجمعت بعد هطول الأمطار بالأمس.

لم يلتقوا في طريقهم إلى محطة الحافلات إلا بإنسان واحد – عجوز نحيف. شوه أصابعه مرض التهاب المفاصل. عيناه عكرة مثل المياه في الحفر. كان قبل عام يعمل في تنظيف الطرق. يزيل الثلج، ويهذب أشجار البندق النابتة على الطريق إلى السد. كان يعدل من مرابط الحبال، ويرسم الخطوط في الملعب بالجير. وعند نزول الثلج يصب التراب على منزلقات الأطفال، لذلك لم تكن الأطفال تحبه. والآن هما سعداء برؤيته على قيد الحياة. ألقيا عليه التحية، ثم توقفا. لكنه مر بهما وكأن لا يراهما. توقف فجأة بعد أن تجاوزهم بعدة خطوات والتفت نحوهم وقال: "لقد جئتم متأخرين". تركت "تريزا" يد "دافيد" واتجهت نحو العجوز وسألته: "هل تذكرنا؟".

"لا أتذكركم. لكنكما لن تجدا أحداً هنا وقد قطعتما الطريق إلى هنا عبثا".

" نحن كنا نسكن في البيت الكائن عند المفترق، أحقاً لا تتذكرنا؟".

"لم يعد هناك شيء عند المفترق. لقد جئتما متأخرين. ولن تجدا أحداً هنا".

ثم مسك العجوز أصابعه المعقوفة في سرواله.

"إن بيتنا هناك، لقد ولدنا هناك. وقد انتقل إلى البيت أناس غرباء، ألا تعرف من أين هم...".

قاطعها العجوز وقال: "أقول لك أنه لم يعد هناك شيء" ثم فكر قليلاً، وأضاف: "ربما أعرفكم، وربما لاَ".

"هذا هو أخي "دافيد جوت" وأنا "تريزا".

"لا، أنا لا أعلافكما. لم أعرف أحداً بهذا الاسم كان يعيش هنا".

قال "دافيد" وذقنه يهتز كعادته عندما يشكك أحد في كلامه:"لقد ولدنا بالفعل هنا".

"أتعرف كم من البشر ولد هنا. لكن أين هم الآن؟ لقد رحلوا. رحلوا لعالم أفضل. إن المقابر لا يهتم بها أحد. حتى أنتما لا تهتمان لأمر المقابر، أليس كذلك؟ تقول إنكما ولدتا هنا، ولكن لماذا يسكن في بيتكما أناس آخرون؟ أمر لا يعقل... أنسيتما أن تغلقا الباب؟"

"لقد طالت غيبتنا عن البلدة..."

"تركتما البيت والمقابر تتعرض للدمار. مثل الغصن الذي تدوسوه بأقدامكما، والجذوع التي تطيحون بها. ثم سأل: "إلى أين ستذهبان الآن". استدار وخطا عدة خطوات ثم توقف من جديد وأضاف: "ما هو اسم عائلتكما؟ (جوت)؟ لا أتذكر اسماً كهذا رغم أني أذكر الجميع. إن ذاكرتي هي سجل لهذه المدينة. لم تكن هنا يوماً ما عائلة باسم (جوت). عودا إلى بيتكما. مع السلامة".

obeikandl.com

الأرانب

لحظة أن أمسك الفتى بكاحلها تذكرت "هيلينا" أبيها، عندما.

قرر صباح أحد أيام الخريف أن يتخلص من الأرانب. كانوا ستة أرانب متعددة الألوان. تسمروا في مكانهم من الخوف، وأبوها يلتقطهم من حظيرتهم الصغيرة، ويحملهم في سلة خلف المنزل عند جدول الماء. أرسلها إلى المطبخ لتحضر المناشف. كان عمرها وقتها ستة أعوام أو شيء من هذا القبيل. وعندما عادت إلى فناء البيت كان أبوها قد صنع من الحبال عدة عقد صغيرة متماثلة، عقد متناهية الصغر قام بتعليقها واحدة بجوار الأخرى على سور البيت. انصرفت لتحضر دلوا من المخزن، بينما قام أبوها بتعليق أرنبين من أرجلهم فوق السور. كان الدم يخرج من أنوفهم، ويتساقط في صمت على الحشائش النابتة المنداة. دفعت "هيلينا" الدلو تحت الأرانب دون أن تنبث بكلمة. وضعته في مكان يتساقط فيه الدم بغزارة. مسحت بقدميها بقع دم متجمعة امتدت من السلة وحتى سور البيت. أمسكت في صمت أحد الأرانب من أقدامه الطرية الدافئة عندما طلب منها أبوها ذلك، ثم فرجتها عن آخرها، وأمسكت بالأرنب حتى لا يقع من يدها. مرر السكين بطول الأرنب، بحيث لا يصيب اللحم، ثم سلخه عن جلده، بصورة تلقائية وكأنه فعلها من قبل عدة مرات. كان جسم الأرنب الأحمر الصغير قد صار بارداً، تحت جلده المغطى بغشاء أبيض مهترئ. تذكرت "هيلينا" الآن وبعد مرور أكثر من عشر سنوات أرجل الأرنب المنبسطة. تذكرت أيضاً قطرات المطر الصغيرة المختلطة بالدم. وبدلاً من أن تنهر الفتى ظلت ساكنة في مكانها بلا حراك. ولم يكادا ينظفا أرنبين حتى انتشر الضوء. صار الدم في الدلو لزجاً، ودكن لونه. لكن كان على "هيلينا" أن تنصرف لتلحق بالحافلة التي تقلها إلى المدرسة. انصرفت بينما علقت في يديها رائحة لحم الأرانب الطازج.

جلست "هيلينا" في الحافلة التي تحمل رقم ف٣س وتقف خلف المنزل عند جدول الماء. كانت السيارة مائلة على أحد جوانبها. تبلل الإطار الأمامي من جهة اليسار بماء الجدول، امتلأت الإطارات الأخرى بالثقوب ونثرت الماء على الحشائش والصخور، فصارت وكأنها عجين أسود. بدت مقدمة السيارة وكأنها سيارة "تاترا" القديمة؛ من الخلف عبارة عن صندوق من المعدن ذو ستة نوافذ، أبواب كبينة القيادة مفتوحة. تصدر أزيزاً كلما اصطدمت بها الرياح. كانت الحافلة بالكامل مطلية باللون الأسود باستثناء باب الكابينة الأبيض، كان متهشماً ومرقطاً، عليه حرفان كبيران كتبا باللون الأسود UN. وأسفل المقبض المنزوع شكل بيضاوي يوجد حرفي SK. كانت "هيلينا" تعرف

معنى الحرفين UN، لكنها لم تكن تعرف كيف وصلت هذه الحافلة إلى الوادي النائي التي تقطنه والذي تهجره الشمس قبل الوديان الأخرى بساعتين. لم تكن الحافلة التي تقف خلف بيتهم ملكاً لأحد. لذلك شعرا بأنها ملكاً لهما، وكانا يلاحقان كل من يصعد إليها من الأطفال. كانت أحياناً عندما تتشاجر مع أبيها حين تجده نائماً، ملطخاً بالطين ومستلق على حصيرة أمام باب البيت بين الأحذية مثل الكلب، أو حين لا يعود إلى البيت. عندها تأخذ من على الأرض غطاء قديماً ثقيلاً من معدات الجيش كان يلتحفه جدها. ثم تأخذ معه بعض علب الكرتون المفككة، وتنام في الحافلة. تلفها رائحة الغطاء المندى، وأحلام ثقيلة لا لون لها.

كان الصبي يتجاهل محاولات "هلينا" في امتلاك الحافلة، ويصعد إليها كلما شاء. في البداية كانت تطرده منها، وتطارده بالمقشة، أو تطلق عليه الكلب، أو ترميه بالقش المتعفن حتى يملأ التراب جسمه. لكن الفتى كان يتحداها، ويلتقط القش بيديه، ثم يلقي بالتراب المتبقي في راحتيه في الهواء أو فوق رأسها. خلع جميع المقابض التي كانت تحاول أن توصد بها السيارة، وصنع لنفسه مكاناً في كابينة السيارة. فرش أغطية المقاعد القذرة والممزقة بالجرائد، ثم غطى لوحة القيادة بملصقات علب اللبان. وضع تحت مساحات المطر صور البنات والصبيان، بعد أن اجتزها من على علب البسكويت.

كان يطلق على صورة الفتاة الموجودة على ورقة الكرتون اسم "هيلينا"، أما الصبي فكان يسميه باسمه. كانت صورة "هيلينا" متكسرة وباهتة، مشوهة من المطر. أما صورة الصبي فكانت في أفضل حال حيث علقها على مساحات المطر.

عقدا بعد فترة اتفاق بأن كلاهما لن يصعد إلى الحافلة بدون إذن من الآخر، ولن يسمحا لأي طفل من القرية أن يدخل إلى الحافلة. ولا حتى الفتيات الغجريات التي تسكن فوق التل، ولا حتى زملاء الدراسة. أحضرت "هيلينا" إلى الحافلة لوح خشبي طوله متران. كانت توصد به الباب في كل مرة تغادر فيها الحافلة. ثم غطت نوافذها بأكياس بلاستيكية، ودعمتها بألواح خشبية. أما الفاصل بين قمرة القيادة وصندوق الحافلة فقد غطته بالجرائد. ثم وضعت فيه مصابيح، وكراسات، وكتب، وزجاجات بلاستيكية ممتلئة بالماء.

بينما أغلق الصبي الكابينة بسلسلة معدنية. كان دائم التفكير في الجزء الخاص بـ"هيلينا" في الحافلة. يفكر في الثقب الموجود في ورق الجرائد التي تفصل كبينته عن باقي الحافلة. ذلك الثقب الذي لم تلاحظه "هيلينا"، ويزداد بمرور الوقت اتساعاً، كانت تفتحه وتهمس له قائلة: "انظر! حاول أن تلمسها، هيا!".

كان الصبي بعد أن علم بوجود الفتحة يقضي عدة ليال وهو يضع ساعديه على مسند المقعد. ينظر إلى صندوق الحافلة بلا حراك. يمسك أطراف الفتحة وخده ملتصقاً بالزجاج. ينظر في سكون حتى لا تصدر الجرائد من تحته صوتاً، يجعل الفتاة التي تهم في التجرد من ملابسها تحت الغطاء الأخضر تتوقف، وتطرده خارج الحافلة. وترميه بالخرقة المبتلة كما كانت تفعل معه وهو صغير، عندما كان يذهب ليسرق الفاكهة المطهوة أو المشروبات الكحولية من مخزن البيت. كان في جانب صندوق الحافلة مصباحان أو ثلاثة مصابيح مشتعلة. في العادة كانت الفتاة تخلع حذائها، ثم ترص الأحذية الملطخة بالطين متجاورة عند الباب. ثم تضع جواربها بجوار الأحذية على ورقة كرتون نظيفة وجافة.

كانت تخلع ببطء شديد معطف له أزرار داكنة اللون. يستمر هذا المشهد عدة دقائق بينما قدما الفتي تتجمدان ويدب الألم في فخديه وجنبه، ثم يصل إلى إبطيه وزراعيه وينتشر حتى أطراف أصابعه. تتخشب أصابعه ويصير لونها أحمراً قاتماً. كان هكذا يقف جاحظاً عينيه، ينظر إلى المنطقة التي تضيئها مصابيح خافتة، تومض بين الحين والحين، فيسيل الدمع من عينيه ويتدلى على وجنتيه خيطان رقيقان من الدموع، وتسقط الدموع على الجريدة فتطمس كلمات سوداء، لم يمر وقت طويل على تعلمه لها. فكر للحظة بأن الفتاة ربما عرفت أنه يراقبها، وتفعل هذا عن عمد حتى تضايقه. تلف أصبعها النحيف حول كل زر، ثم تحرره ببطء شديد من الفتحة واحداً تلو الآخر. لم يكن يشعر وهو يراقبها ببرودة جسم الحافلة المعدني بين إصبعيه، بل كان يشعر بموجة برودة. برودة كرات الثلج وحركة قطعان الإيل التي تتنقل بين الأشجار. تطوي الفتاة معطفها بروية، ثم تضعه على الغطاء، في المكان الذي تضع عليه رأسها حين تنام. كانت ترتدي تحت المعطف قميصاً، ومن تحته أشياء تصيبه عند رؤيتها بالدوار. لكنها لا تخلع القميص، بل تصلحه حتى لا يسقط من على كتفيها النحيفين، اللذان يظهر عظمهما، وكأنهما حمالة وضعت عليها قميصها. كان الفتى يرى بشرتها في ضوء المصابيح صفراء. ناعمة. دافئة. حتى تلك التي تغطي زراعيها العاريين وما ظهر منها خلف حبات العقد الذي حصلت عليه من زميلاتها، هكذا كان يرى بشرتها حتى على أطراف أصابعها التي تلف بها أزرار سروالها الذي ورثته عن أخيها. إن سروالها بالكاد يعلق بجسمها. ولا تحتاج إلى فك كل أزراره. فسوف يسقط من عليها بمجرد أن تحرر أحد أزراره. ثم تجلس على الفراش بقدميها العالقتين في السروال، تهز قدميها حتى تسحبهما من السروال، ثم تبسطهما في اتجاه الفتى. بعد ذلك تسوي السروال الذي تكرهه مثل باقي الأشياء

التي أخذتها عن أخيها. تضعه على قطعة من ورق الجريدة أو روق الكرتون. أنها تكره هذا السروال. لكن يجب أن تحرص عليه، لأنها لن تحصل على غيره في القريب العاجل. سرى الدفء في جسد الصبي، وصار الزجاج الفاصل بين الكبينة وصندوق السيارة مغطى بأنفاسه الحارة. استندت الفتاة على زراعها، وفتحت قدميها، وراحت تهزهما على إيقاع أغنية تهمس بها. تحاول أن تلتقط بإصبعها شيئاً من النفايات، بينما الفتى يتابع سروالها الداخلي الأبيض. مرسوم عليه حيوان ما في المقدمة أسفل صرتها. يرى خطاً يمتد من خارج خصرها وحتى ركبتيها، يرى آثار كدمات وخدوش. وما أن تتمكن من التقاط قطعة النفايات بإصبعها، تضعها على بعد عد سنتيمترات، ثم ترقد على جنبها، وتنفخ في المصباح.

ظل الفتى في مكانه عدة دقائق بلا حراك في نفس موضعه، أنفه ملتصقة بالزجاج البارد، شفتاه مبتلتان ورأسه يدور. يحاول استراق السمع، لكنه لا يسمع شيئاً. لا يسمع صوت الكلاب الضالة في طرقات القرية وصوت الجدول الغارق فيه إطار الحافلة والأحجار الباردة. ينسل بهدوء شديد من على المقعد بعد أن تسترخي قدماه المتشنجتان، وتسمحان له بالحركة. وهنا يشعر بشيء بارد ولزج بين فخديه. يظل للحظة جالس على الأرض بين مكابح السيارة وعجلة القيادة. يهمهم في نفسه، ثم يستريح في جلسته، ويضع يده في سرواله المبلل اللزج، وعضوه الذي يتصرف بطريقة غير طبيعية.

كان الفتى يقضي الأيام التالية المتبقية من الأجازة في السيارة. ينزع الصور من خلف مساحات المطر، ويضعها متجاورة على لوحة القيادة. ينظر فيها طويلاً ثم يلعب بها، يحركها بيديه وقدميه، ويضمها إلى بعضها كما يراهم يفعلون في التلفاز. وعندما تقطع يد إحدى الفتيان في الصورة يعيدها إلى مكانها، ثم يغطي صورة الفتاة بمنشفة ملوثة بالشحم. ينزع الجرائد من على المقعد، ويضع الشحم في الباب الذي يئز. يلهو تارة مع عجلة القيادة وتارة ينظر إلى الجزء الخلفي للسيارة من خلال فتحة الحاجز. يذكره الضوء الذي يتسلل من خلف الأكياس البلاستيكية إلى الحافلة بالمصابيح وببشرة الفتاة. يشعر وهو ينظر إلى الخلف وكأن كائن صغير ينهض لينهل من الحياة. يعتريه الخجل قليلاً؛ فيقوم بهز عجلة القيادة، أو يضغط على المكبح، أو يصدر صوتاً وكأنه نفير السيارة. أما الفتاة فتخرج من البيت، تحضر شيئاً أو تأخذ شيئاً. في النهاية تقترب من السيارة وهي ذاهبة عند الغدير لتغسل المناشف. هنا يختبأ الصبي تحت عجلة القيادة، يغطي فمه بإحدى يديه ويمسك بالأخرى عضوه.

وفي المساء يغادر البيت من جديد ، ويذهب نحو السيارة وهو يحني جسده حتى لا يراه أحد. يجلس وسط الظلام أسفل عجلة

القيادة وينتظر إلى تأتي الفتاة. ترفع لوح الخشب من على الباب وتدخل بمصابيح جديدة إلى السيارة. يعرف أنها ستأتي لأن الأمطار كانت تهطل في الأيام الثلاث الأخيرة وعندما ينزل المطر يبالغ أبوها في تناول الكحول.

ستأتي، وتبدأ من جديد في خلع ملابسها على مهل بطريقتها الرائعة. سيراها وهي تلوك البسكويت في فمها. ربما ستخلع قميصها أيضاً. أو ربما لن تتجرد من ملابسها فالجو بارد. ربما ستصفف شعرها أو تطلي أظافرها، كما تفعل فتيات المدرسة الثانوية في الحمامات. ربما ستمسك به، وتصفعه بخرقة مبللة. عندها سيخشى من أن يستيقظ ذلك المخلوق ويلتهمها عن آخرها، بمعطفها المزركش. ليتها تمسك به!

أمسكت به بعد أسبوع. كان الجو في الخارج بارداً، لكن ضوء مصباح الإنارة العامة يتمزق خافتاً على الزجاج الملطخ بآثار أصابعه، لكنه يسمح للفتى برؤية عالم رائع. ربض الفتى أسفل عجلة القيادة. أسند قدميه على باب الكبينة ويداه تعبثان بين فخديه. أحنى رأسه، لا يكاد يرى منه سوى ناصية رأسه المائلة بشعرها الداكن وأذناه الناتئتان. يتمنى أن تعثر عليه. فمنذ ساعة عندما توجهت إلى الجدول، كان باب السيارة مفتوحاً. يتراقص في هدوء وسط الهواء. أما الآن فهو مغلق. صوب إليه نظره للحظة، ثم أمسك المرآة العاكسة المهشمة. أسند إحدى قدميه على قائمة السلم، وترك الأخرى معلقة في الهواء. أعجبها مؤخرة عنقه، والدوائر التي تكونت في شعر رأسه. أعجبها منظره وهو يغلق عينيه، ويلقي برأسه إلى الخلف ويحركها من كتف إلى كتف، ثم يطأطئها حتى تكاد تلامس ركبتيه. أعجبها حدبات ظهره التي تموج مع كل حركة من رأسه. أعجبتها بشرته القوية الداكنة وهي تراه يتحرك طوال الصيف، لا يرتدي سوى قميص وسروال قصير فوق ركبتيه. راحت تنظر إليه وعيناها جاحظتان من الدهشة. فها هي تشعر بشيء دافئ ورائع يسيل أسفل بطنها. شيء جميل ومربك في نفس الوقت. تشعر وكأنه يسيل من جسمها كله. يلفها مثل الضباب الذي تغرق فيه الغابة ليلاً. يدفع شرايينها عالياً، ويشد عضلات جسمها، ويتحول في حلقها إلى كرة كبيرة ثقيلة. تمسك السيارة بيدها وأنفاسها تصوبها نحو الصبي.

وهنا يفتح الفتى عينيه، فيراها أمامه. خلف النافذة الملطخة بالأوساخ تقف الفتاة، التي ما انفك يفكر فيها بكل ما أوتي من قوة. ظل جالساً في مكانه لا يتحرك. يداه فوق بطنه وعيناه تجوبان النافذة بحثاً عن نقطة تسكنان فيها. راح يترقب الخرقة البالية هذا الصباح. ينتظر أن يطرد من سيارته المحببة "براجا". أغلق عينيه ينتظر. توقفت كل مشاعر جسده عن الحركة، تترقب معه ما

سيحدث. سمع باب السيارة الذي يعلق عليه قدميه وهو ينفتح، وقدم الصبية يلمس قدمه. جلست على مقعد السائق، وأسندت يدها على عجلة القيادة. سمع الصبي صليل حبات العقد ففتح عينيه ليرى بالقرب منه السروال الذي أخذته عن أخيها. قامت بتقصيره وتثبيت ثنيته بغرز بسيطة. يرى قدم تحاول أن تتحرر من الحذاء الملخ بالطين والقدم الأخرى خارج الحذاء، تنسل من الجورب بروية كالثعبان الذي يخرج من جلده. ثم تلامس بأصابعها الباردة قدميه المتشنجتين. وضعت الصبية رأسها على يديها المعقودة فوق عجلة القيادة. تخرج أنفاسها متلاحقة وغير منتظمة. تضغط بأصابعها الرقيقة على شفتيها، وتنتظر لمسة. هذا الانتظار هو الأسوأ من نوعه في العالم. استيقظت الشهوة من جديد، واشتدت عزيمتها مع كل لمسة. عثرت قدم الفتاة على يد الفتى اللزجة، التي فارقت الحياة من فرط السحر. دفعت قدمها لتنسل مثل القطة من بين بوابة مغلقة. مرر الفتى أصابعه على قدمها وطوق بها كاحلها الخشن، ثم استمر إلى ما سمح به سروالها. تعوقه المادة اللزجة على أصابعه، فينتابه الخجل. لكن ما أن تحرر الفتاة زر السروال، وترفع القميص حتى يرى سرتها، وبعض من سروالها الداخلي. لا يتردد. يلمس بأطراف أصابعه المرتبكة بطنها. ثم يمررها على نطاق سروالها الداخلي فيترك عليه آثار لزوجة. ثم يواصل لمساته فوق أسنان الزمام المنزلق، يمر بأصابعه على صورة الحيوان الباهت فوق ملابسها. شدت الفتاة عضلات جسمها كالوتر وهي تفتح عينيها، وتجول بها في الظلام لتتأكد من أنها وحدها، بمفردها مع الفتى. وقعت عيناها على صورتين كرتونيتين فوق تابلوه السيارة. رأت قطعة منديل ملتصقة على صورة الفتاة، وانفصلت يد الصبي عن جسمه المجعد. كان المكان الذي به تنورة الفتاة فوق ورقة الكرتون باهتاً، ملطخاً ببصمات أصابع. أما صورة الصبي فكانت خالية من أية آثار.

امتدت يد الفتي القابع من تحتها أسفل المقعد، حتى وصلت إلى داخل سروالها. رفع قميصها حتى بدأت تشعر بالبرودة. مررت يدها على شعر رأسه الداكن. أمسكت بالصور بين أصابعها، وراحت تتخيل أمها وهي تقصها بمقص الأظافر من على العلبة التي كانت تلهو بها، وهي تأكل قطع البسكويت. صار الفتى أكثر جرأة. راح يحاول النهوض على ركبتيه حتى يقترب منها أكثر. اصطدمت رأسه بعجلة القيادة. فضحكت الفتاة وأشارت إلى الصور التي عثرت عليها على علب البسكويت. بهت الفتى واحمرت وجنتاه. انتابه شعور بأنها أمسكت به أثناء فعل فاضح. أمسكت به وهو يلهو بالصور وسوف تسخر منه. ولولا صوت حبة جوز سقطت خارج السيارة، فلربما سمحت له أن يواصل، ولربما نال منها. وفجأة أسدلت "هيلينا"

قميصها ولملمت سروالها، ثم مسحت بيدها من جديد على رأسه كما تفعل أمها. ثم سحبت قدميها، وانسلت من السيارة في صمت. إنها ستأخذ معها أشيائها ولن تعود مرة أخرى إلى هذه السيارة.

مرت عدة أيام دون أن تظهر "هيلينا" في السيارة. أما الصبي فكان يذهب إلى هناك كل يوم. نظف المقعد والأرض، وأزال جميع الملصقات التي تذكرة بسنه من على اللوحة الأمامية للسيارة. تمنى أن يسقط المطر، أو يحدث شيء يدفعها إلى الحضور.

شاهدها عدة مرات في فناء البيت تحمل مقشة أو دلو. رآها تلاطف الأرانب، وتنظف حبات التفاح. يرقبها من خلف الستائر، وينادي هامساً: "أنا أنتظر، أنا هنا في انتظارك!"

بعد مرور أربعة أيام من الأسى، وجد على مقعد السيارة صور علب البسكويت، ملقاة في سرير بلاستيكي صغير تحت منديل. هذا السرير كانت تستخدمه "هيلينا" كعلبة تضع فيها لعبها. في تلك الليلة سقط المطر. ركع الصبي أمام "هيلينا"، وأمسك بكاحليها وهو يتابع أصابعه تتحرك. قدماها عاريتان والسروال ملقى مطوياً بجوارها فوق المفرش العسكري الأخضر. أسندت رأسها على جسم السيارة البارد، ووضعت مرفقيها على الأرض وهي تعبث بأصابعها في أزرار المعطف المفتوح. أغلقت عينيها وهي تحاول أن تضم ركبتيها الشاحبتين رغم صعوبة ذلك وهي في هذا الوضع. شعرت بالسائل يتدفق منها خلال سروالها. مرر الشاب يده بخشونة على كاحليها. مسح خده بساقها، ولعق بلسانه الطري قصبة ساقها الطويلة الصلبة. شعرت بلذة من لسانه البارد الطري على بشرتها. أظهر ضوء المصباح الوحيد لون بشرتها الفاتحة، وشعيرات جسمها التي تنتصب مع كل لمسة والكدمات الشاحبة. لم يجرؤ على أن يرفع رأسها لينظر إلى أعلى من ذلك. راح يتفحص كل سنتيمتر من جلد ساقيها، يضغط على أماكن المفاصل، والشرايين البارزة على مشط القدم، وتجويف الركبة. هناك شعرت بدغدغة في جسمها. مرر راحتيه على فخديها. وما أن وصل إلى نطاق سروالها الداخلي حتى فزع، وعاد سريعاً إلى ركبتيها. أسند جبينه على ركبتيها، ثم استنشق رائحتها بعمق. سرى في جسده شعور بالاستسلام. انفرطت أوتار عضلاته المتوترة. فسقطت على أرض السيارة القديمة متعبة ومسترخية. أمسك بكاحليها، وأبعدهما عن بعضهما بالتدريج، ثم أدلف جبينه بين ركبتيها ليوسع الفجوة بينهما. شعر بأن أنفاسه توقفت.

كانت "هيلينا" تفكر في الأرانب المعلقة على عقد الحبل الصغيرة. أجسامها الصغيرة الوردية تحرك رأسها المتدلية على السور بلا وعي. فروها ناعم مثل شعر الصبي. شعرت "هيلينا" برائحتها، بالدفء المنبعث منها. ولكي تصل إليها وتلمسها بيديها، كان يجب أن ترفع

يديها وهى مطأطأة رأسها. يجب أن تحرص على أن يتساقط دم الأرانب في الدلو الموجود على الأرض، وألا يسقط على حذائه. يجب أن تباعد بين قدميها.

ومن جديد أظهرا فخديها نفوراً وانقبضاً، رغم أنهما لا يتنفسان. حبست أنفسها وضمت قدميها، ثم رمت برأسها للخلف وراحت تبتسم. تسارعت أنفاس الصبي، وجاهد في أن يباعد بين قدميها حتى رأي سروالها المبلل، وبعض شعيرات فرجها. غرس وجهه في فخدها الساخن الطري وهو يستنشق عبير جسدها، ويفكر في البقعة المبللة، ولا يعرف إن كان هذا أمر طبيعي أم لا. أمسك بقدميها متباعدتين حتى لا تنفجر رأسه المندسة بينهما. جاهد حتى لا تنفجر خيوط سرواله. لكن على حين غرة بسطت "هيلينا" قدميها وفرجتهما. تحركت صوب الحائط قليلاً حتى استقرت في جلستها، ثم أمسكته بكلتا يديها من تحت إبطه، وجذبته نحوها. سالت على جسدها موجة من السائل الساخن. صارت الأرانب عارية تماماً. حمل أبوها الأرانب إلى المخزن. تخلصت من قميصها وتركته يملس على جسدها ويعصره ويلعقه بلسانه، تركته ينظر إليها وهو يلهث، يدلك حلمات صدرها. يمرر ظهر يديه ولسانه وشفاهه على كل مكان يصل إليه.

أدلفت يدها بينها وبينه، فوجدت السائل المتدفق منه. أمسكت عضوه الصلب الذي انتصب ليستمتع بالحياة. انتابت الصبي رعشة، وتوقف عن الحركة للحظة. انفك سرواله فالتقطه بمهارة بين أصابعه ودفعه على إلى أسفل وهو يباعد بين فخديها. يرى أن كلما صار فخديها متباعدان كلما تدفق السائل على جسمها، وصار أكثر غزارة. لاحظ الصبي الأمر، فأمسك بفخديها ودفعهما نحو الأرض إلى درجة جعلتها تشعر بالألم. لكنها لم تمنعه وازداد الألم. أنزلت عنه سرواله بقدميها، وخلعت قميصه بأسنانها. حلمات ثدييه صغيرة داكنة. وبشرته الناعمة لفحتها الشمس. باستثناء مؤخرته وفخديه. شعرت بوجود آثار عدة جروح ملتئمة برداءة، خدوش على ساعديه وظهره. تقدم الصبي إلى أعلى وهو ينفث أنفاسه في عنقها، ويلعقه بلسانه. كم تتمنى أن يضع أصابعه في فرجها، لكنها خائفة. لا تعرف إن كان هذا ممكناً، أو إن كان يرغب في ذلك. ولم يشعر إلا والفتاة تمسك بمؤخرته وتدفعه نحوها وكأنها تريد أن تلصق جسده بجسدها حتى تشعر بعضوه المنتصب. صارت مبتلة، وصار سروالها مشبعاً تماماً. أنزلت السروال حتى منتصف
فخديها وراحت تدلك فرجها بنفسها.

فكر إن كانت الفتاة تفعل هذا الأمر لأول مرة. لم يعرف الإجابة عن هذا السؤال. فهو لم يفعل شيئا كهذا من قبل. لم يشعر حتى برغبة فيه. لقد رأي أمه ذات مرة تستحم في حوض في المخزن. فلم

يكن عندهم حمام مستقل يوم ما. راح يراقبها عدة مرات من نافذة المخزن، لكنه لم يكن راض عن نفسه وعما يفعله. كان يستيقظ مبتلاً. فتوقف عن مراقبتها. ذات مرة رآها من فتحة باب غرفة النوم تقف تحت لوحة دينية كبيرة في إطار بيضوي. تجلس فوق رجل ضخم. كانت عندما يدلف عضوه فيها يسمع كل البيت صراخها. كان هذا والد الفتاة، وكانت أمه تضحك في حالة من الهستيريا. أو ربما كان رجل آخر. مرات كثيرة كان يسمعها من خلف الحائط تضحك وتصرخ وتلهث وكأنهم يسلخونها من جلدها وبعدها تذهب لتسخن الماء لتستحم.

توقفت "هيلينا" عن الضحك. صارت تلهث، وتحمحم كالمهر، تتشنج مثل وتر القيثارة المسروقة. ترفع منطقة الحوض وهى تلفها بيديه وشعره، تلتصق به، وهى تفرج فخديها كالبوابة الذهبية في الأحلام الوردية. تلتقطه ثم تغلق من جديد.

أمسكت به من خصره النحيف لترشده إلى ما يجب أن يفعله. تارة تجذبه إليها وتارة أخرى تدفعه عنها. مرة على مهل ومرة بسرعة. أما هو فينظر إليها مفتوح العينين. يتابع عينيها الناعستين، ويقرأ تعاليمها ونصائحها من فمها. حركاته غير ماهرة، في البداية لم يتمكن من العثور على الإيقاع الصحيح، لكن الفتاة بعد لحظة حررته. وضعت أصابعها في فمه أو غطت فمه المبتل بيدها حتى لا يسمع صوته. جذبت رأسه صوب ثدييها لتكتم أنفاسه العالية. يمكنها أن تقلبه، فهي قوية مثله تماماً. أرادت أن تجلس فوقه لتخبره أن هذا الوضع أيضاً جيد جداً. لكنها لم تتمكن، فقد أسرع الفتى الإيقاع، ولم يتركها تكمل فكرتها.

ولعدة مرات أخرى يولج بقوة ويغطي فمها بيده، ثم يلقي برأسه على صدرها الهائج. بعدها تحول إلى قطع صغيرة لجسد يرتعد من الإنهاك.

ظهر كلبان قذران يتسكعان حول السيارة القديمة. كلبان ضالان تبولا على إطارات السيارة المفرغة الهواء، ثم مسحا فمهما المفعم باللعاب على باب السيارة. رفعا رأسيهما نحو باب السيارة الموصد، ثم انطلقا في النباح وهما يقفا ينتظران. وبمجرد أن يفتح باب السيارة أنزلا زيلهما، وتراجعا بضعة أمتار في الظلام. جلسا على كومة حصى، وتركا الأطفال يحكمان إغلاق السيارة باللوح الخشبي، وكابينة القيادة بالسلسة الحديدية. عبرت الفتاة الجدول، ثم مرت بالحديقة واختفت خلف المنزل. وراحت الكلاب تتابع الصبي على أضواء الطريق الخافت حتى وصل إلى بيته. كان الهواء مفعم بالضباب وتتساقط الأمطار وأوراق الشجر.

ظهرت بعد أسبوع حول السيارة المعطوبة بعد غروب الشمس ما يزيد على عشرين كلباً أجرداً جوعاناً. انتشروا تحت السيارة وسط الأوراق المتعفنة، ينبشون طلاء السيارة بأظافرهم. يطاردون كل إنسان غريب يظهر وسط الدائرة التي صنعوها حول السيارة المعطوبة ببولهم وبالسوائل التي تتساقط من أرض السيارة المعطوبة.

obeikandl.com

فيرونيا شيكولوفا

Verona Šikulová

ولدت الأديبة "فيرونيا شيكولوفا" في عام ١٩٦٧ في مدينة "مودرا" السلوفاكية. درست الصحافة في جامعة كومينيوس بمدينة براتسلافا. بالإضافة إلى عملها كصحفية بدأت كتابة القصص القصيرة التي نشرتها في المجلات الأدبية. نشرت أولى مجموعاتها القصصية التي تضم أجزاء من سيرتها الذاتية عام ١٩٩٧ بعنوان (ظلال اللون). أتبعتها برواية (من النافذة)، والتي تعالج فيها حياة أسرة تضم أفراد ينتمون إلى ثلاثة أجيال. واصلت في عملتيها التاليين (قوس قزح القمر ٢٠٠٣) و (بيت بجرة قلم ٢٠٠٩) معالجة ما بدأته في أعمالها السابقة، حيث سلطت الأضواء على تاريخ مدينتها الأم "مودرا" التي تعيش فيها مع زوجها وطفليها.

رغم أن غالبية كتابات "شيكولوفا" عبارة عن قصص قصيرة، إلا أنها تستعمل جملاً مركزة، تحمل معان كثيرة، مكثفة في عبارات قليلة تقترب من لغة الشعر المجازية. تعتبر الأسرة مركزاً لكل القيم التي يجب حمايتها وتطويرها، تستمد من تجاربها الخاصة، ويومياتها موضوعات قصصها.

موسم الخيار

إنه الصيف. الجو حار. تتدلى مصيدة الذباب من مصباح في غرفة المطبخ. ذبابة مازالت تَطُنّ، ربما علقت بها. ستائر شفافة من النايلون معلقة في الغرفة، تحول دون دخول الذباب إلى المطبخ. جلست جدتي وأخواتي على سلم غرفة التخزين، ترتدين سترات المطبخ المزركشة. هدير القطار يملأ المكان، ربما يكون قطار للركاب، فالمسافرون يجلسون خلف نوافذه ليقلهم أو لينقل البضائع في العربات الخلفية. بعد لحظات تتحرك القاطرة وهى تصدر صريراً. ويأتي من عند المحطة صوت قلقة القضبان وهى تغلق. الناس يهرولون، أحد سائقي الدراجات يهم في سيره، ويقفز. وكأنه يريد أن يمرق سريعاً. أحياناً نفعل هذا أيضاً مع جدتي. نعبر القضبان بسرعة كبيرة، بينما يقف "يورا" و "أنتشا نشتيتسكا" في إحدى القنوات على جانب شريط السكة الحديد وهما يرشقان القطار بالحصي. على الطريق الزراعي تسرع شقيقتي "أجاتا" نحو المنزل وهى تحمل في يدها كوباً معدنياً. كانت قد ذهبت معهم لجمع التوت. سبقتهما إلى المنزل حتى تشتكي من أنهما عادا يرشقان القطار ويمشيان على قضبانه. انزلقت وهى في طريقها إلى البيت على ثمرات الكمثرى المتحللة، وكسرت ركبتها. نسيت مسألة الشكوى، وانفجرت في البكاء. جلست وسط الكمثرى، والدبابير والنحل يدوي من حولها. لا يوجد سوى النحل والدبابير والرصيف اللزج. شجرة الكمثرى عالية، ممتلئة بالثمار وطنين النحل. نهضت الجدة بعد لحظة من على سلالم غرفة التخزين وبدأت تجمع الفواكه المتعفنة وتضعها في الدلو، ثم دارت في فناء البيت وفي الشارع. "ماتوش" هو الآخر يبكي، لكن عند النبع. حيث طوال الظهيرة وأنا أنتقده وأثير حفيظته، أصدر له الأوامر هو يعارضني. ثم خرجت جدتي لتقطف الشِّبْث لتضعه في قاع كأس الخيار أو تجمع أوراق العنب، أو تجتز الفجل الحار. شاهدت "ماتوش" الذي أجابها قائلاً: "لا، لا، أنا لم أفعل شيء. "فيرونيكا" هى التي تستفزني". ضربته الجدة بالخرقة وقالت: سأوسعك ضرباً! حتى يكون صراخك مبرراً". صاح "ماتوش" قائلا: إنها "فيرونيكا"!. ضاع صوته وسط ضجيج القطار القادم. إننا نخلل الخيار. شجرة المشمش الضخمة تقف عند أطراف الحديقة. عالية كبرج المراقبة، ترى من عليها كل ما يقع خلف قضبان القطار. يوجد خلف الشجرة سياج به فتحة، تدخل وتخرج منها العمة "بيشكا" التي تورمت قدماها واعوجت أصابعها وطالت أظافرها. ابتسمت وهى تصيح من بعيد على الأطفال:أنا هنا! أنا هنا! -امسكوني! أسرعنا نحوها. إنها لا تحمل لنا شيء سوى ثمرات المشمش، ثمرات مختلفة وصغيرة وغير ناضجة،

تصلح أن تكون كرات للعب. أغلقوا فتحة السور بالألواح وهم يتشاجرون مع جدتي. راح العم "لاتسو" يحكم إغلاقها وهو يقول: لن تستعملوها بعد اليوم! "لاتسو" هو ابن السيدة "بيشكا". غير متزوج وليس عنده سوى كلب كبير، يسرق البصل والذرة. يأخذنا أحياناً على دراجته إلى منطقة "تشيرنا فودا" للاستحمام أو لصيد الأسماك. ابنها الثاني "بالو" يقضي عقوبة في السجن. لأنه صفع رجل شرطة أثناء حفله سمر. أحياناً يأخذنا "ميهال" للصيد في منطقة "تشينيشكو". زوجته "إيلونا" هي أكبر أخواتها، أحياناً تضع منديلاً فوق رأسها. ليس عندها سوى سن واحد غريب، وباستمرار تقول: هذه البنت "ايييفا" و "بيييلا" أو "يوجكو" أو "اااااريخ" مقرفون جداً. تأتي مع زوجها أحياناً لمساعدة جدتي في الحديقة. يجلس زوجها هذا مع الفتيات على الدرج. يشرب النبيذ الأبيض ويدخن. كنا نركب دراجته ونسير بها في الشارع. ونقوم باستفزاز "انتشا" و "بترا"، وهم يستفزوننا كذلك. ما عدا ذلك فهم يخرجون إلى الشارع في أوقات أخرى. يمسكون بقطع الكعك في أيديهم بينما أيدينا خاوية. أحياناً نذهب جميعاً إلى منطقة "تشنجيك" للعب بالزهور الشائكة. إنها تلسع بشكل فظيع. نلقيها كلها في القناة الموجودة عند السكة الحديد. الخالة "يولتشا" دائمة الشكوى من ابنها "شتيفان" الذي يعيش معهم في منزل واحد. ينادونه الناس في القرية باسم "بلموندو". تشتكي "يولتشا" حتى من شقيقنا "يورتشيك" الذي يسرق أشياءها، لكن جدتي تنهرها قائلة: "إنه ابننا الصغير!"

"ماريشكا بيخوفا" جارتنا. تطارد الدجاج في الشارع باستمرار. وتضرب الديك بمكنستها، حتى أن بعض دجاجاتها تهرب إلى حديقتنا وتختفي بين أشجار البطاطس أو الفراولة، وجدتي تندب وتضرب بيدها. يجلس زوجها "بيتشو بيخا" أمام المنزل وهو يرتدي قبعته ذات النطاق ويغط في النوم. أو ربما يتظاهر بالنوم حتى لا يساعد "ماريشكا". أحياناً تصرخ جدتي، وأحياناً أخرى تنظر من خلف السور وتقول: مسكينة! سقط ابنها "فلادوا" تحت الحافلة في مدينة "براتسلافا". إنها تضع صورته في خزانة الملابس، يظهر فيها وهو يرقد في صندوق كبير.

جارتنا الأخرى "مارجيت" تقوم برش الشارع. إنه وقت العصر والناس يعودون من العمل من مدينة "براتسلافا". يغادرون المحطة، ويمرون ببيتنا. يتوقف بعضهم للثناء على حديقة جدتي: حديقتك جميلة يا "يولانكا". بينما "يولانكا" تجلس مع إخوتي على الدَّرَج. أربعة نساء ترتدين سترات من القماش، منقوشة بالورود، ويطبخون الخيار إلى أن ينضج، يفعلون ذلك على مراحل حتى لا يتراكم عندهم. كل مرحلة عبارة عن حوض معدني صغير ممتلئ.

أحياناً تأخذنا جدتي بعد الظهيرة لنتناول الآيس كريم، أو نذهب إلى المتجر أو نذهب عند السيد "بيدنار" في محل الجزارة لشراء اللحوم أو السجق. يقدمون الآيس كريم من ماكينة عند النافذة تجلس بجوارها بائعة. جزء من قباعتها مثبت في شعرها بدبابيس للشعر. وعاء الآيس كريم عبارة عن طبق صغير من البسكويت، تبدو من بعيد وكأنها تصب الآيس كريم في راحتها مباشرة. تضع عليه الكريمة والمكسرات وكسرات البسكويت. عندنا في الحديقة شجرة توت. نجلس في الحديقة تحت الشجرة، وكأننا نستظل بستائر معدنية. تصيح جدتي في "فريشكو" وتقول: كُلْ هذا! ولا تسقطه على شجرة التوت! تتطاير الدبابير من حولنا. يوجد أمام البيت دكان للحلاقة، سنذهب إلى هناك يوماً ما لنقص شعرنا. غالباً نذهب فقط لكي يعرف الجميع أننا عند جدتي "يولانكا" في فترة الأجازة. يرتدي "ماتوش" و "يورو" بنطالاً قصيراً، إن شعرهما قصير. أما أنا و "أجاتا" فنحب أن يكون شعرنا طويلاً كالأميرات. لكن في نهاية الإجازة يكون شعرنا قصيراً مثل الخفاش الأصلع، ونصبح مثل "يورا" و "ماتوش". ننام نحن الأربعة في سرير واحد عريض. تأتي جدتنا كل ليلة لتخيفنا، رغم أنها تؤكد أن لا تفعل ذلك. تحكي لنا أحياناً قصة الفتاة التي ماتت أمها، فأخفت جثتها تحت السرير حتى عثر عليها الناس. أما هي فقد جاش في صدرها الحزن على أمها. شرع "ماتاي"، هذا المسكين، يتحدث على سفينة نوح والطوفان ونهاية العالم. أو عن شخص ما داسه القطار في القرية. أكثر الأشخاص الذين أخاف منهم هو "يورو" الصغير، لأنه أصغرنا جميعاً، وقليلاً أخاف من "ماتوش". أما "أجاتا" فلا خوف منها على الإطلاق. فهي تذهب مع كل من هب ودب إلى المرحاض، لا تنتظر، بل بالعكس تختبئ خلف الجدار ثم تخيفنا. أحياناً تقوم العمة "بيشكا" بتخويفنا هي أيضاً. تنسل من فتحة السور وتتسلق الجدار، ثم تصيح بأنها قادمة وهي تغني. جدتي تنام بملابسها الداخلية. تخلع ملابسها في الظلام، عندها تبدو مثل الشبح، لكنها أول من ينام، ونحن نوقظها.

في الصباح نذهب إلى "براتسلافا" للسوق كي نبيع المشمش والتوت البري. تأخذ جدتي واحد منا فقط معها. أما الآخرون فيظلوا نائمين، ثم تبدأ الفوضى بعد أن يستيقظوا. نقف في الممر في القطار فوق صناديق الفاكهة حتى نستطيع مغادرة القطار بسرعة في المحطة الفرعية. لا يوجد أناس كثيرون بالخارج، والجو بارد. أدهن فمي وأيضاً أظافري بحبات التوت. دائماً ما نبيع كل شيء، ثم نتوقف بعد ذلك في مكان ما لشراء طعام الفطور للآخرين. وعندما لا نذهب للسوق، تبيع الفاكهة نيابة عنا العمة "ماريشكا باباتشكا". ولا تعود إلا بعد الظهيرة في القطار التالي، بعدها يحب أن يرافقها أحد ليحمل

الفاكهة التي لم تبيعها: "اذهب لتدفع العربة! ربما تعطيك شيئاً! آه، حبات مشمش، مختلفة قليلاً عن ثمراتنا وثمرات "بيشكا"، طرية وحلوة وليست نيئة".

كل أهل القرية عندهم في البيت شحم وكُرّاث. تحتفظ به العمة "بيشكا" في ثلاجتها، تحتفظ به جدتي عند نافذة المخزن. أما الخالة "إيلون" و"بابتشكا" فيضعاه في وعاء خشبي. الخالة "إيلون" دائماً تقشر التفاح. والعمة "بيشكا" عندها أرانب برية والخالة "يولتشا" تجلس على الأرجوحة في فناء البيت. عند العمة "بيشكا" في مدخل الحديقة تمثالان لقزمين.

في الصباح يجلس عندنا كل الأخوات في المطبخ، يشربون القهوة ويغتابون الناس. الخالة "يولتشا" تهز قدميها من تحت الطاولة، والعمة "بيشكا" ترتدي خفاً بالياً، تخلعه تحت الطاولة، وتحرك أصابعها في كل اتجاه. إنها تروح وتجئ من فتحة السور، حافية القدمين. تجلس "إيلون" دائماً بعيدة عنهن وعن إخوتي. أما جدتي فلا تجلس أبداً. عندما تأتي من الغرفة يكون الجميع في انتظارها. أحياناً أنسل أسفل الطاولة، وأدعي أنني أبحث عن شيء. أحب النظر إلى أقدام الناس. هذه الأقدام تبدو وكأن شيء يؤلمها. عندما يأتي القطار تقوم السيدات بتوجيه أنظارهن إلى الأمام في صمت، بينما أقوم أنا بإحصاء العربات في سري. يوجد على الطاولة مفرش مخطط من البلاستيك. تهتز القهوة في الكؤوس بسبب القطار... بعد أن يمر، يبدأ الأربعة نساء في الحديث مرة واحدة، كل منهن في موضوع مختلف. بعد الفطور تنصرف كل منهن إلى شأنها، إما لتطهو الطعام، أو لتعمل في الحديقة. لكنهن الأربعة يطهين الخيار باستمرار. يطهون مربي المشمش. وبعد الظهيرة يعاودن الزيارة. يتحدثن أحياناً باللغة المجرية، وأحياناً باللغة السلوفاكية عما طبخوه اليوم أو ما فعلوه. أو يحكون ذكرياتهن عن العم "ميهال" وكيف أنه اختفى من مقطورة السيارة التي يقودها "إيلون" وهم في طريقهم لحضور عرس أمي في مدينة "دوبوفا". يتذكرن أخوتهن "ياني" و"لايتشي" الوسيمين. كان "ياني" يعمل في السكة الحديد. مات أيضاً في محطة السكة الحديد عندما كان يهم بالعودة إلى البيت. أما "لايتشي" فقد مات بسبب قصة عاطفية فاشلة. وفجأة وبدون مقدمات يبدأن في الحديث عن شجرة الطرفاء الموجودة عند النافذة، وكيف أنها توقفت عن النمو لفترة طويلة، وفجأة نمت وصارت بارتفاع السور. بينما "باباتشكا" تكاد تجن ولا تتحدث سوى عن "جاشيك" وأن لا أحد يعرف مكانه...

تأخذ جدتي بعد ذلك شقيقتنا "أجاتا" ويذهبن عند "جولدانكا" لتخرم لها أذنها حتى ترتدي قرطاً في الأعياد. تهرب منها "أجاتا" وجدتي تجري وراءها في الشارع وهي ترتدي الخف أو تمسك خرقة

في يدها وتهددها قائلة: انتظري إلى نعود إلى البيت أيتها الشقية! بعدها تجلس "أجاتا" تبكي عند النبع، بينما نهزأ منها أنا و"ماتوش" بصوت عال من فوق شجرة المشمش. جاء القطار. نرى "يورو" و"أنتشا" من فوق الشجرة يرشقانه بالحجارة. في المساء نستحم في برميل معدني تجمع فيه ماء المطر والناموس يتطاير من حولنا. لا شيء معنا، تلقي بأنفسنا في برميل بدون صابون ثم نخرج. عندما تأتي أمنا تسألنا، لماذا لا نستحم كما ينبغي في وعاء الاستحمام بالمطبخ. تجيبها جدتي بأننا قد ذهبنا للاستحمام اليوم في مع "لاتسو" في قرية "تشيرنا فودا". الطين هناك حتى الركب، لكن أمي لا تعرف هذا. تصب الماء من الدلو الموجود على المقعد في وعاء الاستحمام. نستحم جميعنا في هذا الوعاء. أبدأ أنا. فأنا أكبرهم. أكون حريصة على الاحتفاظ بأحمر الشفاه من عصارة التوت الذي وضعته على شفتي. آخر واحدة تستحم هي "أجاتا". رغم أن "يوريتشك" هو أصغرنا جميعا، إلا أن أجاتا دائماً ما تختفي أو تضل طريقها. تنظف لها جدتي ركبتها المتسخة، وهي تصرخ كالمجنونة. حان الوقت لنذهب إلى السرير. أما جدتي فتجفف الماء وتلقي به في الحديقة وهي تقول: لن تذهبوا مع "لاتسوا" للإستحمام بعد اليوم.

كان هناك دائماً شيء ما نقوم به. نجفف البصل، أو نعبأ حبات البركة، أو نغسل النوافذ أو نطلي بوابة البيت باللون الأخضر استعداد للأعياد أو نقشر الفاصوليا. أخوتي البنات يقلن أنهن لا يقشرنها بل يفككنها. نطحن المكسرات. وبعد الظهيرة نكسر أغصان المشمش، فكل يوم نطهو الخيار. تتوسخ ملابسنا وأجسامنا من أشجار التوت. ثم تأتي أمنا ومعها الكلب "تادينيك". أحياناً يأتي معها أبي، وأحياناً أخرى يأتي كل منهم على حده. لا شيء جديد يحدث عندنا في البيت. الكل في أجازة. أما والدي فمشغولان بكثرة أعمالهما. بالأمس قمنا عند الخالة "بيشكا" بخلط الكريمات. خبزنا الكعك وشربنا عصير البندق المحلى. بعدها انطلقنا مع جدتي عبر الحديقة. ضحكنا كثيرا. كان العمة "بيشكا" تربي أرانب برية. "أجاثا لم تضع أقراطها بعد. نسي "ميهال" أنه جاء بدراجته، لأننا خبأنها منه. لقد أحضر معه من "تشينيجك" أسماك صغيرة جميلة. هل تريد أن أحكي لك عما أتمناه؟ غرقت جدتي في التفكير... نأكل لحم البط المشوي والدجاج والحلوى والكعك. ستأتي إلى هنا من مدينة "بيشتيان" خالتي "كاتكا" وزوجها "شتيفان". عندها ينطلق "يوروا" و "ماتوش" مسرعين. يذهبان إلى العمة "إيلون" ويصرخان: "اييييفا" و "بيييلا" أو "يوجكو" أو "اااااريخ" مقرفون جدا... أجلس تحت الطاولة وأنظر إلى أقدام الجميع. أمي أظافرها مطلية. عندما يأتي القطار يصمت الجميع وأنا أحصي في سري عرباته.

سينتهي العيد مساء يوم الأحد. جلست على درج غرفة التخزين أنفخ البالون. أضاعت "أجاتا" العيدية في الحديقة. القديسة "آنا". قالت جدتي أن الجو في وقت الصباح يكون بارد. ثم أغلقت البوابة الخضراء ووضعت الماء للقنفد وبعدها بدأت النميمة الصباحية مع إخوتها. ربما يسبون أبناءهم.

انتهت الأجازات وكذلك الأعياد، واحدة تلو الأخرى. بعدها اختفت أخوات جدتي بستراتهن الوردية. لكن لفترة قصيرة – حتى الصيف التالي أو الزيارة التالية. إن جداتي دائماً تحلقن في السماء بستراتهن الوردية وكأنهن فراشات. العمة "ايولن" و "ميهال"، العمة "بيشكا"، هذه تأخذ "لاتسو" الذي كان يسرق البصل والذرة، ويأخذ الأطفال على دراجته للاستحمام في البحيرة. كان يضحك بصوت عال حتى عندما يثمل. يضرب كلبه وهو يبكي. كان يحبه وكأنه حصان.لكن لماذا يضربه وهو يحبه مثل الحصان؟ لأنه ليس عنده زوجة. هكذا قالت جدتي. بالتأكيد نادت علية العمة "بيشكا" من السماء وقالت له: تعال إلى السماء! لماذا تريد أن تبقى وحيدا؟ اختفت أيضاً العمة "يولتشا" ومعها "باباتشكا" – ذهبت إلى السماء تبحث عن حبيبها المفقود "جاشيك"، اختفت "ماريشكا بيخوفا" و"بيبتش"، ذهبا وراء ابنهما الذي داسته الحافلة في مدينة براتسلافا. انصرف العم "تسيريل" مع العمة "إيلكا" وكلابهما الرياضية، رحلت حتى جدتي "يولانكا".

لقد خرمت اختي "أجاثا" أذنها من وقت طويل، "بلموندوا يبيع الحلوى في موقف السيارات والرياح تهز أرجوحته في فناء البيت. أما شجرة الكمثرى اختفت. اختفت منذ وقت طويل من أمام فناء بيتنا".

أردت أن أقول لكم أن القطار، ولحسن الحظ مر بهذا البيت.

obeikandl.com

لهـو

كدت أرسب في مادة الفيزياء. اتصلوا بـ"مارك" ليأتي.

جاء مع أخيه. جلسنا عندنا في الغرفة الأمامية. فسأل "بوريس"، شقيق "مارك" إن كان "دوشان" يقرأ مجلة "ليمو". "دوشان" هو زوج أمي ويقرأ مجلة "ليمو".

رحت وأنا أشعر بأنني سأرسب في مادة الفيزياء أنظر إلى بوريس وأخيه، ثم إليهم الثلاثة، وإلى مجلة "ليمو" الملقاة على الطاولة.

أحياناً كنت أجد قميص أبي أو سترته في الحمام. أبي كان يعيش في "براتسلافا". تزوج هناك وبقيت أنا وحدي. أحياناً كان يأتي لزيارتنا ويقول: يجب إصلاح هذا البيانو. كنت أحياناً ألبس هذا القميص ثم أعيده. كانوا يقولون لي في المدرسة بأنني مجنونة. لكن في العادة كنت أرتدي أقمصة "دوشان". كانت جدتي و"أجاتا" وحتى أنا نسبب له إزعاج. تبثق في قهوته، ثم نجلس أمامه ونسأله: هل يروق لك طعمها؟ كانت جدتي تقول إن "دوشان" رجل أي كلام. كنت أقوم بأشياء مزعجة. لا أذهب إلى المدرسة. أحياناً كنت أكتب لأبي خطابات، أطلب منه فيها أن يعود إلينا. ربما أصبت بالجنون فعلاً.

جاء "مارك". ورحنا نرسم بقلم سنه غير حاد. ثم أخذنا نذاكر مادة الحساب، بينما أقوم باستنشاق رائحة شفتي على الدوام.

كانت أمي تقول: سوف تذاكرون مادة الفيزياء هذه أمامي هنا في المطبخ. ثم تجلس في غرفة الاستقبال، وتضع رجليها على الطاولة. كانت تجلس وتدخن السجائر مع "مارك" في الحجرة، وأحياناً تقدم له طعام العشاء. أما "دوشان" فكان يعمل في البيت. وأثناء الليل يقرأ جريدة "ليمو". كانا يستمعان معاً للموسيقى، يكن كل منهما الحب للآخر.

رزق أبي في براتسلافا بولد اسمه "ميشكا". وأحضره معه لنراه. سألت "مارك" قائلة:

- ما هو الفرق بين الصفر والعدد اللانهائي
- لا أعرف
- لا فرق بينهما
- لماذا؟
- بعيداً، في مكان ما بعيد يلتقيان...
- يظهران وكأنهما يتعانقان

أحياناً كنا نترجم قصائد للشاعر "ياسانين". كنت معجبة بقصيدته عن المرأة اللعوب.. لكن "مارك" لم يدعني أشتت أفكاره، فيقول وهو يعتقد أنه أوقع بي: انظري هنا!.

- انطقي كلمة "فُقّعة"
- لا، لن أقول
- بل قولي!
- لن أقول
- خلاص، قولي كلمة "قفعة"

وهكذا استمر الحوار.

في نهاية المطاف تخرجت في المدرسة الثانوية. كان يأتي على دراجته، وكأن الأمر صدفة. وأنا أيضاً كنت أخرج في نفس الوقت من المدرسة على سبيل المصادفة أيضاً.

بعنا هذا البيانو المعطوب. وأحضرنا من مدينة براتسلافا من محل "بيما" آلة كاتبة حمراء. أخرجناها في الحافلة من كيسها، ورحنا نكتب قصة بينما الحافلة تسير. كنت ألهو. قلنا أننا سنتوقف عن الكتابة، فلا يجوز أن نلهو في الأدب.

كنت ألعب مع "بوريس" على البيانو عند "يانكا"، جدة "مارك". مارك مثلي لا يجيد اللعب على البيانو. على عكس "بوريس" الذي كان يعزف بطريقة أفضل.

أما العجوز "بالو" فكل ما يقوم به هو الذهاب إلى العمل ومن العمل. بعد العمل يذهب للتريض على الدراجة، ويشرب النبيذ الحامض في الحانة.

بدأت في مرافقة "مارك" في أحد أيام الشتاء. كان الدخان يتصاعد من مداخن البيوت، بينما الثلوج تتساقط. ثلوج كثيرة! راح الجميع في بلدة "مودرا" في إزالته. كنت في بداية علاقة غرامية، رحت أقرأ الشعر. ذات مرة كادت كتلة جليدية مدلاة تسقط على رأسي. فصنعت منها باقة زهور. كنا أحياناً نتوقف عند العجوز "بالو" لننال قسطاً من الدفء. كان "مارك" يعزف على البيانو مقطوعات لبتهوفن. التقيت بصديقي السابق. ألقى بقبعته في الهواء من السعادة، لكنها اختفت. رحنا نبحث عنها وسط الثلوج أمام محل "كريم". كانت أمي تعمل في البيت في أيام السبت والأحد مع "دوشان". كانا يخططان للزواج والعيش في بيت واحد في أقرب وقت ممكن. أحياناً كنت أنا و "أجاتا" نساعدهما. لكن جدتي كانت تقول إن هذا لا ينبأ بنهاية سعيدة. في المساء كانت أمي تجلس في غرفة المعيشة وهي تضع قدميها على الطاولة، وتدخن السجائر. كنت أرافق "مارك" والثلوج تتساقط. بعد ذلك بفترة وجيزة تزوجنا. في

حفل الزواج عزف لنا أبي مقطوعة من موسيقى "أنتونين دفورشاك". كانت جدتي ترتدي نظارة سوداء، ولم تكن حالتها الصحية على ما يرام. أما دوشان فقد أطلق شاربه، وقتها كان قد تزوج أمي. نظهر في الصورة وكأننا عصابة مافيا.

تم حفل الزواج في البيت. تولت أمي و "دوشان" أمور الحفل. توفي جدي "بالو" قبل زواجي. لم يحضر الحفل من أسرة "مارك" سوى "بوريس". ولم يحضر الباقون. ذهبت أمه للعمل. رحنا نغني مع أبي ونتحدث طوال الليل. وأمي تصيح فيه على الدوام: "فينتسوا"! كفاك! حان الوقت لنتركهم وحدهم ، إنها ليلة العمر. خلعت ملابسي، وارتديت قميص "دوشان"، ثم ذهبت لمرافقة أبي إلى بيته على التل؛ حتى لا يكون وحده بما أنني تزوجت. ذهب معنا "مارك".

جلسنا في شرفة البيت نطالع مدينة "مودرا" من فوق التل، وقد ذهب نومي. كان فرش السرير جديداً، لقد اهتمت أمي بكل شيء. غلب "مارك" النعاس . أما أنا فرحت أبكي. هل سأتعود على الأمر؟. ثم دق أبي الجرس ليسأل إن كنا في البيت. كان يعتقد أننا مازلنا نائمين. كانت هذه أول زيارة نستقبلها!

– هل أجد معك سيجارة يا "فيرونا"؟

– أبي، أنت تعرف أنني لا أدخن.

– إذن سأذهب عند أمك، بالأمس رأيت عقب سيجارة كبير عند المرحاض. ربما أن أحدهم وضعه هناك وانصرف. موجود هناك على السور.

– اشتري أيضاً سجائر، حتى لا تخرج عبثاً، بالتأكيد هى سيجارة قيمة!

– سأذهب لإحضار عقب السيجارة، سأدخنه في الطريق ثم أشتري سجائر. لن أجد أحداً عندنا في البيت. لذلك سأعود إلى "دوشان"، فهو مع أمك في الفناء.

جلسوا جميعهم هناك. وحتى أبي و "مارك" يدخنون. أما أنا فسأنزوي في الخلف، وأدخن سراً خلف المرحاض. لن أكمل السيجارة، وسأترك عقب السيجارة كالعادة على السور لوقت الحاجة.

دفنا جدي "بالو" يوم الاثنين. عندما رجعنا إلى البيت رحت أنا و"مرك" نتجاذب أطراف الكلام وسط المفروشات الجديدة.

– هل نمت يا "مارك"

لقد راح في سبات عميق.

أحياناً يأتي عندنا أبي في الصباح، يدق الجرس ويسألنا:

هل أنتم نائمون؟ أردت فقط أن أطمئن عليكم! وكأنه يعرف أنني لم أستطع التأقلم بعد. أحياناً ينسى عندنا سترته أو قبعته. أقوم بارتداء السترة قليلاً، ثم أذهب لأعيدها إليه. أحياناً أيضاً أذهب عند أمي. أرتدي أشياءها أو ملابس "دوشان". ثم أتظاهر عن عمد بأنني نسيت أنني متزوجة. أحياناً تعطيني جدتي مئة كرون وتقول: حاجة بسيطة!

ربما تحاول؟

بعض الناس من حولنا يُجدّون في العمل طيلة حياتهم تقريباً. والبعض الآخر يهرب منه. تراهم منتشرون في الشوارع ملفوفين بملابس صوفية قديمة سوداء، مثل الفاصوليا بنية اللون. تراهم كذلك في الكنائس. تبتسم لبعضهم أحياناً، وتسعد أن تبادلك هي الأخرى الابتسامة. تعرفونهم منذ ما يقرب من مئة عام. وبعد قليل تختفي الجدات. ولا تجد أحداً تسأله أين اختفت.

كان نرى"يانكو" عندنا منذ أن كنا أطفالاً. يقال إنه كان يعمل سمساراً. يعرف جميع لاعبي كرة القدم والهوكي في العالم. كان صديقاً لبعضهم وخاصة السلوفاك منهم. كان صديقاً لنا أيضاً. كان يسكن في شقة أسفل شقتنا. كانت أمه، العمة "ايرنكا" تغزل لنا القبعات. تصنع لي قبعة لونها بنفسجي، ولأختي واحدة بيضاء. أخته "ميا" كانت مضيفة في الطيران، و"إنجور" أخوه يرسم لوحات رائعة. كان يجلس عند طاولة المطبخ مع أمي، ويرسم الورد على المفرش البلاستيكي، بينما العمة "إيرنكا" تتحرك عند فرن المطبخ.

عندما كانت تذاع مباراة على الهواء كان الصياح العالي ينطلق من شقتهم: جووووول! كان كل البيت يهتز، فينظر كل منا إلى الآخر ويبتسم. فنعرف أن "يانكو" يشاهد مباراة هوكي. أحياناً كنت أذهب مع أختي لزيارتهم. كنا نحبهم جميعاً. وكانوا يستقبلوننا في منزلهم وكأننا ضيوف أعزاء.

كانت "ميا" تتحدث معنا مثل الكبار، تدخن السجائر وهي تمط شفتاها وتطقطق بها، وكأنها ترسل قبلة لشخص لا نراه. كانوا يتابعون مع أمي مسلسل "خسائر ومكاسب". أحياناً كنت أتابعه أنا وأختي أيضاً، ونتشبث بباب غرفة الاستقبال الخالي من الزجاج.

كنت أقول لنفسي بأنني سوف أدخن. بعد ذلك بدأت بالفعل في تدخين السجائر. لكنني لم أطقطق بشفتي أبداً مثلما تفعل أخت "يانكو". ولم يكن عندي شعر أسود جميل كشعرها.

أما أباهم "يانكو" فقد كان يعمل سمساراً. كان يأخذنا معه مرات عديدة إلى ملعب كرة اليد في مدينة "مودرا". كنا نذهب مع لاعبي كرة اليد بأزيائهم الزرقاء في المسابقات والرحلات. تعلمنا هناك

كل الشتائم، ومختلف الكلمات القبيحة. وعندما نعود إلى البيت نمازح بها أبي وأمي. كنا نعود إلى البيت في حالة شديدة من القذارة. يوجد في مدينة "مودرا" فريق جيد لكرة اليد، وحتى اليوم ولاعبي كرة اليد يحملونا على أيديهم، وأحياناً يعطينا بعضهم علكة أو شيكولاتة أو عصا الرومبا.

أحياناً كنا نذهب إلى مدينة "براتسلافا" لحضور مباريات حقيقية لكرة القدم أو الهوكي. كنا نركب حافلة حقيقية، ونجلس في الصف الرابع بالحافلة لكي يرى بعضنا البعض، وحتى نتمكن من أن نتبادل الحديث. لم يكن "يانكو" يزعجنا في الحافلة بأوامره: لا تفعل هذا! اجلس! بل على العكس. كان يسمح لنا أن نفعل كل ما كانت تمنعنا عنه أمي أو أبي. الأهم أنني وأختي كنا نستطيع أن نتكلم ونغني بصوت عال في وقت واحد. كان جميع ركاب الحافلة معجبون بنا!

ذات مرة كنا في السيرك بمدينة "براتسلافا". كان توجد لافتة مكتوب عليها "سيرك هومبرتوا" في كل مكان. ذهبنا إلى هناك بالحافلة، وجلسنا في الصف الرابع. اشتري لنا "يانكو" في السيرك غزل البنات. صارت ثيابنا لزجة تماماً، وتطاير فوقنا قطيع من الدبابير. لم نستطع العثور على مياه ولا مراحيض. بعد ذلك بدأ العرض. راحت الخيول تجري في الحلبة، بينما تقفز إحدى المدربات من حصان إلى آخر وهي واقفة. أنسلت شقيقتي "أجاتا"، وراحت تجري بين المقاعد التي يجلس عليها المتفرجون. ذهبت أنا للبحث عنها، لأن "يانكو" لا يمكن أن ينحني لينظر أسفل المقاعد. رحت أحبو أنا الأخرى أسفل المقاعد. في النهاية وجدت "أجاتا" وقد تغوطت على نفسها، ولم تمسح مؤخرتها. نهضنا من تحت المقعد، ونحن نحاول العثور على مصدر الرائحة الكريهة. تولى "يانكو" زمام المبادرة، ونهض عائداً إلى البيت. رحنا نضحك في الحافلة بصوت مسموع. كانت رحلة جيدة.

في أعياد الميلاد كان "يانكو" يضعنا على زحافات الثلج لنتزلج. كان يجري معنا على كتل الثلج. اجري بسرعة يا "يانكو"! بسرعة! تظاهر بأنك حصان، ماشي؟

تدافعنا على الثلج ولطخنا به أنفسنا. أحياناً كان "يانكو" يأخذنا إلى معه عند أصدقائه لنرى شجرة الميلاد.

– هل زاركم بابا نويل؟

– لا، لم يزرنا بعد، ونحن في انتظاره.

الجميع كان ينتظر بابا نويل والهدايا. كنت دائماً أحرص على أن أظهر بمظهر طيب حتى لا ينساني بابا نويل. لكنه لم ينسى.

أحضر لنا ذات مرة حذاء حقيقي للتزلج. كنت أرى في التلفزيون "نيبيلا" يتزلج .كانت أمنية كل طفل أن يصبح مثله. حتى جدتي

كانت تتابع "نيبيل" عندما يعرضوه في التلفزيون، وهى تحبس أنافسها. لذلك ربما اعتقد بابا نويل أن واحدة منا قد تتعلم يوماً ما التزلج على الجليد بمهارة مثل "نيبيل". كان "يانكو" يذهب هو الآخر معنا للتزلج. كنا نتزلج فوق مياه البحيرة الزرقاء. دائماً ينتابنا شعور بالبرودة بمجردة أن نصل إلى البحيرة الزرقاء. كان الطريق إليها يستغرق دائماً وقتاً طويلا. فكنا باستمرار نتسكع ونتوقف في كل مكان. نعثر على أشياء غريبة، أو نفقد قفازاً ثم نبحث عنه طويلا. وأخيراً عندما نصل إلى البحيرة الزرقاء، نبدأ في الصراخ من شدة البرد. كان البرد قارصا. كان "يانكو" يربط لنا حذاء التزلج، بينما تقع كل منا على الثلج الصلب، وكأنها حبة كمثرى، نصاب في رأسنا قدمينا ويدينا وركبتينا. كان الصقيع يتسلل خلف أظافرنا. لم أكن أستطع حتى تغيير حذائي وأنا مخدرة هكذا من البرد. كان "يانكو" يفعل هذا نيابة عنا. انخفضت درجة الحرارة أكثر وأكثر واشتد البرد. بعد ذلك حملنا "يانكو" بين بيده. وكنا نقول له:

– احملنا مثل الأميرات!

كان يحمل واحدة في إحدى يديه، والأخرى في يده الثانية. فعلا كالأميرات. يحمل على كتفيه أحذية التزلج، وكل واحدة منا تغني له في أذنه أغنية مختلفة. ترتدي كل منا قبعة حاكته لها "إيرينا" أم "يانكو".

– أتعرفين ماذا ستقولين إن سألوك في "مودرا" وأنت عائدة من الكرمة إن كانوا قد بدأوا يعصرون العنَب؟

كنا نضحك ونقول له:

– نعم، يعصرونه في الجالونات.

كنا نذهب مع أبي في موسم جمع العنب إلى الشوارع، نهرب منه ونسرق عصا طويلة من كومة الأخشاب التي يجمعوها. نضعها على أكتافنا، ثم نذهب بها إلى أمي في حجرة الاستقبال.

كانت تصيح في قائلة:

– ألقيها في الخارج!

مازلت أتذكر كل هذا حتى اليوم.

بعد ذلك ماتت العمة "إيرينا". وصارت القبعات فجأة صغيرة علينا. فوضعناها على زجاج الباب. حتى "إيجور" مات هو الآخر. أخر مكان عمل فيه كان فندق جبلي في أحضان التل. كان يرسل لـ "يانكو" من هناك برقيات. تزوجت "ميا" في مدينة براغ. اختفت من حياتنا ومن بيتنا بشعرها الأسود الجميل وستراتها الجميلة الأنيقة. رزقت بولد اسمه "دافيد"، ثم بنت على ما أعتقد.

لم يبقى في البيت، في الشقة التي تحتنا سوى "يانكو". كنا نسمع من شقتهم صراخاً: جووووول! عندما يذيعون مباراة هوكي أو كرة قدم. كان "نيبال" أحياناً يظهر في التلفزيون، وهو يرقص ويسرع في حركاته. كانت جدتي تعد الكعك لـ "يانكو" في كل عيد ميلاد. كنا نضعه أمام باب شقته ثم ندق الجرس وننصرف، وكأن بابا نويل قد جاء ولم ينسى "يانكو". كانت أمي تقول إن "يانكو" رجل لطيف.

عندما كان "يانكو" يمرض يطوف بالشوارع، ولا يأكل شيئا. كنا نخاف عليه جميعاً. كانت أمي تقول إن "يانكو" يجب أن يذهب للعلاج. لم يكن يفتح الباب لأحد. لكنه دق بابنا على غير المتوقع. سحبته من يده إلى داخل الشقة، وأجلسته عند الطاولة وصنعت له قهوة. وضعت له قطعتا من السكر كالعادة. كنت مازلت صبية صغيرة. قطعت له قديد الخنزير على اللوح الخشبي الصغير، وأعطيته يأكل - تماماً كما تفعل جدتي، وأقول كما تقول: كُلْ هذه القطعة وهذه اللقمة! كُلْ أيضاً الخبز يا "يانكو"! فالخبز نعمة من الله! انصرف بعد ذلك. وفي اليوم التالي اقتادوه عنوة إلى المستشفى. كنت أنظر مع شقيقتي إليهم من النافذة .سار "يانكو" مرتدياً معطفه الداكن ورأسه منكباً. فلم يرانا.

رحت أبكي، كذلك بكت شقيقتي "اجاتا". استحثتنا جدتي قائلة: لا تبكين يا فتيات! فعن قريب سيعود "يانكو". وعندما كانوا يذيعون في التلفزيون مباراة للهوكي أو كرة القدم ،لم يكن يصرخ أحد في بيتنا ويقول: جووووول! كنا نذهب إلى مباريات كرة اليد بدون "يانكو".

عندما عاد "يانكو"، ألبستنا أمي ملابسنا وذهبنا لحضور حفل زواج مهاجم الهوكي الشهير "فاتسلاف نيدومنسكي". كان الحفل عندنا في مدينة "مودرا" في مقر اللجنة القومية. شهد على عقد الزواج حارس المرمى "فلاديمير تسوريللا" والمغني الشهير "بيتر نوفاك"، هذا المغني صاحب أغنية: قولي لي إن كنت تذكرينني وأنت تخلدين للفراش. "يانكو" وصديقاه. عقد القران في مقر اللجنة القومية في مدينة "مودرا"... عندما انتهى الحفل حملنا "تسوريللا" أنا وشقيقتي بين يديه كالأميرات، وأخذنا صورة مع العروسين. أين هي تلك الصور اليوم؟ مات "نيبيللا" وماتت جدتي أيضاً. كان أطفالي يحبون أن يلقاهم بابا نويل. صرت أخبز كعك العيد أنا الأخرى، أحياناً أرتدي سترة جدتي المزركشة. يزورنا "يانكو" أحياناً في المساء ونجلس جميعاً في انتظار بابا نويل.

أسمع صوت أجراس في الغرفة ...

أحياناً يسألني "يانكو" مازحا:

– أتعرفين ماذا ستقولين إن سألوكِ في "مودرا" وأنت عائدة من الكرمة إن كانوا قد بدأوا يعصرون العنَب؟

- نعم، يعصرونه في الجالونات.

obeikandl.com

تخاريف

في البداية كنا نسكنُ جميعاً فوق الشجرة. وكأنني هنا بينكم! في الواقع لا، أنا لستُ هنا. هاهي لعبتُنا قد بدأت. بدأت كلُّ الفتيات تنزلن بالتدريج من على الشجرة، لكني بَقِيتُ أسكُن فوقها. أراكَم جميعاً وكأنني في موقع إطلاق النار!

كانت "فلاستا" تجلسُ في الفصل عند حوض الغسيل. في البداية بدأ شعرُ إيطَنْها يَنْبُتَ. فكانت تدعونا جميعاً إلى أن نرى شعرَها النابت. أحياناً لم تكن تعرفْ هي نفسُها ماذا يحدث. كَبُرت صدورُ باقي الفتيات. أكبرُ ثديٍ كان عند "بلخا"، أما أنا فلم يكن صدري قد كَبُر بعد. كانت أختي أحياناً تتفحصُني في الصباح، بينما الفتيانُ يسخرون مني لصغَر ثَدْيَيّ. ذات مرة ذهبتُ إلى المدرسة وأنا أرتدي حمّالةَ صدر خاصّةً بأمي ووضَعْت فيها حَبّتَي لَيْمُون. كانت أختي تتعجبُ وتقول: حبتان من الليمون! أضف إلى ذلك أنني فقدت واحدةً منهما وأنا في طريقي إلى المدرسة.

تَبَقّى في زجاجةِ العصير بعضُ السائل الأسود. عندما تجلسون في صف الأغبياء يمكنُكم أن تَزعجوا الآخرين كما يحلو لكم. فالجميع يتوقع منكم ذلك. كنت أجلس في هذا الصف طوالَ العام تقريباً. علّمَني جارُنا "زرزينا" كيف أبْصُق من أنبوب القلم على الآخرين. في البدايةِ كانت هُناك مناديلٌ مبللةٌ باللعاب، ثمّ بدأتُ أستعمل الصلصال، الذي استبدلته بلحاء البرتقال وكان هذا أفضلُهم. كانت اللوحاتُ هي هدفي: "لينين"و "هوزاك" و "برجينيف" وزميلتي "فلاستا" عندما ترفع يدها. أحياناً كنت أرشُق فتيات أخريات. كان "زرزينا" يحضر حبات الشيكولاتة، وهي حلوى إيطالية. يَفْرِطُها في يده أثناء الحصة فأبحَث فيها عن حبات الجيلي بالمكسرات. كانت حباتُ الشيكولاته تذوب في راحتيه. أما أنا فكنت أكوِّرُها. وهو يسألني: هل مازال معكي؟ أجيبُه بالنفي، غير أنني كنت أحتفظ منها بالمزيد. أحياناً تتشابك أصابعُنا. في صف الأغبياء، مازالت في رجاجة العصير بقايا داكنة...

نَمَت صدورُ جميع الفتيات في الفصل.

كنا ننصرف إلى حصة التربية البدنية في الموعد تماماً. "هيا انطلقن يا فتيات! لكن بحرص! وَوفرواَ طاقتكم للنهاية!". كانت صدورُ بعض الفتيات تهتز بشدة. بعد انتهاء الحصة يفحص الفتياتُ في حجرة تغيير الملابس شعورَهم النابتة تحت إبطهنّ وفي أماكنَ أخرى. كان وجهي دائماً مكفهراً أثناء الجري وبعدَه. رَغْم ذلك كان "زرزينا" يقول إن لي أفضلُ عدّاءَة. على الرغم من أنني كنت آخرَ من يصل. أطول شعرٍ فينا كان شعرُ "ميا". كانت تقيم في شقة أسفلُ شقتِنا وكانت

فتاةً طويلةً. أحياناً كانت تعود في سيارة مع رجل غريب. كنا نجلس على المقعد مع السيدة العجوز "ناركيفكا" التي كتبت قصائدَ حزينةً طافتَ العالمَ ونشاهد معها كيف يُقَبِّل الناسُ بعضهَم البعض. بعد ذلك تَخْرُج "ميا" وهي تهز شعرها ثم تنصرف عائدةً إلى البيت. كنت أحياناً أذهب مع أختي وراءها. كانت "ناركيفكا" لديها سنّةً واحدة وحقيبةً مليئة بقصائد العشق بكل لغات العالم. كانت تفعَل كلَّ شيء بسرعةٍ شديدة. كانت تبحث في حقيبتها عن منْديل أو قَصيدة، تُمْسِك مِفْتاحاً أو قلما، وتضع على رأسها قبعةً من القَماش.

ثم مر العجوز "شورا" في المنتزه وكان أكثر غموضاً من "ناركيفكا". تبادلنا التحية. بينما السيدةُ العجوز "ناركيفكا" تقول لنا: أيتها الفتيات، أنتن أيضاً تتمتعن بكل شيء!" فتحت "ميا" النافذةَ وأشعلت الراديو بصوت عال وهي تطلي أظافرَها عند النافذة.

كان الشبابُ في فصلنا يذهبون لصيد الأسماك، وكانوا جميعاً يتابعون مبارياتِ كرةِ القدم. أما أنا فلم أكن أعرف سوى أسماءِ كلِّ لاعبي كرةِ القدمَ الإيطاليين. تعلمتها في مدرستي على الشجرة. رسوبٌ في كل المَواد وملاحظاتٌ لانهاية لها! لهذا لم يُشارك أحدٌ في الرحلة على سبيل العقاب.

عرضت لنا مدرسةُ الجغرافيا صوراً عن إيطاليا: "هذا هو بحر إيطاليا، وهنا أستلقي بجوار زميلتي مدرسة الجغرافيا على الشاطئ. وهذه الصورةُ لنا ونحن في السوق، انظروا إلَى هذا الكم من الأسماك! وفي هذه الصُورَة تجرِّبُ زميلتي مدرسةُ الجغرافيا فستانا وقد التصق الصلصالُ بثدييها". عندما أنطفأ جهازُ العرض ظهرت المدرسةُ وكأنها بقعةٌ على الحائط. إن صفَّ الأغبياء لا يشاركُ في الرحلة. سوف نقوم بتنظيف بقعَ الخضروات في المدرسَة! وفي الساعةِ العاشرة سأذهب لشراء الحلوى الإيطالية.

كنت أرشقُ الناسَ من فوق الشجرة بالأوراق فقط. وعندما لم تجد "ناركيفكا" أحداً يستمع إليها،كنتَ أقرأ شعَرَها بنفسي. كنت أحاولُ أن أصوبَ النِّبلَة على قبعتها فتسقط. كان "زرزينا" أفضل حالاً مني فأخذوه معهم في رحلة إلَى مصنع الحديد في مدينة "ترينتس" وصعدوا إلى الفرن. طلبت منّي "ميا" ألا أبكي وأخذت تُطْلي أظافري. بَقيت في الفصل مع من حصل على تقدير منخفض. وكان هذا أفضلَ وقْت مارست فيه رياضةَ العَدْو.

كنت دائماً أعتقد أنني أستطيع العدوَ بسرعةٍ كبيرة، غَيْر أنني كنت أرفع ركبَتَيَّ عاليا.

قال لي العم "شانيو" أن أبي كان عداءاً جيدا. رأوا ذات مرة وهم يرعون البقرةَ أرنباً بريا. فتجرد أبي من ثيابه تماماً حتى لا تعوقه وانطلق وراءَهُ. راح يجري ويجري. ثم توقف عندما أوشك على

الإمساك به. ولما سألوه عن السبب قال: خِفْت أن أمسك به. ربما أنني عداءة جيدة مثل أبي.

أقام الجميعُ علاقةَ صداقة مع بعضهم أثناء الرحلة. أما "بيتر فاخو" فقد قذف حبةَ البمب في غرفة المدَيرة التي كادت تسقط من الفزع وتساءلت: ما هذه الفرقعة! أَجْلَسُوه معي في صف الأغبياء. في أوقات الراحة كنا ننزع مادةَ الكبريت من على العِلَبِ ونضعها في ورق الألمونيوم لنصنعَ البمب.

كان "يودو" يُدَرِّس لنا مادةَ الفيزياء. أدرنا مفتاح المُنَبِّه وكأن جرسَ انتهاء الحصة يدق. فانصرف بكل وقار. ونال كلٌّ واحد منا صفعةً في مكتب المديرة. لا تعتقدا أنكما أذكياء! اذهبا فوراً ونَظِّفا صورة الرفيق "برجينيف" و "لينين".

في الصباح قابلت أختي في الحمام فسألتني: ماذا حدث، لاشيء؟ لاشيء.

لقد اخترعت "ناكريفكا" لغةً عالميةً جديدة، لكن أحدً لم يُصَدِّقَها. كانت تكتبُ بها قصائدَها وتلقيها عليَّ. كنت أفهمُها. تخاريف، تخاريف، تخاريف... جلست على الشجرة أعيد تشكيلَ لاعبي كرةِ القدم الإيطاليين حتى لا يزعجونني. كانوا أبطالَ العالم.

جاء المطرب "دروبي" إلى مدينة براتسلافا. شعرُه طويل وصوتُه أجش. سمعت له حواراً في الإذاعة مصحوباً بالترجمة، كنت أريد أن أصيحَ فيهم وأقول: لا تقاطعوه أثناءَ الحديث. كنت أفهمُه. سجلت أغانيه على وجهي شريط الكاسيت حتى لا أضطر إلى تشغيلها من جديد. اشتريت كتابَ "تعليم اللغة الإيطالية بدون معلم" وكتبت له خطابا. في بداية الخطاب كتبت له: "أحييك من كل قلبي". لم أجد في الكتاب عبارةً تقول: أبي يعملُ أديبا، فكتبت له أن أبي عاملٌ في مصنع وشيءٌ آخر أملته علي "ناكريفكا". تخاريف، تخاريف، تخاريف! أرسلت الرسالة إلى مدينة تورين،

لأنهم تحدثوا عن هذه المدينة في الإذاعة، ورحت أنتظر الرد.

عندما تطلون أظافرَكُن، فلا بد أن تهززن أيْدِيَكُن حتى يجف الطلاء. خبطني "فاخو" وكأنه يَخْبِط على سنابل القَمح فوقَعْت على فأرة النجار!

وفجأة جاءني الرد من إيطاليا. لقد رُدَّت إليَّ رسالتي مختومةً بأختام إيطالية. بالفعل وصلت الرسالةُ إلى مدينة تورين، لكنهم لم يعثروا عن "دروبي" وأعادوا الرسالةَ إليّ. لكنني لم أفتحها، كانت رسالةٌ عزيزةٌ على قلبي.

اجتزت امتحان الثانوية. كان أحد الأسئلة يقول: ما هو أطولُ ضلعٍ في المثلث؟ إنه الوتر ذو الزاوية القائمة. قلت لنفسي: خسارة أن اسمي ليس وترا!

سافر "دروبي". وقع النبيذ من أبي على حزامي.

ماتت "ناكريفكا"

قدم "زرزينا" طلباً للالتحاق بمدرسة صناعية، أما "فاخو" فقد عمل منظفاً للمداخن.

اختفت كراسةُ التقييم من مَدْرَستي على الشجرة .

فزت في بطولة العدَو، وألغوا صفَّ الأغبياء. قال لي "يودو": "أعطني هذا النِّبلة وتصرفي مثل بقية البشر.

أجلسوني بجوار "فلاستا"، التي يدعونها باستمرار قائلين: "فلاستا! ارفعي يدَك! كنت أهمس في أذنها لترفعها حتى أرى الشعرَ الأصفر تحت إبطها. دائماً كنت أشعر وكأن كلبٌ ينظر إلى من تحت زراعها.

ذات مرة رأيت "ميا" تغادر السيارة والدموع في عينيها ثم حملوها من شقتها على حمالات. وعندما عادت من المستشفى قالو لي: لا عليك! يوماً ما ستتعرضين لمثل هذا الموقف.

اشترت لي أمي موقداً ماركة "دروبي". في أوقات المساء كنت أتصفح كتاب تعليم اللغة الإيطالية بدون معلم، وفجأة بدأت أفهمُ كلَّ شيء.

مر وقت طويل لم أتواجد فيه على الشجرة.

وقعت في غرام "دروبي". أسرعت إلى البيت عائدةً من المدرسة حتى أتمكنَ من الاستماع إليه. قمت بطلاء أصابع قدمي.

جلست في السرير أحرك قَدَمَيَّ حتى يجف الطلاء وفجأة أشعر أنه الآن، والآن فقط أن صدري بدأ يكبر. ها هو صدري يكبر.

وكأنني هنا بينكم! في الواقع لا، أنا لست هنا.

obeikandl.com

يانا بنيوفا

Jana Beňová

يانا بنيوفا (١٩٧٤) هي شاعرة وأديبة سلوفاكية. تخرجت في أكاديمية الموسيقى والفنون المسرحية في براتسلافا عام ١٩٩٨. نشرت أولى أعمالها الأدبية في مجلة (لماسات)، ومجلة (رؤى سلوفاكية). تعمل في الوقت الحالي محررة في جريدة "نحن" اليومية، وتكتب فيها تحت اسم "يانا باركروفا".

نشرت في عام ١٩٩٣ أولى مجموعاتها الشعرية بعنوان "المشرق الخجول"، تبعتها في عام ١٩٩٧ بمجموعة "المسافر" والتي تصور فيها لقطات من سيرتها الذاتية، تتحدث فيها عن العلاقات الإنسانية، والحب. توالت أعمالها الشعرية حتى أصدرت في عام ٢٠٠١ قصة نثرية طويلة بعنوان "باركر، حكاية حب". أصدرت في عام ٢٠٠٣ مجموعة قصصية أخرى بعنوان "اثنا عشر قصة و"جان ميد". وفي ربيع عام ٢٠٠٨ أصدرت آخر أعمالها، وهي رواية "خطة المرافقة" التي تعد واحدة من أهم الأعمال النثرية السلوفاكية المعاصرة.

obeikandl.com

obeikandl.com

جان ميد (ممنوع اللمس)

أول مر التقى فيها "جان ميد" مع "موندو" عندما كان "موندو" يسير بمجازاة شاطئ البحر، ويمسك اسطوانة في يده. على الفور تذكر "جان" رجلاً على إعلانات أولى الألعاب الأوليمبية. رجل ذو جسم أسمر وذراعين طويلتين. عيناه مصوبة نحو السماء، ويمسك باسطوانات في يده. اسطوانة تشبه قرص الشمس، ودوائر كالأجنحة، أو مثل الموجة تأتي حيناً، وتتراجع حيناً آخر. كوجه إنسان، تظل سماته مطبوعة علينا.

كان لون الاسطوانة التي يحملها "موندو" أسود. كتب على أحد جانبيها بأحرف ذهبية صغيرة "جسم مشبع بثاني أكسيد الكربون، مضاد للحرارة، وقابل لإعادة للشحن". من الطبيعي أن تكون الاسطوانة عبارة عن جسم مشبع بثاني أكسيد الكربون، ومضاد للحرارة. لكن الغريب كلمة "قابل لإعادة الشحن"، وهى كلمة تعبر عن القدرة على اكتساب شيء من جديد. عندما اقترب "موندو" لاحظ "جان" أنه مشغل اسطوانات. وبسبب السماعات التي وضعها "موندو" في أذنه لا يسمع بالتأكيد صوت البحر بجواره، ولا لتحية التي ألقاها علية "جان" بصوت منخفض. لم يكن يعرف تلك الأغنية الطويلة التي يسمعها "موندو" منذ عدة أيام على الدوام. الأغنية التي يكرر فيها المطرب جملة واحدة – أنا العين اليسرى وأنتِ اليمنى.

شعر "موندو" بأن هذه الكلمات هي رسالة هامة.

الغريب ليس ما يقوله المطرب، بل الغريب هو أنه موجود من الأساس.

ينتابه منذ عد أيام شعور غريب بالقلق، تحول إلى كابوس. كان "موندو"يشعر معه أن عليه أن يسلم هذه الرسالة لشخص ما، وأن عليه أن بلا وجل أن ينزع هذا المشغل من يده، ويضعه في يد شخص هو جدير به.

وضع المشغل في البيت جانباً، وانخرط في العمل. راح يعمل شأنه شأن أي عضو في الأسرة. عندما أصاب الجزيرة التي ولد بها "موندو" الثراء من عائدات السياحة، إلى درجة جعلت كل سكان الجزيرة أغنياء، بدأ السياح يشعرون بالضيق، بدأوا يشعرون بالحنين إلى ذلك الإنسان البسيط الفقير على هذه الجزيرة، الذي لا يعرف الإنجليزية، ولا الألمانية، ويرتدي ثياباً بسيطة ،ويعيش على الأرز المغلف في أوراق العنب.

افتقدوا حتى هذا الحرمان التي يغذي الحقد، الذي كان سكان هذه الجزيرة يظهرونه من وقت لآخر للسائحين. عندما كانوا

يصفعون نوافذ بيوتهم في وجوه السائحين عند رؤيتهم لهم، وهم يحاولون النظر إلى ما فيها، ويعلقون قائلين: أسرعي يا حبيتي، انظري كيف تعيش هنا في الداخل أسرة طبيعية. أو تلك النكات التي كان يطلقها سكان الجزيرة على السائحين. كانوا يعلقون على الأبواب لوحة عليها عبارة: (الاستعلامات)، ومن تحتها بالبنط الصغير (غير متاحة هنا).

لكن مع مرور الزمن أثري سكان الجزيرة من السائحين، إلى درجة جعلتهم لا يختلفون عنهم كثيراً. راحوا يعلقون على محلاتهم لوحات تحمل عبارات "الصمت مصدر الثراء"، ثم قاموا بتأسيس مكاتب استعلامات، يقدمون من خلالها معلومات عن الإقامة على الجزيرة. مثلاً ثمن علبة السجائر في ألمانيا تعادل قيمة صندوق كامل على الجزيرة، وعلى العكس زيت الزيتون أرخص بثلاثين في المئة في مدينة هامبورج. وأن المشروب الكحولي "ميتاكسا" يباع بنفس السعر في كل مكان.

بمرور الوقت انزعج السائحون من هذا الأمر. لذلك قام سكان المدينة بغرض اجتذابهم بتأسيس أحياء تعيش فيها الأسر الفقيرة، وتمارس حياتها العادية. كان ابن "موندو" يعمل ممثلاً في أحد هذه الأحياء. كان يرتدي ملابس رجل فقير، لكن في صورة شاب نظيف الملبس، يكتب الواجبات المدرسية على طاولة المطبخ، وأمه تجلس بجواره تنظف البنجر، أو حتى الجزر، وأحياناً تمرر يدها المتشنجة على شعره. وعلى الأريكة يرقد طفل صغير، بينما تجلس الجدة على المقعد، وتشاهد تلفزيون صغير أبيض وأسود، لا يصدر منه صوت. تجلس الجدة وهي تحيك قبعة، بينما قطة صغيرة تلعب عند قدميها. الأب يعود إلى البيت في الساعة الخامسة، وهو يحمل السمك الذي اصطاده. يجفف جبينه ثم يأخذ زوجته وابنه وطفله في أحضانه. وفي النهاية يلاطف القطة. كانت نوافذ البيت مفتوحة، بينما السائحون يتدفقون بهدوء؛ ليشاهدوا ما يحدث. من وقت لآخر كان الأب ينظر من النافذة، يرمي نظره بعيد من فوق رؤوس السائحين. أصيب "موندو" بالضجر من هذا العمل، لم يكن يربطه به سوى العائد المادي الكبير.

لم يكن "جان ميد" يحب عمله هو الآخر. إنه قادم من بلد كل من فيه يعمل في صناعة الأحذية. إما أنهم يصنعون الأحذية، أو يجربونها، أو يبيعونها، أو فيهم من يشتريها مثل "جان ميد". كان عمل "جان" عبارة عن أنه كان يقف أمام واجهة العرض، ويعرب بصوت مسموع عن إعجابه بالأحذية، ثم يدخل إلى المتجر يبدأ في تجربتها واحدة تلو الأخرى. في البداية يلبس الحذاء في قدمه اليمنى، ثم اليسرى، ثم يمشي قليلاً في المتجر وهو ينتعلها، ويفكر ويحاول أن

يعرف إن كانت تناسبه، يحرك فيها أصابعه، ثم يخلعها ويلبسها من جديد – وفي النهاية يشتريها.

إن البلد القادم منها "جان ميد" بلد يغلب عليها اللون الأخضر، والبني، والأصفر، الجو رطب ومظلم طوال العام، ينتشر فيها الضباب ويكثر المطر.

عزاء سكان هذه البلاد الوحيد هو تناول العنب العذب، كثير العصارة، وأكل جوز الهند الذي يمكن بسهولة الحصول عليه وهو مازال غضاً وسهل الأكل، وتناول العنب وهو في بداية نضجه برائحته الأخاذة.

إن القطط والكلاب الضالة في هذه البلد تعطس وتسعل، تماماً مثل البشر، ترتسم تحت أعينهم قنوات رطبة وسط شعيرات وجوههم، تجمدت الدموع في أعلاها وأسفلها .

لا أحد هنا يدخن؛ لأن السجائر الرطبة لا يمكن إشعالها بكبريت رطب. الناس هنا يبدون وهم يرتدون سترات المطر وأغطية الرأس كأنهم أعضاء فرقة دينية. طابور البشر المبللين بعد وصولهم إلى البيت، أو دخولهم إلى البارات، أو المقاهي يتحول إلى طابور من البشر الذابلين.

لهذا السبب كان "جان ميد" يهرب دائماً مرتين في العام إلى جزيرة مشمسة، غارقة في ضوء الشمس. كان ضوء الشمس على الجزيرة قوياً إلى درجة أن كلمة ضوء تعبر فقط عن جزء من هذه الحقيقة. ربما تكون كلمة شعاع أدق في التعبير.

كان "ميد" يحب الشمس إلى درجة كبيرة. كان على قناعة بأن البحر من أوفى الأصدقاء الذي قابلهم في حياته. كانت سلواه الوحيدة دائماً كلما ودعه أن البحر سيكون في انتظاره. وأن مشاعره تجاهه لن تتغير. من أجمل المشاهد التي علقت في ذاكرته هي صورة خيوط ضوء الشمس تحت الماء. تلك الخيوط التي شكلت على يديه المطمورة في الماء أساور ضوئية لامعة.

كان (ميد) يقول لنفسه هو سعيد ومنتعش بعدما يخرج من البحر ويتجه نحو الشاطئ: "ليتني أملك المال لأصور فيلماً أسميه "عمال البحر". تدور أحداثة في شهر يوليو أو أغسطس. سيكون فيلماً تسجيلياً عن الناس الذين يقضون أجازتهم، ويمضون الأيام كلها تحت الشمس، أو يسبحون في البحر. وفي المساء يواصلون وردية ليلية، يسيرون على الشاطئ بمحاذاة الماء، يجمعون الأحجار والقواقع. لكن كيف يمكنني أن أصور الموج، الموج الكامن في الإنسان وهو يذهب إلى مخدعه بعد أن قضي اليوم بأكمله في السباحة في ماء البحر، وقد شكلت الأمواج إيقاع أعضاء جسمه كلها؟"

أحياناً يذهب "جان ميد" في المساء للتسلية. يقضيها على الرصيف المقابل له. يقف على الرصيف أمام المطعم يحمل لافتة تقول "أفضل حفل راقص في المدينة". لم يكد السائحون يشرعون في الأكل والشرب، ولم تنمو عندهم الرغبة في الرقص بعد. العاملون يسرعون بينهم بهمة. يتراقصون، ويرفعون أيديهم فوق رؤوسهم. يصفقون. يحاكون أشكال راقصة. أما "جان ميد" فيقف على الرصيف المقابل، ويشرع في الرقص. يبدأ أولى رقصاته بنوبة من الضحك.

غير أن بعض الأمسيات كانت تمر عليه حزينة. إنها تلك الأمسيات التي كان يجلس فيها "جان ميد" في الشرفة المطلة على البحر. يراقب متجراً أمامه، وهو يشرب النبيذ. إنه الظلام وأضواء المتجر مضاءة. يرى كل ما يتحرك أمامه. كل ما يظهر في النور وكأنه يجلس أمام شاشة السينما. بالفعل يشعر وكأنه يرى سينما. كان "جان ميد" وهو شاب صغير يراوده كثيراً حلم عن شاشة سينما ضخمة وسط البلدة. وقتها لم يكن يعلم بأن شيء كهذا موجود بالفعل في أمريكا يسمى سينما السيارات. غير أن أسوأ ما في الأمر أنه بعدما يشرب مزيداً من النبيذ لم يكن يرى في هذا المشهد سينما، بل يذكره هذا المتجر الواقع أمامه بمتجر الأحذية. أحياناً أيضاً يفزع من نومه أثناء الليل على صوت دبيب أقدام الخيول، وخببها السريع. ثم يتأكد بعد مرور يومين بأنها لم تكن حوافر خيول، بل خشخشة قطع النرد في كأس بلاستيكي، يصدر من عند جيرانه الذين يلعبون طوال الليل البوكر في الشرفة.

في الواقع أن "جان" بدأ يحن إلى "موندو". ود لو أنه يلتقي به كل يوم. لكن رغبته هذه ليست كافية. لكنه اليوم رآه اليوم في الصباح عن بعد. كان "موندو" يسير غارقاً في التفكير، ويسمع الأغنية التي يكرر فيها المطرب باستمرار مقطعاً يقول- أنا العين اليسرى وأنتِ اليمنى. بدأ على غير المتوقع يشعر بأنها كلمات جوفاء. كان يستمع إلى هذه الأغنية طوال الصيف، و ها هو لم يعد يؤمن بكلماتها. لا شيء فيها منطقي. ما هى سوى إشعال للعواطف. أنا العين اليسرى وأنت اليمنى - هراء!، استشاط "موندو" المخدوع غيظاً - لست قادراً على التفريق بين أي شيء، إنهم يخدعونك ليلاً ونهاراً. لم يعد يتحمل صوت الموسيقى في أذنيه، فأبعد يده بشدة عن جسمه، وألقى مشغل الاسطوانات على الأرض، ونزع معه السماعات من أذنيه. انحنى "جان ميد" بإجلال على الجهاز الذي انكسر عند قدميه، وراح ينظر إلى القطع التي تدلت من أحشائه. قال لنفسه - الألم والمتعة متلازمان.

منذ صباح ذلك اليوم بدأ يسيران معاً بمحاذاة البحر - "ميد" و "موندو" الذي انفتحت أذنيه، بعد أن نزع منها السماعات على

أصوات جديدة. سأل "جان" إن كان يعرف هذه الأغنية - أنا العين اليسرى وأنت اليمنى. أجابه "ميد" بأنهم في بلده لا يسمعون سوى أغنيتين: "أحاول أن أمشي بحذائي" وأغنية "أحاول أن أمشي بحذاء أبي". الأمر لا يتعلق بالطبع بالأحذية أو الخف أو حتى الأثر، لكن في بلد "جان ميد" يستعمل الناس كلمة حذاء من باب الكناية.

قال "ميد": أنا أقرأ هذا الصيف الترجمة الأسبانية لأفلاطون. يوجد في الكتاب جملة تقول: المتعة والألم متلازمان. في بلدنا تقول ترجمة هذه الجملة أن المتعة والألم يلبسان حذاء واحد.

لقد حل المساء، وذهب "جان ميد" مع "موندو" إلى المدينة. يريدان أن يشاهدا المدينة بأكملها من على المنارة. فاليوم سيقام في المدينة حفل موسيقي. جلست سيدة جميلة عند الباب، وهي تعزف بهدوء على آلة الكمان. سألها "جان ميد": هل يمكن أن أصعد مع صديقي "موندو" إلى المنارة؟

ابتسمت المرأة بحزن وقالت: للأسف، لقد أغلقت المنارة أبوابها. لقد أغلقنا المنارة. رد عليها "ميد" مستوضحاً: نعم، إذن يجب أن نأتي غداً في قوت مبكر لكي نستطيع الصعود".

ردت المرأة قائلة: "إن المنارة مغلقة منذ عشر سنوات". ثم واصلت العزف على الكمان.

كان متحف الآثار ممتلئ بالزائرين. ولولا أن "ميد" أراد أن يري "موندو" ولوحة "فايست" في الغالب، لا انصرف على الفور.

كان المتحف ملء بالصياح. كل مجموعة من السائحين يقودها مرشد خاص بها. كانت صياح هؤلاء المرشدين يتداخل ويعلو. فالمرشد الألماني يحاول أن يتخطى المرشد الفرنسي، والفرنسي يفعل نفس الشيء مع المرشد الإنجليزي، والانجليزي كذلك مع الأسباني، وهلم جرا. أضف إلى أن مراقبي المتحف كانوا يصفقون، ويصيحون باستمرار على المرشدين، وزبائنهم قائلين: الهدوء من فضلكم، ممنوع اللمس، ممنوع استخدام الفلاش!

في داخل الحجرة السابعة في المتحف توجد لوحة "فايست"، التي لم تفك رموز الكتابة المحفورة عليها بعد. وقف "ميد" و "موندو" متقابلين يشاهدان اللوحة. كل منهم اللوحة من ناحيته، ويطالع وجه الآخر في نفس الوقت. اختلطت أوجه اللوحة مع وجوههم.

قال "ميد" مخاطباً "موندو": "تذكر هذه الجملة جيداً". فصفق المراقب، وصاح في وجوههم: الهدوء من فضلكم.

سمع "ميد" صوت يقول من وراء ظهره: "مارتن"! قف عند هذه المزهرية!. التفت فوجد صبياً صغيراً يقف بكل طاعة منتبهاً. ""مارتن"! القبعة! اخلع هذه القبعة!". وعلى الفور نزع "مارتن" القبعة بسرعة من فوق رأسه، وعاد ليقف منتبها من جديد

بجوار صندوق العرض، الذي يضم مزهرية كتب عليها ١٦٠٠ – ١٢٠٠ قبل الميلاد. وقف الصبي منتبها متحجراً كالجندي الميت. ضغطت أمه على زر الكاميرا بفخر. عند سماع صوت الفلاش صاح المراقب في السيدة: ممنوع الفلاش! ممنوع الفلاش. فابتسمت السيدة وهى تشعر بالذنب.

راح "مارتن" يدفع عربة أطفال أمامه. ثم أخرجوا منها أخته الصغيرة. حملها أباهما بين يديه حتى لا تبكي. بالتأكيد أصيبت بالإحباط من تلك المزهريات الضخمة، وصناديق العرض، والحفريات البأهتة، ومن الأحجار.

وقف "جان ميد" و "موندو" بجوار اللوح الممتلئ بالعلامات الغامضة، والناس يطوفون به. ضرب موندو كفيه وصاح: "وجدتها، لقد عرفت معنى هذه الرموز!". آلاف الأعين توجهت نحوه في هذا الصمت المفاجئ..."جسم مشبع بثاني أكسيد الكربون، مضاد للحرارة، وقابل لإعادة للشحن". من الطبيعي أن تكون الاسطوانة عبارة عن جسم مشبع بثاني أكسيد الكربون، ومضاد للحرارة. لكن الغريب كلمة "قابل لإعادة الشحن"، وهى كلمة تعبر عن القدرة على اكتساب شيء من جديد. قال "موندو"وهو يضحك: إنه مشغل اسطوانات. تواصلت ضحكاته حتى وصل باب المتحف، حيث وجد نفسه فجأة يقف هناك مع "ميد".

بعد أن تم إخراجهما من المتحف بلحظات قليلة، ارتطمت العربة الفارغة التي يقودها "مارتن" بصندوق العرض الذي يحوي اللوحة. تناثرت أشلاء اللوحة تحت أقدام السائحين والمرشد ومراقب المتحف.

لكن في هذه اللحظة انطبعت وإلى الأبد في قلب "مارتن" الرسالة التي فك رموزها "موندو":

الهدوء من فضلكم! ممنوع اللمس! ممنوع استخدام الفلاش.

obeikandl.com

على أهبة الإستعداد

وقعت أحداث هذه القصة في زمن كان الناس ينفقون معظم دخولهم على تبادل الرسائل القصيرة مع غيرهم. فجأة بد الأمر وكأنه لا نهاية له. وفجأة جاءت النهاية السريعة. دارت هذه القصة في الوقت الذي اختفت فيه ملامح الكتابة والتفكير، وصارت السرعة تطوق رأسنا بإحكام كخاتم ذهبي، كحزام يتلقى به الإنسان صفعة من وقت لآخر. بدأت العلاقات البشرية واستمرت وانتهت بسرعة جنونية، صار ما كان يفعله شخصان أو ثلاثة أشخاص طوال حياتهم يفعله شخص واحد ببلوغه سن السادسة والعشرين.

كانت المرأة - كما تخيلوها في البداية- يجب أن تلتقي برجل في صورة طائر أبو منجل بعد أن تبعث سبعة مرات على مدى ثلاثمائة عام. تسلم له نفسها من الشوق الجارف. ثم تكرر هذا وبنفس الصورة الوردية في كل يوم من أيام حياتها. هذه المرأة اليوم يبلغ عمرها عشرون عاماً. ترقد بعد ممارسة الحب مع هذا الرجل عند البحيرة.

سيكون جسدها الذي يشبه جسد الرجال قليلاً تحت تصرفه على مدى شهرين قادمين. غير أنها في الواقع لم تكن له يوماً من الأيام ولن تكون بأية حال. لا في أحلامها ولا في ذكرياتها.

قال "ايبيس" لـ "ريبيكا": لن تتخيلي ما يعطيني إياه "ديما" لأقرأه. إنه يكتب باستمرار أخبار عن مختلف النساء، ولا أعرف إن كان على علاقة بهن جميعاً. إنهن يكتبن له بصراحة ونشوة. يكتبن له عما يحدث لهن عند قراءة ما يكتبه. يصف لهن ما يحدث في أجسادهن وأفخاذهن الخ... أنا يا "ريبيكا" أخجل أن أتحدث في هذه الأمور.

لكن لماذا يعطيك مثل هذه الأخبار لتقرأها يا "ايبيس"؟

لا أعرف.

لا يعجبني ما تقوله. لا يجب أن يعطيك مذكراته لتقرأها.

معك حق. أنا لا أسمح لأحد بأن يقرأ مذكراتي. لكن "ديما" أديب. فضلاً عن أنه يبدو كرجل رومانسي مثل الأدباء. يبدو مثل الممثل الأمريكي الذي يلعب دور الأديب في فيلم ما.

أراهن أن عنده نوع آخر من المذكرات التي لا يطلعك عليها. دعني أحاول معه. سوف أكتب له.

اكتبي!

تنحت "ريبيكا" جانباً حتى لا يرى "إيبيس" ما تكتبه لـ"ديما". لكن هذا لم يعجبه. إنه شريك في اللعبة.

كتبت تقول: "أنا مجرد لوحة إعلانات ضخمة وقعت في غرام طريق سريع جميل".

على الفور رد "ديما": في أية منطقة؟". ابتسمت "ديما" ثم أغلقت الهاتف المحمول، وانطلقت أمام "إيبيس" نحو البحيرة. نزلت إلى الماء وراحت تسبح. كانت تبتسم من تحت الماء مثل كلب صغير: في أية منطقة!، هاها.. في أية... من حسن الحظ أنها انتبهت عندما بدأت المياه تتسرب إلى داخل فمها أنها تلمس قاع البحيرة بقدميها، بقدميها أو برأسها. لا يهم، المهم أنها تلمس القاع. "منطقة القاع"!.

بعد مرور يومين استيقظت في السرير، حيث ينام "ديما" بجوارها. كانت الساعة الخامسة صباحاً، وبعد خمسة عشر دقيقة سوف ينصرف "ديما". كان الوقت ضيقاً للغاية لملاعبته. فحنت جسده، وراحت تمرر يدها على جسمه الرائع. كان "ديما" أول رجل ترافقه يشبه الدمية الجميلة. كانت هي أول امرأة يرافقها، تتمتع من قدميها وحتى رأسها بتمرد الأطفال، وولعهم وشقاوتهم. ربما لهذا السبب قضوا الليل بطوله يتمرغون في الفراش، وعلى الأرض. تبادلا مواقف المبادرة، والنهم، والنظرات المتأججة، مارسا الحب. مارساه بفخر وخوف.

بعد أن انصرف "ديما" جلست "ريبيكا" تأكل اللحم المدخن على مهل. كان اللحم مالحاً بصورة كبيرة، لونه أحمر داكن كئيب.

أيقظتها في الصباح رسالة قصيرة كتبها "إيبيس" ، يقول فيها: "صباح الخير، أعلمي أنني الوحيد الذي يعرف وجهك الحقيقي". ضحكت "ريبيكا".. وجهك الحقيقي! مثل هذه الكلمات لا يستخدمها إلا "إيبيس"، وفي هذا الوقت المبكر من اليوم.

في اليوم التالي جاءتها أول رسالة من "ديما" يناديها: "يا لوحة الإعلاناااااااات!".

انبسط وجه "ريبيكا" وهي تقرأ الرسالة، وبدت وكأنها تتحدث مع نفسها حديثاً مطولاً. للأسف لم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقوله لأنها كانت في هذه اللحظة بعيدة عني تماماً.

وأخيراً همت من الفراش لتناول الغذاء بينما "ايبيس" يدق جرس الباب. ارتدت في عجلة "تي شيرت" وقميصاً وصارت على استعداد لتناول الغذاء في المدينة.

راح "ايبيس" ينظر إليها وفمه مفتوحاً، ثم قال: "ألا تعتقدين أن هذه الألوان... صارخة بعض الشيء؟

ماذا تقول؟

هذه الألوان؟ الـ"تيشيرت" والتنورة

تقصد أن القميص والتنورة غير متناغمين؟ (أتلمح إلى أن الرجل العسكري يحارب نفسه في وقت السلم؟)

هذا هو ما لدي وما وجدته نظيفاً يا "ايبيس".

بدأت تأكل ببطء شديد من طبق به سمكة السلمون، يبدو لها أن السمكة حزينة. فمن الغباء أن يكون لها مكان عينيها حبة بازلاء.

– أنا أحب هذا الوقت من العام. أقصد الأسابيع الأخيرة من شهر أغسطس والأيام الأولى من سبتمبر. موسم العنب والمكسرات والطماطم ثم بوادر النبيذ. إن العنب وأشجار الجوز تحتوي دائماً على أهم جزء من العام بشقيه الحلو والمر. هذا العام يجب أن أتذكر كل يوم من أيام العام الماضي ووقت الخريف. عندما كنت غائباً عن البيت. ألا تذكر يا "ايبيس"؟ وقتها لم ترغب في العودة. أتذكر كل يوم من أيام شهر أغسطس. كنت أجهش أحياناً بالبكاء فجأة وأنا في عرض الشارع، خاصة عندما أرى أمامي شخصاً يبدو كبوابة البيت. شخصاً له ساعدين منتفخين كالوسادة. إن البوابات والوسائد توحي لي بالحزن. فيغلبني البكاء، خاصة عندما أرى ملامحها من بعيد.

– كفي!

– عما أكف؟

– باستمرار توجهين لي اللوم والعتاب! لا يوجد داعي لهذا على الإطلاق. تكررين على سمعي باستمرار ما حدث قبل عام. وأنا لم أعد أتذكر هذا على الإطلاق. أغسطس؟ أتقصدين أنني سببت لكي عن قصد أذي ما؟

– آه! عن قصد! يا الهي!.هكذا تصفها، عن قصد؟

– كفاية "ريبيكا"، لا تسخري مني. أنت تعرفين أنني لا أجيد التعبير بطريقة أخرى. لكن لماذا إصرارك على الحديث عن أمور مضت؟ أنا أنسى الأمور السيئة، ولا أذكر سوى الأشياء الجميلة.

– أنا لا أتذكر. الأمور تبدو لي وكأنها ليست ماضي، بل مازالت مستمرة. تلك الأيام الثلاثة عشر من شهر أغسطس تبدو لي في كل لحظة من يومي. تماماً كما أرى في كل يوم السيارة التي صدمتني وأنا في التاسعة من عمري، وأنا أرى البحر لأول مرة في الثانية عشر من عمري. مازلت أرى نفسي وأنا في السادسة عشر من عمري عندما ضربني والدي، رغم تأكيدهم بألا يفعلوا. بعدها التقيت بحبي الأول. أخاف أن أفقده، وأفقد قوته. صرت أبتسم في دار العرض الصيفية، أبكي في شارع زلق. صرت أمشي كأنني جسد بلا روح، أهرول وأنا أنزل على الدرج، أنام في الفراش بلا حراك وعيناي جاحظتان وقد جفاهما النوم. لقد وقعت في الحب. تنامت في نفسي على حين غرة قرون استشعار السعادة، وتسرب العرق إلى عيني، وصار كل كيلوجرام يزن ١٧٠٠ جراماً. وبينما أحكي لك الآن ما أحكيه

بهذه الانسيابية يتنابني شعور بأنني هنا قريبة، وكأنني فجأة أقف مباشرة أسفل النافذة، بالقرب من هنا، على بعد خطوات من شخص يشبهني.

صمتت "ريبيكا" بينما أشعل "ايبيس" سيجارة.

لم تتمالك نفسها وهما عائدين إلى البيت من المطعم، وراحت تكرر طوال الوقت اسمها بصوت مرتفع.

"انظري يا "ريبيكا" من النافذة! عند نافذتك يسير جيش من أقدام فارغة"، صديقك "ديما"

إنه إنسان جميل ممشوط الجسم. هكذا قالت "ايلزا" صديقة "ريبيكا" وهما تشاهدان "ديما" في التلفزيون.

سألت المذيعة "ديما" المتأنق: - ما الذي ينقصك في الحياة؟

– ينقصني شخص يمسد على رأسي.

"اليوم سوف أمسد على رأسك"... كتبت له "ريبيكا" بسرعة، وعلى الفور رأت على الهواء هاتف "ديما" وهو يهتز في جيب سرواله الجينز الأمامي.

– ما هو رأيك كأديب في الهواتف النقالة؟ الأسبوع الماضي قال زميلك "روث" في هذا البرنامج أن شبكات الاتصالات تحقق الانتصار على شبكات التخاطر العقلي. إنها تدمر الاتصال الطبيعي وتشوش على تدفق الأفكار البشرية.

كان جيب قميصه يهتز بشكل ملحوظ.

– أتعرفين أن هذا الأمر بدأ يزعجني. فغالباً ما كنت أحمل الهاتف في الجيب الأمامي أو الخلفي لسروالي أو في جيب القميص. أما اليوم فأن لا أحمل هاتف نقال. غير أن عضلات جسمي في تلك الأماكن، في المؤخرة والمناطق الضعيفة كما لاحظتي ربما منذ قليل، وحتى عضلات الصدر يحدث لها نوع من التقلصات، وتبدأ في الاهتزاز تلقائياً وكأنها تتلقى رسالة تحاكي اهتزازات الهاتف المحمول.

علت ضحكات المذيعة وهي تقول: "ربما هذا هو نوع جديد من رسائل يرسلها الجسد". وواصلت الضحك حتى نهاية الحلقة.

كتبت "ريبيكا" لـ"ديما" :"أتمنى لك هذا وذاك. أنا أمنيتك". وعبثاً راحت تنظر إلى الهاتف طوال ما تبقى من الليل وهي تضعه أمام عينيها. فطوال هذا اليوم لم يرد "ديما" على سائلها.

كتبت "إيلزا" عند منتصف الليل لـ"ريبيكا" بعد أن تمكن منها ما شربته من نبيذ: "إن "ديما" شخص مؤثر للغاية. ورغم كل الحواجز والبشر المتجمعين عندها ، فهو ببساطة يخاطب أصدقاءه بكلمة حبيبي، وينادي على كلبه قائلاً يا حبيبي. إنه بمثابة أخ أكبر لأصدقائه".

جلس "ديما" يسترخي في صالون التجميل بينما أصابع نسائية تزيل الشامبو من على شعر رأسه. أزاحت الحلاقة بيدها قطرات الماء من على جبينه برقة. ومررت يدها بحرص على شعره المبلل. أغلق عينيه. وعندما فتحها مرة أخرى بعد لحظات، قامت المرأة برفع رأسه المدلاة على حوض الغسيل ولفتها في ملاءة كبيرة بيضاء. نظر "ديما" على وجهه الجميل في المرآة بكل الحب والإعجاب. رآه وجهاً رقيقاً كوجه الأطفال. وجه وُضع في إطار من ملاءة كبيرة بدلاً من الشعر. تمنى أن يأخذ هذا الطفلَ في أحضانه ويعانقه طويلاً.

في الصباح قال لـ"ريبيكا" عبر الهاتف: "إنني أشتاق إليك جداً. فرغم أنني لم أستيقظ تماماً بعد، إلا أنني منذ الصباح أتنفس برئتين بديلتين، تلك الرئتان التي يكتشفهما الإنسان عندما يغمر تلك الرئتين الكبيرتين الماء والدم والسائل أو الخوف أو الحب".

كتبت "ريبيكا" لـ "إيلزا" بروح المنتصر قائلة: "لقد وقع الكلب في المصيدة".

عندما ذهبت لتنام لم تكن تفكر في "ديما"، بل حاولت أن تتخيل شجار الغد مع "إيبيس". وكأنه شجار مع "كويلو" أو مرض السرطان. كانت "ريبيكا" عندما تحب أحداً ترى الشجار شاخصاً أمام عينيها مسبقاً، وكأنه خريطة المترو في مدينة باريس. وكأنها متسلق الجبال "مسنر" وهو يتحدث عن تسلقه لأحد الجبال، فهو يحلم بالجبل طوال الليل، ويبحث عن طرق توصله إلى قمته، ليحتضنها وينظر إليها وجها لوجه. كذلك كانت شجارات "ريبيكا" مع صديقها مثل تلك الجبال. قمم جبال. راحت تتخيل المبررات التي ستسوقها وخجل "إيبيس" وعناده وتعالى صوته، والضحكات هنا وهناك والسخرية اللاذعة ثم النظرة الرقيقة يتلوها الهجوم العنيف. إنها ببساطة مغامرة.

ما أن تتوقف عن مناجاة صديقها ومناقشته وشرح الأمر له، كان هذا غالباً معناه نهاية العلاقة. لكن النعاس غلب "ريبيكا" في تلك الليلة، فنامت بعمق وهدوء، بدون أن تراودها أية فكرة.

في الصباح أيقظتها رسالة من "إيبيس" تقول: "ألم أعد أعني لكي شيئاً؟".

لم يكن لديها رغبة في سماع كلامه حول أنها يمكن أن تنتقد "كويلو" إلى أن تصير كاتبة أفضل منه. لم تكن ترغب كذلك في سماع حكايات لا تنتهي، ومسلسل عن نتائج عملية الورم التي أجراها أعز أصدقاء "إيبيس". كانت تعتقد في قرارة نفسها بأن اقتراب "إيبيس" من سن الأربعين جعله يتحول إلى امرأة عجوز. ويكفي أن يغطي رأسه بشال، وتصنع عقدة أسفل ذقنه الذي يرتجف باستمرار، عندها

تصير على حافة البكاء والتأثر. كانت تفوح من فمه وكذلك من عضوه رائحة المنتول المثير للقلق.

لم يكن "إيبيس" في الفترة الأخيرة يهتم لأمر شيء أكثر من اهتمامه بكل أنواع الأورام الخبيثة والغير خبيثة - لا فرق بينهما - التي بدأت تظهر عند أصدقائهما وزملائهما ومعارفهما وجيرانهما. كانت تظهر بصفة خاصة في منطقة الرس. فبدأ الأطباء يشكون في الهواتف النقالة. والذي جعل هذا الشك محتملاً هو أن هذه الأورام وما شابهها بدأت تظهر عند الحيوانات الأليفة وبخاصة القطط والكلاب.

من ناحية أخرى كان حب "ريبيكا" لـ "إيبيس" نابع من مظهر "إيبيس" الخارجي. من شيء ما في وجهه. فمهما حاولت أن تنساه أو تتجنب أحياناً سماع صوته. عندما تنظر إلى وجهه تغمرها موجة من الحب. كانت تعتبر شعره رمزاً لها، تطوق شوقاً إلى مظهره الجذاب.

في الصباح قالت عبر الهاتف لصديقتها "إيلزا": "لا أعرف لماذا أفكر طيلة هذه السنوات من وجهة نظر "إيبيس".

– وكأنني قبعة غريبة عليها ريش. مرات كثيرة كنت أتخيل رياح بحرية تطيح بها من على رأسي، فتسقط في شارع قذر في منتجع ساحلي، أصبح فجأة خال من الناس مثل القبعة وسط المطر - وأنت ببساطة تقفين ولا تفعلي شيئاً، فالأمر يدعو للخزي، فقد صارت القبعة مبتلة وقذرة وقديمة. وفجأة أذهب مثلاً بمحاذاة حقل به عيدان زهرات عباد الشمس السوداء المحترقة– تقف منكفأة كسيدات عجائز باليه. تشبه ألوانها لون معطف شتوي يرتديه، يحمل بين طياته ألم جديد. ألم العائد من أجازة إلى العمل في حالة نشاط، وقوة متجددة وأفكار جديدة.

"أحبك" – كتبت "ريبكا" لـ"إيبيس" هذه الجملة، ثم ظهر على شاشة الهاتف رقم "ديما" وأرسلت جملة "أحبك" له هو الآخر. ثم تصفحت الأسماء في دليل الهاتف واحداً بعد الآخر وهى تفكر فيمكن سترسل له أيضاً جملة: "أنا أحبك".

يجب أن تشاهدوا "ديما" وهو يطلب العصير. إنه عصير جريب فروت بتركيز مائة في المائة، نعم مئة في المئة. ودائماً عندما يحضر له الساق كأس العصير يأخذ منه رشفة ثم يبدأ في التشكيك بأنه عصير مركز بنسبة مئة في المئة.

قالت له "ريبيكا": "هذا العصير طيب، غير أنك تتمني أن يكون تركيزه مئة وخمس في المئة.

أجابها "ديم": ربما هو كذلك، لكن هل هو ذنب أن يكون تركيزه ١٠٥ في المئة؟

– إنه جفاف بنسبة ١٠٥ في المئة.
– أين كنت طوال اليوم؟
– تمشيت في الكرم. إنه الكرم الذي كنت أتردد عليه للتمشية كل يوم في شهر أغسطس الماضي. يعمل هناك دائماً رجل عجوز يرتدي ملابس قديمة عثة. ربما لهذا السبب كنت أرى رشاقة في حركاته وهو يقطف العنب. وكأنني في دار الأوبرا. أعتقد أن هذا الكرم وهذه الأناقة أنقذت حياتي بطريقة ما.
– ها ها ها
– لا تضحك! إن الطماطم الموجودة في حديقتي لم تستطع أن تفعل نفس الشيء هذا العام.
"أنظر في واجهات العرض إلى شكلي، فلا أرى سوى رجلاً كبيراً لا شكل له، يعاني بوضوح من داء البواسير، منكفأ في معطفه مثل بطة برية تنكس رأسها في الماء". كانت هذه آخر رسالة تلقتها "ريبيكا" من "إيبيس" بعد شهر من توقفها عن الكتابة له.
تملكها بعض الأسف عليه، لكن سرعان ما ظهرت "إيلزا" وهي تشكو من هذا الكم الكبير من العمل البسيط التافه حتى تعيل نفسها. كانت تشكو أيضاً من مشعل موسيقى ابتاعته في نوبة تبذير.
"ريبيكا"! أنا إنسانة غبية! أنفق كل هذه النقود على مشغل موسيقى في بلد لا يوجد فيها سوى بضعة جمل تلوكها الألسن على الدوام، ويحفظها الجميع عن ظهر قلب. المشكلة أنك لا يمكن أن تنسيها أو تمحيها.
قطع قدوم "إيبيس" حديث "إيلزا". فلم يقوى على الانتظار. أخيراً وجد "ريبيكا"، واستطاع أن يقنعها أن تذهب إلى شقته. فتح زجاجة كحول"ميتاكسا" كبيرة. زجاجة تسع سبعة لتر كتلك التي يستخدمونها للزينة في البارات والمحلات. كان ثملاً – شغل موسيقى مرحة للغاية من جهاز حديث، ذو سماعات كبيرة وكثير من الإمكانات وموازنات الصوت والأزرار وشاشات وامضة. وكأننا في معمل تسجيل موسيقى. أطلق صوت الموسيقى عالياً حتى تعم البهجة في المكان - هكذا قال. وفجأة حضرت إلى الشقة أسرة غريبة: رجل وامرأة ثلاث أطفال ورضيع آخر في العربة. تجاهل "إيبيس" قدومهم حتى نبهته "ريبيكا" إلى قدومهم.
في طريق العودة إلى البيت رفعت "ريبيكا" رأسها المنكب على كتابة الرسائل. لاحظت شخصين قادمين نحوها، رجلاً وامرأة. يسيران في هدوء وروية. كانت المرأة تشرح شيئاً مهما للرجل، وهو ينصت إليها بكل اهتمام، بكل كيانه. انحنى قليلاً حتى يسمعها جيداً. أشار جسمه المستنفر إلى إنصاته لها بكل اهتمام.

كتبت ريبيكا لـ "إيبيس" (أخطأ أحدنا الآخر). بعد لحظة ظهر على شاشة الهاتف رقم "ديما" ثم أرسلت له أيضاً الرسالة (أخطأ أحدنا الآخر).

قضت باقي الليل عند طاولة المطبخ وهى تحاول جاهدة في نقل حبات الملح من مكانها على مفرش الطاولة.

obeikandl.com

الإخطبوط (No money, no Italy)

"كان على إما أن أرحل وإما أن أمرض" ايفان شتريكا

كنت أجلس مع أخي في المترو، وكان في حالة ترقب. فقد كنت أصف له على مدي سنوات مدينة روما. نزلنا في محطة قريبة من ميدان "نافوي"، وهو ميدان به مجموعة من النافورات.

لم أزر المدينة منذ سنوات، تغيرت خلالها، أو ربما يكون مجرد انطباع شخصي سببه المطر والسماء الملبدة بالسحب والوجوه الجديدة.

حتى الميدان أصابه التغيير. اختفت منه النافورات، وانتصبت بدلاً منها بيوت ذات طابقين - أصوات أجهزة المذياع تصدر عالية من الشرفات. أجهزة على شكل عصي الهوكي. سيدات تغسلن النوافذ، ورجال لفحت الشمس بشرتهم، يرتدون قمصان داخلية بيضاء. ضاع منا طريق "أبيا". ذهبت أسأل عنه بينما يهز أهل روما أكتافهم. لم تكن هذه هي عادتهم من قبل. وجدنا أنفسنا عند منعطف طريق سريع كتب عليه توليدو - براغ - بودابست. إن طريق العودة ممتد لا ينتهي. حقول في كل مكان.

وأخيراً رحت أهز كتفي عند مدرج روما القديم. شعرت بالراحة. أومأ أخي برأسه وقال لي: "يبدو أنك كنت دائماً تأتين إلى هنا مع "كلاريسا". فهي تعرف روما مثل أصابع يدها".

وضعت يدي على شعره وقلت له: "عندك حق يا أخي – تعرفها مثل أصابع يدها... على الأقل هذا المدرج لم يتغير كثيراً. مازال يقف في مكانه، رغم الغطاء الرقيق الذي يغطيه وعليه صورته.

في المساء توجهنا عائدين إلى "إيما". شعرت بالهدوء بعد تناول العشاء وشرب النبيذ. سألتُ "إيما": ماذا حدث لهذه المدينة؟

لم تفهم "إيما" مغذى سؤالي. فهي ترى أن المدينة لم يحدث بها أي شيء. لكنها في الواقع لم تذهب إلى مركز المدينة منذ أعوام. فهي تعمل في مكان يبعد بضعة شوارع عن محل سكنها، بالإضافة إلى أن الوصول إلى مركز المدينة ليس بالأمر السهل. إنها غارقة في الأعمال ما بين عملها والبيت والمطبخ وزوجها وأطفالها وكلابها.

بعد لحظات أضافت قائلة: "وما العيب في ذلك؟ لماذا تتعجب؟ بالتأكيد هناك اختلاف ما، روما عندما تكون فيها "كلاريسا" غير روما بدونه. بالطبع. ماذا تعتقد أنت؟".

لا أعرف ما هو شكل هذا التغيير. من الأفضل ألا أفكر في الأمر. إن نفس الحلم يراودني على مدى ستة أشهر. غير أن المدينة تتغير على الدوام.

"لقد سئمت هذا النوع من السفر". قالت لي "كلاريسا" ذات مرة أن الإنسان الذي يرغب في التخلص من حلم ما يراوده على الدوام، يجب أن يحكيه فوراً لأول شخص يراه في الصباح. الشقة خالية تماماً ومهجورة (مهجورة، مهجورة، مهجورة).

وقبل أن أدس رأسي في حوض الغسيل رحت أحكي حلمي للمياه الباردة. أنا إنسان أثق في الناس وأؤمن بعلم الإشارة منذ عدة أعوام. وخاصة منذ أن كنت مع "كلاريسا" في لشبونة. أخذت تاكسي أقلني إلى المطار. كان على أن أمر بـ"كلاريسا" عند والديها. قلت لنفسي وأنا في التاكسي: إن كانت "كلاريسا" تنتظرني بلهفة على الرصيف أمام البيت فسوف تكون أول رحلة نسافر فيها معاً موقفة. لكن إن كنت سأنتظرها وأتصل بها أستعجلها أو أدق الجرس فسوف يكون هذا إشارة إلى أن مصاعب تنتظرنا.

لم تكن "كلاريسا" تنظر في الخارج. فقد أكلت بالأمس هامبورجر فاسد أصابها بوعكة صحية. أردت أن أشتري لها عطراً في المطار كتعويض لها عن هذه الوعكة الصحية.

قمنا بتجربة عدة زجاجات على اليد وخلف الأذن وتحت الإبط. أصيب كل منا بصداع نصفي نتيجة رائحة العطور النفاذة التي لازمتنا وقت طويل، ورافقتنا رائحتها في أنحاء مدينة لشبونة. وخاصة تلك التي رششناها تحت الإبط.

عثرنا على غرفة للإيجار في عمارة جديدة بالقرب من مطار لشبونة. أخذتنا صاحبة الشقة "دلفينا" إلى غرفة صغيرة بها سرير يتأرجح. ملحق بها حمام يبرز منه حبل ما، وبعض القطع البلاستيكية. كانت درجة حرارة "كلاريستا" وصلت ٤٠ درجة مئوية. لم أكن أعرف معنى كلمة دواء أو
طبيب أو كمّادة باللغة البرتغالية، ولا حتى كلمة شاي.

كذلك "دلفينا" لم تكن تعرف معنى كلمة شاي لا باللغة الإنجليزية ولا الألمانية ولا الروسية ولا حتى بالسلوفاكية.

تمددت برقة على السرير بجوار صديقتي المريضة. كنت مستسلماً لفكرة أنها ستموت أولاً ثم سألحق بها بعد بضعة أيام.

قالت "كلاريسا" أن الإنسان عندما يرغب في التخلص من حلم ما لا يكفي أن يغسل وجهه بالماء البارد، أو يتمضمض أو يغسل عينيه - لكن يجب أن يأكل بدون شروط. إن المعدة الممتلئة تفصل ما بين الليل والنهار. هكذا كانت "كلاريسا" تعلق على الأمر أثناء تناول طعام الفطور. خرجت من المنزل بغرض شراء الطعام: الخبز، والجبن، والماء. بمجرد أن اقتربت من السوق اكتشفت أن ما في جيبي من نقود لا يكفي لشراء طماطم أو حتى فلفل.

لم يكن ليحدث مثل هذا الأمر معي وأنا مع "كلاريسا". بيني وبينكم كنت دائماً أعتقد أن لديها المزيد من النقود. كانت تحملها معها بدون اكتراث، وتضعها مجعدة في جيب بنطالها. أما النقود المعدنية فكانت دائماً تلقيها في مياه النافورات، وتترك الكثير منها على طاولة المطبخ. كانت كثيراً ما تتأفف منها، وتقول إن النقود المعدنية مزعجة. لم تكن تعرف على الإطلاق كم معها من نقود، لا تلك التي تحملها في جيبها، ولا الموجودة في بطاقاتها الائتمانية.

كنا في هذه الأمور - كما يقول شوبنهاور - ثنائي مثالي تنطبق عليها المعايير والأسس التي تصنع أطفالاً مثاليين: سيدة شقراء ذات وجه وردي، ورجل أسباني أسمر، أو سيدة ألمانية بيضاء كالجبن وزنجي وسيم، "كلاريسا" الثرية و "آدم" الفقير.

هنا في هذا السوق قررت أن أخصص فصلاً عن العلاقة بين المال والسفر في كتابي عن السفر والترحال. ولمزيد من الموضوعية سوف يكون أول مستند أضعه في هذا الفصل هو تلغراف موثق أرسلته قبل عامين لـ "إيما" في روما أقول فيه: No money, no Italy ، صديقك آدم

في تلك المرة كتبت بدون تجمل ولا فذلكة: بدون المال لن تستطيع أن تفعل أي شيء.

كم تمنيت وأنا مازلت فتى صغيراً أن أرى البحر. ذات مرة أحضر لنا أبي إلى البيت غير متعمداً منشورات إحدى شركات السياحة التي تروج للأجازة في يوجوسلافيا. تكلم مع أمي كثيراً في هذا الأمر، ورحت أعد حقائبي للرحلة. لكنهما في النهاية قررا أن الرحلة باهظة الثمن. في نفس الليلة التي أبلغني والدي فيها بقرارهم أصابتني حمى شديدة، واعتلاني المرض. أكتشف الجميع فجأة أن الحل هو إما أن نذهب إلى البحر أو أموت. وبما أن موت وريث العائلة كان أمراً غير مرغوب فيه حتى في ظل النظام الاشتراكي، فقد أعددنا حقائب السفر.

لم يكن ممكنا أن أتجاهل "إيما". فعندما لم أتمكن من السفر إلى روما كانت تأتي هي لزيارتي. تجلس أمامي. فتاة جميلة، لفحتها الشمس. تتحدث معي عن زواجها قبل عامين.

"أتعرف! عندما أردت أن أختبر زوج المستقبل، إن كان بالفعل هو الرجل المناسب للزواج، عدت إلى البيت في الساعة الرابعة صباحاً، في حالة سُكْر. أرتدي ملابس تقيأت عليها. لكنه عاملني بلطف. أعد لي فنجاناً كبيراً من القهوة وساعدني في أن تتحسن حالتي.

كان طوال الوقت لطيفاً وودوداً معي. كررت هذا الأمر عدة مرات من باب الاحتياط. في اليوم التالي عند الغروب تقريباً همس لي

قائلاً أنه لم يعد يعرف إن كنا سنتمكن من التوفيق بين طبائعنا المختلفة – قالها فعلاً بطريقة رقيقة، لا تجرح مشاعري.

والآن؟ أجمل وقت هو وقت الغذاء. نلتقي سوياً في المطبخ. كل منا يهو طعامه المفضل. يجب أن ترانا ونحن نتبادل أنواع الطعام بيننا. ألا تريد أن تتذوق هذا؟ آه، لا ، شكرا، أنا عندي طعامي. لكن ألا تريدين أنت تذوقي طعامي؟ لا، لا، لا.

ثم ننصرف إلى الغرفة، كل منا يحمل طعامه حاملاً جرائده تحت إبطه. يجب أن... يجب أن يصورنا أحدهم في هذا المشهد. رضاً وهدوء.

قاطعت "إيما" قائلا: "وماذا يعمل زوجك؟"

– زوجي؟ غالباً ما أراه يحيك شيئا ما. دائماً عندما أشتري له شيئاً جميلاً ليلبسه، يقوم بإصلاحه. فهو يجب الجيوب الكثيرة . لهذا يقوم بإضافتها.

خبطت "إيما" بيديها وقالت مبتسمة: آه لو رأيته وهو...

صرف "آدم" للحظة اهتمامه عن "إيما" وراح يتابع رجلين يجلسان عند طاولة مجاورة.

– تعال معي إلى هناك!... كذلك أنا لا أحب أن أذهب إلى هناك، لكنني مضطر من باب اللياقة.

– لا، اعذرني، أنا فعلاً لن أذهب.

– لكن تعال! أتعرف؟ رغم أنني لا أرغب في الذهاب إلى هناك، أمر واحد هو الذي يدفعني للذهاب.

– أتعرف ما هو الذي يدفعني إلى الذهاب إلى هناك؟ إنه الإخطبوط!

– آه!

– أتعرفه؟

– نعم، أعتقد أنني أعرفه.

رفع "آدم" طرفي فمه في صمت وقال لنفسه: كم هي ثقيلة. يعني أطراف فمه. تأبطت "إيما" زراعه. كانت لمسه خفيفة منها. فجأة طغى شعور بغياب الحب على كل شيء، الأمر الذي أصاب آدم بالذهول. كان شعوراً شأنه شأن الشعور بالحب. غير أنكم تعبرون الجهة المقابلة في الشارع ولا تستطيعون رفع أعينكم.

سألته "إيما" بحماس: "ماذا تفعل؟ أتكتب؟ أتكتب؟ أكتبت شيئاً".

– وماذا عنك يا "إيما"؟

– أنا؟ أنا لم أكتب أي شيء في حياتي. أنا إنسانة لا تفعل سوى الحديث عن كل شيء. يصيبني هذا الأمر أحياناً بالحزن. لكن ربما

أتمكن من تدوين هذه الأمور يوماً ما... سنرى. أنا أتكلم في كل شيء في الوقت الحالي وآخرون يستفيدون مما أقوله. فعندها سيقولون لي – ما هذا الذي تكتبينه يا "إيما"؟ لقد كتبت عنه في هذا أو ذاك الوقت.

مثلاً حكيت لـ "سيلفا" عن شابين كانا يسكنان عندي. في البداية كانا بدون عمل. ثم بدأ أحدهما يعمل جليس أطفال لابنتي، وعثر الآخر أيضاً على عمل. كان ينظف الكلاب. وقتها لم يكن عندي شيء. كانت الثلاجة مثلاً خاوية تماماً. وفجأة وجدت فيها زجاجات شمبانيا وكافيار... فقد كانا أحياناً يذهبان للتسوق بطريقة البروليتاريا. يعني هذا النوعية من التسوق أن تذهب إلى المتجر، ثم تضع الخبز تحت إبطيك وباقي الأشياء تحت معطفك. وفجأة وجدت حكاياتي هذه في كتاب "سيلفا". رحت أقول لها: "سيلفا" إن هذه هي ذكرياتي وحكاياتي.

ترد قائلة: "أية حكايات "إيما"؟ ما هذا الهراء؟ إن هذه القصص حكتها لي ابنتي "ميلانا".

أرد عليها بأنه ليس معقولاً أن تكون ابنتك "ميلانا" قد قصت عليك شيئاً عايشته أنا في حياتي. ثم أضيف قائلة: "لا تسرقي يا "سيلفا"؟! لا تسرقي!". لكنني صرت أحترس في كلامي معها. فلم أعد أبوح لها بالكثير. لكنني مضطرة إلى الحديث معها عن شيء ما...

لكنني صرت أتحلل من حرصي هذا، وأحكي لها عن كل شيء. حكيت لها حتى عن "كلاريسكا". فهي عندها نظرية في هذا الأمر. تقول إنه سيأتي وقت في حياة الإنسان إما أن يسافر أو يمرض.

وعندما يصاب بهذا الشعور إنسان ليس لديه القدرة المادية على السفر، فلن يكون أمامه سوى اختيار المرض بدلاً عن السفر. إن المرض نوع من أنواع السفر الرخيص.

إن الأغنياء لا يلاحظون بوادر الأمراض الخطيرة التي تصيبهم لانشغالهم بصرف الأموال. لا يشعرون بارتفاع درجة حرارة الجسم التي تنذر بحمى السفر ويسافرون. لا يتركون للمرض فرصة أن يظهر عليهم. فسوف تخلصهم منه بلد أخرى. ويبدو الأمر لكل من حولهم، وكأن الموت قد باغتهم بدون سابق إنذار. في وسط الطريق. في وسط تجوالهم وهم يسرعون الخطى.

– أليس أمراً مثيراً للاهتمام؟

قلت لـ"إيما": "عندي أيضاً رأي في هذا الأمر"

استغربت "إيما" قائلة: "رأي مماثل؟"

– نعم، منذ عامين وأنا أكتب عن هذا الأمر كتاباً.

– لكن "سيلفا" قد ألفت في هذه النظرية كتاباً. وقد صدر قبل عدة أيام في روما. أحضرته لك معي وعليه إهداء.

– اعتقدت أنه نظراً لعلاقتك بـ"كلاريسا" منذ الطفولة...

– سأقول لك شيئاً! يراودني منذ فترة شعور غريب بمناسبة هذا الكتاب. وكأن هذه النظرية قد ابتكرها شخص آخر نيابة عني.

ردت "إيما" لتهدئني:- دعك من هذا الأمر! من الأفضل أن نشرب شيئاً.. فلن نبقى هنا طويلاً...

بيني وبينكم أعتقد أن "إيما" قد كونت صداقات مع العديد من الأدباء في آن واحد.

كذلك مازلت أتذكر الوقت الذي كانت لديها نظرياتها الخاصة في كل شيء...

قرأت كتاب "سيلفا" في ليلة واحدة. لم أجد فيه شيئاً يستدعي المفاجأة. ما جاء الكتاب مطابقاً تقريباً لنسختي الخطية إلا في موضعين.

أزعجتني قليلاً فقرة في كتاب "سيلفا" تتهمني فيه "إيما" بالاسم بأنني استعملت، بل سرقت في أحد أعمالي القديمة قصتها حول الشابين، وغسيل الكلاب، وتسوق البروليتاريا. المضحك في هذا الاتهام أن هذه القصة حكاها لي ابني "ميلان" الذي مازال في الواقع يمارس مهنة غسيل الكلاب حتى اليوم.

انتهيت من كتاب "سيلفا" على صوت حديث صديقين في المقهى. اضطر أحدهم إلى الذهاب إلى الحفل من باب اللياقة، أما الثاني فلم يذهب معه. حاول الرجل الأول أن
يغريه بالإخطبوط، لكن الرجل الثاني لم يعط للأمر بالا...

غير أن الإخطبوط كان له في كتاب "سيلفا" دور أفضل. ربما لأنني أعيش في بلد لا يطل على بحار، بينما تعيش "سيلفا" في بلد ساحلي. ربما لأن الإخطبوط الذي ينمو في بلد بعيد عن البحر يفقد القدرة على الإقناع. أو ربما لأن جودته تقل بسبب التجميد ثم إذابة الثلج لاحقا.

أو ربما أن الإخطبوط اشتهى "إيما".

obeikandl.com

سفيتلانا شوخوفا

Svetlana Žuchová

ولدت في براتسلافا العاصمة عام ١٩٧٦، ودرست علم النفس في جامعة فيينا، والطب في كلية الطب بجامعة كومنسكيهو في براتسلافا. هى كاتبة قصة قصيرة، وتنشر أحياناً مقالات صحفية. وتعمل في نفس الوقت مترجمة. تعمل في الوقت الحالي في قسم الأمراض النفسية بمستشفى مدينة "ترنتشين"، وتواصل دراستها العليا في مدينة فيينا في مجال علم النفس، وهى تتدرب على التحليل النفسي. تتعاون بشكل غير دوري مع عدة دوريات، وبشكل منتظم مع مجلة "قلنا"، ترجمت بعض قصصها القصيرة إلى اللغة التشيكية، والمجرية، والألمانية

تمارس "سفيتلانا" الكتابة على أنها جزء من فن التصوير. تسجل الأحداث والأشياء التي تلتقي بها أو تعيشها بالكلمات، مثلها مثل السائح الذي يلتقط بكاميرتها زكرياته أثناء قضاء العطلة. فهي تحب السفر. لكنها لا تشعر أثناء سفرها بالغربة مثل السائح. فبفضل سعة معارفها اللغوية، لا تشعر بهذه الغربة. تسجل في قصصها القصيرة ما تراه أثناء ترحالها، تحاول أن تسجل كل ما تراه، أو ما تود أن تراه، اللقاءات القصيرة، أو الأمور البسيطة، وتضعها في لوحة فسيفساء. عندها القدرة على أن تجعل من الأمور البسيطة حكاية مثيرة، وفريدة من نوعها.

أيادي

إنني أفتقد "يان"، أفتقده بشدة أشعر معها بالألم التقينا على شبكة الانترنت، بطريقة معاصرة، لم أكن أؤمن بها مطلقاً من قبل. كتب لي أنه قد وصل مؤخراً إلى المدينة التي أسكن فيها منذ أكثر من عام. يقول إنه يبحث عن أشخاص يمكن أن يلتقي بهم من حين لآخر. أنا أتفهم هذا الأمر، وأعرف ما يشعر به، وكيف كان حالي قبل عام ونصف. إذن سنلتقي، وسط المطر والثلوج المختلطة بالمطر. عندما قابلته كان خليط من الثلوج والأمطار يتساقط من السماء. وصلت قبله أنتظر تحت تمثال القديس الشهير. كان يمشي وهو يحني ظهره. في مشيته شيء مميز. أشعر وهو في هذا الوضع وكأنني مرشدة سياحية. عندما تزوجت "سوزانا" من زوجها الهولندي في مدينة براتسلافا السلوفاكية، كان على أن أهتم بالضيوف الهولنديين. وقتها التقيت بهؤلاء الهولنديين عند تمثال آخر، وفي مدينة أخرى، ولكن بنفس الابتسامة، وبنفس الفتور، وبنفس الملابس الأنيقة، وتسريحة الشعر اللائقة. رحبت بهم بابتسامة المحترفين، ثم رافقتهم إلى القلعة، ثم إلى المطعم. لكنني الآن أشعر بالبرد تحت تمثال القديس. لا أريد أن يبتل شعري. أرتدي معطفاً أحمراً وقبعة. أبتسم بنفس الطريقة وأمد لـ "يان" يدي مشدودة ومرحبة. لقد تدربت على قبضة قوية ومباشرة كالمحترفين. هكذا صافحت موظفة البنك، عندما كنت أنهي إجراءات قرض. بهذه الطريقة أصافح المرضى المذعورين، وأنا أقتادهم (وأنا مذعورة كذلك) إلى الغرفة الخلفية لإجراء حديث معهم، بناء على قواعد محددة. حديث معروف سلفاً بكل تفاصيله. كنت أعرف مسبقا، في ذلك الوقت، وأنا أمد لهم يدي عما سأسألهم بالتحديد. وما يهمني وما لا يهمني. لم يكونوا على علم بهذا الأمر. فمن يقدم لهم يده للمصافحة ما هو إلا إنسان سيسمع شكواهم، ويتمنون أن يجدوا من سيسمع شكواهم أخيرا، ويتفهم حالتهم، أن يجدوا خبيراً أو خبيرة تحل لهم لغز آلامهم وتشاطرهم أوجاعهم. في الواقع أنا أعرف ما سيقولونه لي، وبماذا سأرد عليهم. أعرف كذلك متى سيفيض بي الكيل، ومتى سأصل إلى ما أريده. أعرف متى سأشعر بالسأم، ومتى سأقاطعهم، وأسألهم إن كان لديهم أية أسئلة أخرى، حيث انتهت أسئلتي وصرت أعرف كل ما أحتاجه. لا يهمني كل ما يريدون أن يضيفوه.

بنفس الطريقة مددت يدي لـ"يان" أصافحه في ذلك المساء عند تمثال القديس. أعتقد أنني عرفت ذلك مسبقا. أريد أن أنصرف إلى أقرب مطعم بأقصى سرعة، حيث لا توجد أمطار. حيث الدفء، وحيث يجف شعري المبلل بسرعة. هناك أطلب كأساً من النبيذ،

وأعرف ما سأقوله في الجملة التالية وأنا أبتسم. أتحدث كثيرا، وبسرعة. أقدم معلومات مثل المرشدة السياحية عن المنطقة التي توجد بها مطاعم جيدة وكأنني أتردد عليها كل يوم. أتوقع، ومازلت أتوقع وأنا على قناعة بأن الأمر سوف يعنيه. أليس أجنبيا؟ لكن هذا الحي بمطاعمه الجيدة، يبدو الآن بعيداً وخاصة وسط هذه الأمطار، وهذه الثلوج، في هذا الجو البارد. لذلك لن نذهب إلى هناك. أقول هذا حتى لا يظن أحد أننا سوف نجوب الشوارع المزدحمة، ونصل إلى هناك في دقائق معدودة لنجلس في مطعم هندي دافئ. أنا الآن أجلس ولا يهمني ما سيحدث، سنتناول طعام العشاء وأعرف تماماً عما سنتحدث أثناء الطعام. في أسوأ الحالات لن نقول شيء، حيث ستمتلئ أفواهنا بالطعام، عندها لا يمكن أن نتبادل الحديث، أحياناً نعلق على الطعام، أقول لـ"يان" شيئا عن نفسي، وشيئا عن المدينة. أما الأحياء الجميلة التي توجد بها مطاعم جيدة، والأماكن التي يريد الجميع أن يسكن فيها، وخاصة الأجانب الذين يقيمون هنا أمور لا تعنينا اليوم، وفي هذا المساء في هذا المطعم الهندي.

قال "يان" أنه ذاهب ليغسل يديه، وهو أمر غريب. على الأقل سوف أختلي بنفسي حتى يعود. أعرف أن الناس تغسل أيديها قبل الطعام، لكن هذا أدهشني. لا أعرف أن أقرر إن كان أعجبني أم لا. فأنا أراه رجلاً غريبا. أراحني شعوري بأنني أستطيع الانصراف عندما أقرر ذلك. فأنا لست مرشدة سياحية. يكفي أن أتناول طعامي، فالانصراف وسط تناول الطعام أمر غير لائق، لكنني يمكن أن أفعلها إذا تتطلب الأمر ذلك. فأنا قادرة على فعل هذا. سأضع حافظة نقودي على الطاولة وأتفوه ببعض الكلمات، رغم أنني لا أعرف ما قد أقوله، لكنني بالتأكيد سأقول له شيئا ما. وحتى هذا لست مضطرة إليه. فأنا لم أعلق عندما انصرف يغسل يديه. يمكن أن تتساقط الدموع من عيني فجأة، وأسرع منصرفة من أمام المطعم. يمكن كذلك أن أفعل هذا بناء على شيء متعارف عليه. قد أكمل طعامي أو لا أكمله، وأتفوه ببعض الكلمات المنطقية، لكن ليس بالضرورة أن تكون منطقية، يمكنني أن أقول أي كلام وأنصرف.

ها هو "يان" قد عاد، ربما غسل يديه، فأنا لا أعرف إن كانت يداه قد صارتا نظيفتين. تبادلنا الكلمات، لا أعرف على وجه التحديد ما قلناه. أتوقع أن أختار طعاماً ما، وجبة هندية، وسوف نسخر من أسماء الأكلات الهندية. لكن "يان" أخبرني بأنه يعرف اللغة الهندية. إنه إذن يجيد نطق هذا الأسماء الهندية بصورة جيدة. لكنني سعيدة بأن هناك شيء يمكن أن نتحدث عنه، حتى لو كان هذا قائمة الطعام. سألته بعد ذلك عن نظرية الأوتار، فهو بالتأكيد يؤدي عملاً ما. جعلني هذا أتحدث عن عدم حبي للرياضيات والفيزياء. إن ذكريات

المدرسة الثانوية حول مدرسة الفيزياء السمينة الصارمة جعلتني أبتسم، وأعلن عن كراهيتي لمادة الرياضيات. مازال الأمر لا يعنيني، ومازلت أفكر فيما يمكنني أن فعله وقتما أريد. لكن قضية مادة الرياضيات هذه بدأت تزعجني. لكنني لا أتحدث عن مدرسة الفيزياء في المدرسة الثانوية. في الواقع لا يجب أن لا أذكرها. إنها ترد على خاطري في هذه اللحظة. "يان" يأخذ نظرية الأوتار هذه بجدية. يزعجني التفكير في كونه يحب أن يتحدث نظرية الأوتار، وهو على ثقة بأنها مناسبة تماماً لطعام العشاء في المطعم الهندي و لا يعنيه رأي مطلقاً ما عن كنت أتفهم الأمر. المهم أن الوقت يمر وأنهم يعدون لنا الطعام.

حتى "يان" ظهره. شربنا الماء وهو يميل على الطاولة، ويصف لي بحد كفه غشاء ما. لا اعرف عن أية غشاء يتحدث. نحن لا نتكلم بلغة مشتركة. أردت أن أسأله عن شيء ما، لكن في الواقع جذبتني يده، يده النظيفة التي ترتجف قليلا. نعم، يداه ترتجفان. أتابعها كما أتابع حواراتي مع المرضى. أول مرة لاحظت هذا الأمر كان عندما راح يتحدث عن الأغشية. بعدها لم تفارق عيناي يده. فكرت كيف أسأله عن هذا الأمر في الظروف العادية. وقتها أدركت أن الظروف لم تكن طبيعية مطلقاً، خاصة وأنا أرى يداه ترتعشان وهو يقطع بهما أثناء الحديث الخبز الهندي المنتفخ ثم يغمره في الصلصة الحادقة. عندها فهمت لماذا كان حريصاً على أن تكون يداه المرتعشتان نظيفتان.

أردت أن ألمسها، ألمس يديه. أردت أن أسأله، لا أريد أن أعترف، لكنني فعلاً أردت أن أتحدث عن أمر أكون واثقة منه أنا أيضا. عن رعشة الأيدي مثلا. إن رعشة الأيدي موضوع مناسب للحديث أثناء العشاء الهندي. يمكنني أن أتحدث عن رعشة الأيدي تماماً كما يتحدث "يان" عن نظرية الأوتار. بل إنه مناسب أكثر، طالما أردت أن ألمس يديه. مناسب أكثر أن أطلب منه أن يضع يديه أمام عينيه، ويتابع رعشتها، ثم أسأله عن السبب، وأتركه يفسر الأمر كما يشاء. فليفسره كما يشاء. الأهم هو ألا نتوقف عن التفكير بطريقتنا الخاصة، حتى لو كان الأمر يتعلق برعشة الأيدي. لكن ربما لن يعجبه الأمر، لذلك أجاهد في تفسير الأمر كما أراه، وأتركه يأكل الأرز بالسبانخ. بعد أن انتهينا من تناول الطعام، دفعنا الحساب ، وهو أمر أثار دهشتي. دفع كل منا عن نفسه، الأمر الذي أدهشني أيضا، لكنني لم أظهر له ذلك. أعترف فقط بدهشتي عندما خرجنا من المطعم الخالي من الزبائن والمفعم بالروائح الهندية. عندما خرجنا إلى الجو الماطر، كان المطر قد توقف. أدهشني عندما أخبرته بأن سيارتي تقف بالقرب من المطعم، عندما عرفت أنه يسكن بالقرب مني،

فعرضت عليه أن أوصله. أدهشني الفراغ الذي خلفه ورائه في سيارتي وشعرت به فيما بعد.

حتى انتهي

كثيراً ما كنت أعتقد أو تبنيت كما يقال رأياً مفاده أن التغييرات لا تحدث بالتدريج، بل فجأة. بصفة عامة نحن نعتقد في تدرج الأشياء، في الغروب البطيء بدلاً من العتمة المفاجئة، إن الشمس لا تطفأ من زر مكتوب عليه "إطفاء"، بل تغرب وتختفي بهدوء وبطء. ونحن كذلك نعتقد بأن حياتنا تتغير بالتدريج، ببطء وهوادة. نقول أننا ترعرعنا على شيء. شيء متدرج لا يحدث فجأة. لا يحدث بالسرعة التي يندفع بها الوتر عند تحريره. كما نؤكد بأننا ننمو بالتدريج حتى نصل مرحلة النضج، أو نصل إلى قرار ما، أن يصير عندنا أولاد أو نعمل لمدة ثمانية وثلاثين ساعة أسبوعيا أو نغير وظيفتنا فيما بعد أو نتركها أو نبقى فيها. كذلك كنت على قناعة أن "تيو" قد اتخذ قرار بأن يكون له طفلاً مني. أما أنا فقد قررت ألا أنجب أطفالا. أعلنت بصوت عال وبسعادة أن الأمر يختلف في الواقع، وأن الأمور تحدث بين ليلة وضحاها وبسرعة، وتتغير بين لحظة وأخرى بشكل غير متوقع وبلا إعداد.

أتذكر على سبيل المثال عندما اتخذت قراراً بأن أفعل الأمور بسرعة، وأن أتوقف عن إنجازها ببطء. هذه إحدى الأشياء التي مازلت أتذكرها وبقيت عالقة في ذاكرتي إلى الأبد. لم أكن أتوقع أن تبقى هكذا إلى الأبد. بدأ الأمر عندما كنت في الصف الأول، في

البداية تماماً عندما لم أكن قد تعلمت بعد كتابة الأبجدية. كنت مازلت ألهو بالقلم حتى أتمكن من الإمساك به. وبدلاً من الحروف طلبوا منا أن نرسم خطوطا. بعضها معوجاً يكتب من اليسار إلى اليمين، وبعضها بالعكس من اليمين إلى اليسار. وطلبوا كذلك أن نملأ بعض الأسطر بخطوط قصيرة وطويلة. بدا الأمر بطيئا، أمسكنا بالقلم بحرص في الاتجاه الذي أخبرونا به، من أعلى السطر حتى أسفله. وقتها كنت أجلس عند طاولة طعام مستديرة، ففي بيتنا قديم الطراز كنا نقول على غرفة الاستقبال بأنها غرفة الطعام. وكعادتي كنت أجلس كل يوم بعد الظهيرة عند الطاولة الكبيرة التي ورثناها عن جدي ووضعناها في شقة كبيرة بأحد الأحياء، جلست أكتب الواجب المنزلي، خطوط من أعلى إلى أسفل بالقلم الحبر. ظللت أكتب بهذا القلم لعدة سنوات فيما بعد. كنت أجلس عند الطاولة الكبيرة، أكتب الواجب المنزلي، بينما كان والداي يعدان شيئا ما في المطبخ. كان هذا بمثابة طقس التزمنا به في بيتنا

في ذلك اليوم بعد الظهيرة، وكانت من المرات الأوائل، لم يصبح فيها الطقس طقساً بعد، بل مجرد تجربة، أو نظام مستحدث. كان هذه هي أولى أيامي في المدرسة الإلزامية، حيث لم نكن نكتب حروفاً بل خطوطا. جلست عند الطاولة وأنا مستاءة من رسم تلك الخطوط. وفجأة وليس بالتدريج، بل بغتة وبدون أدنى تفكير، شعرت أنني لست مضطرة إلى أن أرسم الخطوط ببطء، بل يمكنني أن أرسمها بسرعة، واحد تلو الآخر؛ فتمتلئ الأسطر بسرعة. بهذا أنتهي من الواجب المنزلي.

في ذلك اليوم ومع بداية عام جديد من أعوام ستأتي لاحقا، قضيتها في عدة مدارس، قررت أن الخطوط وكل ما فعلته فيما بعد لن أنجزه ببطء وتمهل، لكن بسرعة. لقد غيرني ذلك القرار، وتغيرت معه كل حياتي اللاحقة. أو على الأقل على مدى عدة عقود. لم أتغير بالتدريج، بل فجأة وبجرة قلم. مازلت أتذكر أن المدرسة وبختني في اليوم التالي وهي مندهشة، لأنها حتى ذلك اليوم وعلى مدى عدة أسابيع مضت، عرفتني على أنني تلميذة حريصة تكتب واجباتها المنزلية بتأنق. منذ ذلك الصباح عندما وقعت المدرسة على الخطوط الرأسية صرت إنسانا آخر. أيا كانت الطريقة التي كتبت بها الخطوط، لكنني عرفت أن الأمر لا يتعلق بكتابة الأحرف في الواقع، وأن ما يهمني هو امتداد الأشياء لا عمقها.

بعد ذلك مات أبي. إن الموت واللحظة التي نعرف فيها أن شخصاً ما توفي، شخص لا يمكنك تعويضه، بل لم يكن من الممكن تعويضه، حيث من لا يعوض في حياته لا يمكن أن يعوض بعد مماته أيضا، هذه اللحظة تعد نقطة تحول، ينهار فيها عالمك. بعد خبر كهذا تصير

شخصاً آخراً غير الذي عرفته قبل الوفاة. يعد الموت منعطف رغم أنه لا يأتي فجأة. فمن كان ينبض بالحياة صار الآن ميتا. بطريقة ما مات بالتدريج. انتهى. فلا يجوز أن يموت الإنسان قليلاً. فالموت مزدوج في مفهومه، شيء بين نعم و لا، بين الصفر والواحد بدون فواصل، بدون أن نعبر عنه من الكل حتى العدم، فالإنسان إما حي أو غير حي. في ذلك الصباح عرفت أن أبي قد مات. في صباح يوم الأحد عبر الهاتف وفي الساعة السادسة والنصف علمت من الطبيب المناوب في قسم الأورام، من الطبيب المناوب الذي كان عنده وردية صعبة ليلة السبت، ومات مريضه في الصباح الباكر يوم الأحد، عندما أوشك أن ينهي ورديته. وكل الأوراق التي تملأ عندما يموت أحد في المستشفى اضطر إلى أن يملأها هو وليس الطبيب الذي يتناوب معه يوم الأجازة.

كان على ذلك الطبيب المناوب أن يفحص جثة أبي في الصباح الباكر ليتأكد من وفاته. وفاة من كان على قيد الحياة في الليلة السابقة. رغم أن الأطباء المعالجين والممرضات في قسم الأورام كانوا يتوقعونها، وحتى نحن، أقاربه قليلو الخبرة كنا نتوقعها في قرارة أنفسنا، بالطبع ليس في ذلك اليوم بالتحديد. كنا فيما يتعلق بالموت عديمي الخبرة. كان على الطبيب المناوب أن يسجل حالة الوفاة في الدفتر، وأن يملأ كل الاستمارات والأوراق التي تتعلق بفحص المتوفي وإعلان الوفاة ثم يتصل بأهله هاتفياً وهو يعد القهوة حتى ينهي هذه المكالمة الثقيلة، وتبرد القهوة أثناء المحادثة فيشربها وهو يملأ الاستمارات. كان يريد أن يشعر وهو يعد القهوة أن الأمر قد انتهى، أو ربما أعدت له الممرضة القهوة. ربما قال لها أنه سيذهب للاتصال بأقارب المتوفي حتى ينتهي من الأمر. فعرضت عليه الممرضة من باب المشاركة أن تعد له القهوة إلى أن يعود. فهي تعرف أن الطبيب مر بوردية صعبة ومازال عليه أن يملأ الاستمارات البغيضة التي يشكو منها الجميع. ربما أن هذا الطبيب المناوب قد اتصل بزوجته بعد ذلك ليخبرها بأنه للأسف سيتأخر لأن مريضه مات في الصباح الباكر ويجب أن يتصل بأقاربه ويملأ الأوراق. ربما أن ابنته هي التي ردت عليه وأخبرها بالأمر أولاً ثم أخبر زوجته من بعدها. ربما لهذا السبب اضطر إلى تأجيل زيارة لأبويه. أما أبي الذي كان لا يحب أن يضايق أحداً عرض بموته حياة الطبيب للارتباك. أتخيل أبي وهو يقول إنه سيؤجل وفاته حتى ينتهي الطبيب من تنفيذ التزاماته.

اتصل هذا الطبيب المناوب بأمي أولا، أو بالأحرى قامت موظفة الاتصال بالمستشفى بالاتصال بأمي أولاً على رقم الهاتف الموجود في ملف أبي بالمستشفى. فالأطباء كانوا يتوقعون بأنهم إن عاجلاً أو آجلاً

سوف يحتاجون إلى الاتصال بخصوص مرض أبي. كان رقم الهاتف مكتوباً بشكل واضح في بطاقة المستشفى. على أية حال أمي تستيقظ يوم الأحد مبكرا، كانت وقتها تأخذ حماماً دافئا، فلم تسمع صوت الهاتف في الحجرة التي كنا نسميها في بيتنا العتيق صالة. وأنا كذلك لم أسمعه، لأنني كنت نائمة في غرفة الأطفال التي تخصني في ذلك الوقت وكانت أبوابها مغلقة. بالطبع اضطرت موظفة الاتصال بالمستشفى أن تبلغ الطبيب المناوب أنها لم تتمكن من الاتصال، فأصيب الطبيب بالتوتر لأنه كان يرغب في أن ينتهي من الأمر في أقرب وقت لكي يبدأ في ملء الاستمارات ويذهب إلى البيت بعد وردية كهذه. لهذا اتصل بقسم التمريض من غرفة مكتبه وهو ثائر قليلاً لكي يبحثوا في الملف الصحي عن رقم هاتف آخر، رقم ما حتى وإن كان رقم هاتف محمول. فليس من المعقول أن لا يرد أحد من أقاربه في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم الأحد، خاصة ولديهم في قسم الأمراض رجلاً يخضع للعلاج ويشارف على الموت. تعجبت الممرضات قائلة أنهم لم يروا أقارب هكذا من قبل. فلو كن مكانهم ولديهن قريباً يصارع الموت في قسم الأمراض لما نمن طوال الليل ولانتظرن رنين الهاتف. أتذكر كيف كنا نتوقع موت أبي. فرقم هاتفي، رقم هاتفي النقال الذي كان ملقى على الطاولة الصغيرة بالمستشفى بجوار سرير أبي قاموا بتسجيله بعناية بجوار العنوان في سجلات المستشفى ثم لاحظن أن هناك رقم حقيقي لهاتف ابنته، فأملوه على الطبيب الذي طلب من موظفة الاتصال في مركز اتصالات المستشفى بأن تجرب ذلك الهاتف. بعدها تحول من الإرهاق إلى السخط. كيف ينام أقارب المتوفي في هدوء ولا يرفعون سماعة الهاتف. أما أنا، فعرفت أن أبي قد توفي من جملة ألقيت على وكأنها من جهاز تسجيل، مثل ذلك الجهاز الذي يعمل في مركز اتصالات مصلحة الضرائب، عندما نتصل بعد ساعات العمل الرسمية فيخبرنا أحدهم بأن ساعات العمل انتهت للأسف ويطلب منا معاودة الاتصال في اليوم التالي بين الساعة الثامنة والساعة الرابعة بعد الظهر وأن أحد موظفي المصلحة سيرد على تساؤلاتي.

إذن رن هاتفي المحمول في صباح يوم الأحد. الساعة السادسة والنصف وأنا مازلت نائمة. كان "تيو" عندنا في زيارة وينام معي في سريري. كنا نائمون في غرفتي المخصصة للأطفال في ذلك الوقت. هذه الغرفة لم تتغير كثيراً الآن منذ أن كانت غرفة أطفال. وبما أنني الطفلة الوحيدة لأبوي فقد كان أثاث غرفتي عبارة عن سرير واحد طوال الوقت ولا يسع سوى شخص واحد، طفل واحد. ليس "ليو" أول رجل ينام في هذا السرير، إنها المرة الأولى التي أنام معه في هذا السرير صغير جدا. نستيقظ عدة مرات أثناء الليل ليدفع كل منا

بالآخر حتى يصنع مكاناً لنفسه. عندما رن الهاتف في الساعة السادسة والنصف صباح ذلك الأحد وفي تلك اللحظة التي سمعت فيها الهاتف انتبهت إلى ما حدث، فلم يكن طبيعياً أن يتصل بي أحد على هاتفي المحمول يوم الأحد في الساعة السادسة والنصف صباحا. تناولت الهاتف بيدي وضغطت بعصبية على الزر الأحمر قبل أن أنظر إلى رقم المتصل على شاشة الهاتف. ثم أعدته بقلق إلى الطاولة القريبة من السرير في غرفتي، وتظاهرت بأن رنين الهاتف قد أزعجني وأن الأمور ستكون الآن أفضل. فقد قررت أنني لن أرد على المكالمات يوم الأحد الساعة السادسة والنصف. أيا كان المتصل، فليتصل في وقت آخر. ثم انتبهت إلى الرقم. إنه رقم من خط أرضي. لذلك لم يكن ممكناً أن أتجاهل الأمر.

في تلك اللحظة كنت كثيراً أفكر في الحديث الذي يدور حول الموت في أسرتي منذ فترة. كنت أتخيل موت أبي منذ صغري. كنت دائماً أرى أبي في تخيلاتي تلك وهو عائد إلى البيت من العمل. كنت طوال حياتي أتخيل الأمر عندما أعرف به يوماً ما. فأنا كنت على ثقة أنه سيحدث يوماً ما، ولا مفر منه. لا أعرف السبب لكنني كنت أتخيله موتاً فجائيا. كنت دائماً أتوقع أن أبي سيسقط في الشارع وهو عائد يوماً ما من العمل. وأن هاتف بيتنا سيدق في الساعة الرابعة بعد الظهر. فأبي كان يترك عمله دائماً في الساعة الثالثة والنصف والطريق إلى البيت يستغرق نصف ساعة. كنت دائماً أتخيل أن أبي سيموت بين الساعة الثالثة والنصف والرابعة بعد الظهر. وعندما كان جرس الهاتف يدق في هذا الوقت ولم يعد أبي إلى البيت بعد كان قلبي يدق بعنف وأنا أرفع السماعة، كلي خوف يفوق خوفي عندما التقطت هاتفي المحمول في صباح ذلك الأحد. الغريب في الأمر أنه حدث ذات مرة أن أبي عاد من عمله في حالة سيئة. كانت هناك شكوك بأنه يعاني من التهاب في الزائدة الدودية ونقلوه من العمل إلى المستشفى مباشرة. حدث ذلك منذ وقت طويل جدا. وعرفت بالأمر من خلال الهاتف وكانت الساعة الثالثة والنصف عندما اتصل بي زميل أبي في البيت. وقتها قل لنفسي أن الأمر حدث تماماً كما أتخيله منذ طفولتي، رغم أن أبي لم يمت وقتها وغادر المستشفى في اليوم التالي. لن أنسى أبداً عندما هممت مع أمي وذهبنا إلى المستشفى في صباح اليوم التالي لزيارة أبي، لن أنسى عندما دخلت إلى منطقة المستشفى ورأيت أبي وهو يأتي نحونا، يرتدي ملابسه العادية وكأنه انصرف من العمل لاستلام شيء ما. قال لنا أنهم لم يتأكدوا من وجود التهاب في الزائدة الدودية وأنه غادر المستشفى بناء على تعهد منه. وفجأة عاد عالمي كما كان. في ذلك اليوم ذهبنا جميعاً إلى محل الحلوى. لكنني كنت أعتقد أنها لم تكن سوى تجربة وأن هذا

سيحدث يوماً ما، تماماً بالطريقة التي تخيلتها وسوف أعرف وقتها ما حدث عندما يتصل أحدهم في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهيرة، عندها سأعرف بالأمر، تماماً مثلما أعرفه الآن.

obeikandl.com

"تيو" والفئران

كان شكل المبنى من الخارج يوحي بأنه مصنع. مر بالبوابة التي يحرسها أحد الحراس عند مدخل المنطقة، ضغط على زر على لوحة التحكم عن بعد، فرفعها ثم دخل. أحياناً كان ينتاب "تيو" الخوف وهو يمر من أسفل البوابة الساقطة، خوفاً من أن تسقط على رأسه. كان بيت الحارس صغيرا، وبسيطا. قليل من الضوء يدخل إلى الفناء المظلم عبر الباب الزجاجي. كان "تيو" يتمنى أن يرى الثلوج وهى تسقط من خلال بصيص الضوء القادم من خلف الباب الزجاجي.

كان البوابة مسدلة مساء يوم الأحد، ولم تدخل أية سيارة إلى ساحة معهد البحوث في ذلك اليوم. مر "تيو" بالبوابة، وأومأ للحارس برأسه ليلقي عليه التحية كعادته كل يوم. كان المبنى الرئيسي يقع في نهاية الفناء الذي تتوسطه مغسلة، تبرز منها مدخنة عالية من الطوب. يمكن تسلقها عبر سلم حديدي أسود.

تذكر "تيو" عندما رأى المدخنة وسلمها لأول مرة. ذلك السلم الذي كان يراه من شرفة بيت جدته فوق السقف حيث تنمو ورود صحراوية. كانت أمه تحكي له كثيراً أنها كانت تتأكر فوق ذلك السقف في لهيب الشمس الحارقة، وهى مازلت طالبة في المدرسة. لم يزرع أحد تلك الورود الصحراوية، بل كانت تنمو من تلقاء نفسها وتعيش على ماء المطر.

بعد ذلك كانت أمه تصعد إلى سطح البيت أثناء زيارتهم لجدته في أجازة الصيف لتتفقد الزهور وتهذبها. في كل مرة كان "تيو" يريد أن يصعد معها، لكنه في كل مرة كان مازال صغيراً، فتأجلت رحلته إلى حقل الورود الصحراوية لمدة عام. وفي النهاية لم يصعد "تيو" إلى سطح البيت على الإطلاق. هجرت جدته البيت ثم باعته. قاموا بنقل بعض تلك الزهور إلى شرفة البيت؛ حيث ذبلت في أواني الزهور. على مدى عدة سنوات و "تيو" يخطط بأن يأخذ إحدى تلك الأشجار، ويزرعها في شقته كي يحافظ على هذا التقليد. أعجبته فكرة أن يحكي لأولاده يوماً ما عن الورود الصحراوية، وعن سطح البيت الذي لم يراه في حياته.

راحت هذه الفكرة تراوده من جديد. كان "تيو" يفكر في سقف المنزل عند جدته في اليوم الذي مر فيه بالمنزل لأول مرة. لأول مرة راح يرى منطقة مركز البحوث وكأنها مصنع. تهالكت مبانيه، وامتنع معهد الآثار عن ترميمها، لأنها من أقدم الأبنية في المدينة. كانت حوائط أبنية المستشفيات خلف المدخنة مبنية من الطوب الأحمر الذي اكتسى باللون الأسود، وكأن سخام تراكم عليها. كان باب المغسلة مغلقاً في مساء يوم الأحد، عليه لافتة بلاستيكية كتبت عليها

جملة تحذر من خطر العدوى في المكان. كان أحياناً يرى موظفين، يقفون أمام باب المغسلة يرتدون زياً أبيضا، وأحذية مطاطية ويدخنون، رغم أن التدخين كان ممنوعاً رسمياً في كل أرجاء المعهد. يقع المبنى الرئيسي ذو الطوابق الثلاث على جهة اليمين من الفناء. يوجد في الجهة المقابلة له بيت قصير، يضم قاعة محاضرات وأمامه مبنى متهالك تماماً ملحقة به المغسلة. توجد بين الأبنية مواقف للسيارات. لا يسمح للوقوف بها سوى للسيارات التي تحمل بطاقة موجودة في مكان ظاهر خلف الزجاج الأمامي. لا يقف اليوم سوى سيارات بعض الموظفين الذين لا يحتاجون سياراتهم أثناء عطلة نهاية الأسبوع. تواجد في منطقة المعهد الكثير من القطط الضالة، ويقال أيضاً الكثير من الفئران التي كانت تتسلل أحياناً في فصل الشتاء أسفل السيارات، لتقضم أسلاكها. كانت القطط تتحرك في الفناء، لكن "تيو" لم يتمكن من رؤية تلك الفئران مطلقاً.

جاب الفناء عدة مرات منذ يومه الأول، حتى صار لا يفكر في بيت جدته، ولا في المصنع. كان يعرف أنه عندما يأتي إنسان ما إلى هنا لأول مرة، فسيذكره المنظر هنا دائماً بشكل المصنع. كان "تيو" دائماً يفسر الأمر بأن هذه المباني القديمة يجب أن تحافظ على شكلها هذا عند ترميمها.

لم يعد يتذكر اليوم شيئا من هذا. هبت الرياح، ولم تسقط الثلوج. ولن تسقط إلا بعد عدة أيام. كان يرتدي معطفاً ثقيلاً للتزلج، لا يناسب هذه الفترة من العام. يلبس حذاءاً رياضيا. بحث في جيبه عن رابطة المفاتيح التي تضم حلية متدلية على شكل طائر أيسلندي من فصيلة الـ"بفن"، كان موجوداً على كل بطاقة تأتي من أيسلندا. واليوم ومثل كل يوم لم يعد يتذكر أجازته التي قضاها مع "شاركا" في أيسلندا. انزوت هذه الذكرى منذ وقت بعيد.

فتح أبواب المبنى حيث يوجد مكتبه، وصعد أولى درجات السلم. كان الجو حاراً وخانقاً في غرفة المكتب. فقد كان صيف هذا العام حاراً، امتصت جدران المبنى حرارة الشمس مثل الاسفنجة. لم تهدأ حرارة الجو إلا بالأمس. ومن وقتها والمكاتب مغلقة. خلع معطفه بسرعة، ثم سحب قدمه من حذاء له كعب من الفلين. لم يشعل الحاسوب. لكنه خرج مسرعاً من غرفة مكتبه، وانطلق عبر الممر إلى المعمل. كانت طرقات المبنى خالية. ألقيت على طاولة قصيرة عدة نشرات دعائية لشركات أدوية، وكتاب منسي حول رعاية الأطفال الرضع. ربما تركها هنا شخص ما كان ينتظر شخصاً آخر في هذا الرواق، فراح يشغل وقته بالقراءة. لقد اعتاد "تيو" على أروقة معهد الأبحاث، حتى صار رؤية المشاهد اليومية شيء عادي، ولا تستدعى ذكريات ولا تتداعى معها كما كان يحدث من قبل. لاحظ على الفور

أن الكتاب لم يكن من مقتنيات المعهد. لم يكن الكتاب مثل حلية المفاتيح التي يحملها في يده مرات كثيرة في اليوم الواحد، لا تتداعى معها ذكريات "ركيافيك". لكن بمجرد أن رآه تداعت له على الفور صورة "شاركا". لم يكن واثقاً من أن ظهورها على سطح أفكاره مبعث ارتياح له. قرر أن لا يفكر في الكتاب، ولا يستسلم لحالة التردد في أن يأخذه إلى غرفة مكتبه، حتى يأتي صاحبه ليبحث عنه. (بعد عدة أيام وبعد أن نسي "تيو" أمر ذلك الكتاب رآه مرة أخرى ملقى على سطح صندوق القمامة في فناء المعهد، وهو يُلقي بأكواب القهوة الورقية هناك).

أراد أن يذهب بسرعة لمشاهدة حيواناته. انعطف عند ناصية الرواق، ثم فتح أحد الأبواب في نهايته، وجذب الباب من خلفه بهدوء حتى لا يحدث ضجيجا. انتشرت بجوار بعض حوائط الغرفة طاولات عليها أقفاص للحيوانات. كان الضوء في الحجرة خافتا، فوق كل قفص يوجد مصباح، يحاكي ضوء النهار. إن الجرذان حيوانات ليلية، ومن شأن ضوء المصابيح أن يجعلها تنام أطول وقت ممكن. في كل قفص قضيب حديدي تمشي عليه الجرذان، وكومة من نشارة الخشب يختبئ وسطها اثنان، أو ربما ثلاثة جرذان صغيرة. لم يلفت دخول "تيو" انتباه أي من الحيوانات.

صار يشعر بالأمان. كان يحب أن يقضي وقت الأصيل والمساء في أيام الأحد في المعمل، هناك لا يفكر فيما سيفعله. كان منزعجاً لأنه لن يتمكن من الحضور إلى هنا لعدة أسابيع. أزعجه هذا الأمر تماماً مثل الكتاب في الرواق والذي لم يعد يفكر فيه الآن. لقد نسيه كما نسي مدينة "ركيافيك" و"شاركا". توجد طاولة ومجموعة من المقاعد فوق سطح مرتفع في الحجرة، لا توجد عليه أقفاص للفئران. جلس عند الطاولة بعد أن خلع حذائه الذي كاد ينزلق من قدميه، ويسقط على الأرض فيحدث فرقعة. كانت أرضية الغرفة مغطاة بمشمع رقيق قابل للغسيل. انتشر عليه التراب أسفل الطاولة. اختلط التراب بنشارة الخشب الذي تطايرت من الأقفاص. جلس على المقعد، وأدار ظهره للنافذة التي تطل على فناء المعهد، وعلى فوهة المدفئة وسلمها الحديدي، الذي يذكره بسقف بيت جدته والزهور الصحراوية. اتكأ بكفيه على الطاولة، وحرك قدميه وكأنه يجلس على حائط حجري في وقت الصيف، ويُشرع في إشعال سيجارة. في أحد تلك الأيام عندما كان يجلس على سور يلف الفناء، أشعل سيجارة وراح يتخيل نفسه وهو يجلس يوماً ما في المعمل ينظر إلى الفئران.

كان كثيراً ما يراود "تيو" شعور بالامتنان لأن حلمه قد تحقق. لقد تردد على القلعة على مدى سنوات، أسبوعاً تلو الآخر، يجلس على سورها الحجري المطل على المدينة وعلى كنيسة صغيرة، ويتخيل

نفسه وهو يراقب الجرذان. راح والديه يؤكدان له انزعاجهم من هوايته هذه، وأنه لن يجني منها الكثير من المال، وخاصة في وقت لم يكن كلمة عالم تعني رجلاً يتنقل بين جامعات العالم ويشارك في مؤتمرات تُعقد في العواصم العالمية؛ بتمويل من المنح الأوروبية. أما الآن فهو يجلس في المعمل الذي هو زائره الوحيد تقريبا. فلم يظهر أي من زملائه حماساً للحيوانات. فهم لا يبرحون أماكنهم أمام أجهزة الحاسوب، ولا يذهبون إلى المعمل إلا عند الضرورة ولفترة قصيرة؛ من أجل متابعة الأجهزة وأخذ رسوم بيانية. كانوا يشتكون من الرائحة الكريهة، وجهاز الراديو الذي يعمل على الدوام. بالفعل كان الراديو في المعمل يعمل باستمرار. والسبب هو أن الهدوء يجعل الحيوانات تشعر بالضيق. يوجد في بعض البلاد قانون يلزم الأماكن التي توجد بها حيوانات تجارب أن يتم تجهزها بخلفية موسيقية لا تتغير. ورغم أن القانون لا يلزمهم هنا بهذا الأمر، إلا أن أنهم استقدموا هذه العادة من المعاهد الدولية الحديثة ويسعدهم أن يؤكدوا هذا الأمر للزائرين، حتى يُثبتوا أنهم على المستوى الدولي. كانت يوجد جهاز راديو صغير فوق أحد الأرفف فوق الطاولة. كان يبدو مثل مذياع في غرفة المطبخ عند والدي "تيو" عندما كان صغيرا.

حتى ذكريات الطفولة هذه كانت تسبب له نوعاً من القلق المتزايد. كان مستاء أيضاً من تزايد الأمور المزعجة من حوله في الفترة الأخيرة. كان "تيو" أثناء الحديث عن الأطفال تتراءى أمام عينيه صورته وهو طفل، صورة أبويه وصورته وهو صبي صغير. كان يعرف أن أوقات عيد الميلاد تقترب. وسوف يدور الحديث في المكاتب أثناء تناول قهوة الصباح عن العك والهدايا. سوف تنطلق في الإذاعة حملات الدعاية لأفلام العيد. عندها ستتحدث "لوتسيا" عن اختلافها مع "توماش"، حول إن كان "لوكاش" كبير إلى الحد الذي يسمح له بالذهاب إلى السينما. ستعلو ضحكاتهم من كتيبات شركات السياحة، التي ستظهر على الطاولة في الدهليز (في المكان الذي رأى فيه اليوم ذلك الكتاب) وهم يرون أنفسهم، وهم يحملون أطفالهم في حقائب ناعمة، وهم على الزلاجات قرب بيوت الإجازات. سيتحدث "تيو" عن ذكرياته عن جدته عندما كانت تزورهم في أعياد الميلاد. جدته التي قضت معظم حياتها وحيدة في البيت الذي نبتت فوق سقفه زهور صحراوية، وكيف أنها كانت تخبز لهم بيوت الحلوى في كل عيد، وفي مطبخهم الصغير، وهو يراقبها وهى تضع الأشكال فوق العجين الذي بسطته أمامها. كان واثقاً بأن هذه الأشكال هى نفسها التي كانت تستخدمها لتصنع بها بيوت الحلوى لأمه. كانت مازالت تحتفظ بها مطوية في كتاب الطبخ الكبير. كانت تطهو الأجزاء المختلفة للبيوت، ثم تصنع لها غطاء من السكر. كان "تيو" يساعدها في ربط أجزاء

الحلوى مع بعضها بخيط، يجعلها متماسكة إلى أن يجف غطاء السكر عليها. كان من إحدى مغامرات العيد، مراقبة البيت، وإن كانوا سينجحوا في بناءه من أول مرة أم لا.

كان يتذكر طفولته دون أن يدرى صباح كل يوم من الأيام التي تسبق أعياد الميلاد، وهم يشربون قهوة الصباح في المكتب في مزاح جيد. لم تكن "لوتسيا" تتحدث عن طفولتها مطلقاً. كانت ذكرياتها حول أعياد الميلاد تدور حول أولى الأعياد مع "لوكاش"، وأول أعياد قضتها مع "توماش"، وليس في بيتها. وقتها كانت تعيش مع صديقها في حجرة إحدى بيوت الطلبة. كانا يطهيان الطعام في مطبخ مشترك في آنية من الألمونيوم، تستعمل كوعاء لتعقيم أنابيب الاختبار. فلم يكن عندهما وسيلة أخرى للطهي. جاءت في العام الماضي إلى المعمل طبيبة شابة للتدريب. كانت دائمة الابتسامة واجتماعية، أقامت صداقة مع الجميع بسرعة. نسى "تيو" اسمها، لكنه لم ينسى أنها قالت ذات صباح بأنها أكلت في أولى أعياد الميلاد التي تتذكرها سمك الشبوط. لقد ولدت في شهر فبراير، لذلك يكون قد مر على مولدها عام تقريباً في شهر ديسمبر. كان "تيو" سعيد لأنها كانت الوحيدة التي تحدثت عن طفولتها عند الحديث عن أعياد الميلاد. كان "تيو" غالباً يلزم الصمت. ليس لأنه كان قليل الكلام مقارنه بزملائه المتدربين، ومنغلق على نفسه، لكن كان يعتقد أنه من غير اللائق أن يتحدث رجل في مثل سنه عن أبويه. راح يتذكر أثناء حديث "لوتسيا" عن وعاء الألومونيوم، وجدته التي كانت تطهر كؤوس الفاكهة المطبوخة في وعاء ضخم مشابه. كان الوعاء يقبع بقية العام في المطبخ أسفل حوض الغسيل. فقد كان كبيراً على أن تضعه في خزانة الأطباق. في وقت الطهو تقوم جدته بغسله في حوض الحمام بمكشطة معدنية، ثم بمسحوق الأواني.

كان "تيو" يجاهد نفسه حتى يتذكر أعياد الميلاد التي قضاها مع "شاركا". فضلاً عن أنها كانت أولى أعياد الميلاد التي قضياها سوياً، وكان مخزن ذكرياتهم المشتركة مازال فارغا. لم يمض على أول لقاء لهما الوقت الكثير حتى تخبو ذكرياتهم، وتصبح باهتة مثل الصور الغير ملونة في ألبوم جدة وجدته. ها هو من جديد ينتهي به المطاف عند جده وجدته التي كانت تقف في الشرفة، وتنظر إلى أم "تيو" وهى فوق السلم، تحذرها حتى لا تسقط. كان "تيو" على قناعة تتزايد يوماً بعد الآخر بدون سبب بأنه ليس من اللائق الحديث عن طفولته. وإلا سيصبح شخصاً غريباً وعند أول حديث عن أعياد الميلاد، ستتداعى الأحاديث عن أعياد ميلاد أخرى، نظمها هو بنفسه. لكنه مازال يجلس على المقعد في حجرة المعمل، يفكر في جهاز الراديو الصغير عند والديه في المطبخ فوق الثلاجة. ويتذكر

عندما كان يستمع إلى أخبار الصباح في كل يوم قبل أن ينصرف إلى عمله. جلس على المقعد في المعمل يفكر كيف أنه في أصيل يوم الأحد جلس بنفس الطريقة فوق السور المحيط بفناء القلعة وأشعل سيجارة.

مر وقت طويل، انتابته بعده رغبته في إشعال سيجارة. فمد يده اليمنى يتحسس لاصقة النيكوتين تحت قميصه. كان يعرف أن الجو سيكون حاراً في المعمل، لذلك ارتدى قميصاً خفيفاً بأكمام طويلة، وفوقه معطف شتوي ثقيل. مد يده على صدره يبحث، حتى وصل إلى جلد ذراعه. لم يجد لاصقة النيكوتين، فتذكر أن آخر ملصقة قد انتزعها قبل أن يغادر منزله. لذلك يشعر برغبة في إشعال سيجارة. أثار حفيظته أنه اضطر إلى العودة إلى مكتبه في المعهد، فلقد ظل طوال اليوم يفكر في المعمل وجوه الهادئ. لكنه كان يعرف أنه سيظل يفكر في نوبة النيكوتين المحببة التي انتابته. انسل من على المقعد، ثم ارتدى حذائه، ومشى بحذر فوق مشمع الأرضية. وكعادته حاول ألا يصدر صوتاً عالياً قد يزعج الحيوانات، رغم أنه يعرف أن الحيوانات معتادة على وجود الناس في المعمل، وأن خطواتهم لا تزعجهم.

كان معطف المطر ملقى على زراع المقعد، فالتقطه بسرعة، وأخرج من جيب المعطف علبة معدنية صغيرة، ثم ذهب إلى الحمام. ورغم أن غرفة المكتب كانت خالية ولم يكن مضطراً إلى أن يغادرها، فقد اعتاد أن يختبئ في حمامه الصغير، حيث لا يزعجه أحد هناك. أشعل ضوء الحمام، ثم فتح غطاء العلبة المعدنية العلوي بأحد المفاتيح. عندما ابتاع ملصقات النيكوتين لأول مرة اجتهد في فتحها، وحاول أن يفض الغطاء المعدني بأسنانه، لكنه اضطر إلى العودة إلى حجرة المكتب ليقطعه بسكين، وجده فوق حامل الأواني بين أكواب القهوة وأطباق تستخدم لوجبات الغذاء السريعة. حاول عدة مرات فتح علبة ملصقات النيكوتين في أماكن مختلفة، وغالباً في حمامات المقاهي، لكن لم يكن بها أدوات حادة... أعتاد وهو في الطائرة، حيث منعته الإجراءات الأمنية من حمل مقص صغير أو سكين جيب، اعتاد أن يطلب نبيذا. كانوا يقدمونه في زجاجات صغيرة ذات غطاء معدني. كان يقطع بحافة الغطاء الحادة علبة الملصقات. اهتدى في نهاية الأمر إلى أنه يمكنه استخدام المفتاح لهذا الغرض، وخاصة مفتاح حجرة المكتب، حيث أن أسنانه متعرجة، فضلاً عن أنه يحمله معه دائماً في جيب سرواله الخلفي مع ملصق أو ملصقين للنيكوتين من باب الاحتياط. لكنه كاد ينساهما أثناء خروجه من البيت. فعاد ووضع بلا تردد بعض الملصقات في جيب معطفه.

تحرر الغطاء المعدني قليلا؛ فمزق "تيو" العلبة بأصابعه. ثم سحب كم قميصه حتى مرفقه. مرر راحته على ذراعه مرة أخرى. وجد بعض الخيوط وألياف من القميص قد التصقت بجلده، في المكان الذي وضع فيه ملصق النيكوتين السابق، وحدود الملصق المنزوع الداكنة مازالت واضحة. نبش بظفره في المكان الداكن اللزج فاحمر جلده. انتشرت في أماكن متفرقة من جلده خدوش بسيطة، في الأماكن التي كان ينزع منها الملصق بسرعة، فسبب سطح الملصق الرطب اللزج حساسية لجلده. لم يكن "تيو" سعيداً وهو يضع تلك الملصقات، إلا أنه كان فخوراً بنفسه لتوقفه عن التدخين. فلم تراه "شاركا" يوماً يدخن. غير أنه كان يكذب عليها وعلى نفسه أيضا، لأنه لم يستطع التخلص من النيكوتين مطلقاً. كانت البائعة في كشك السجائر تعرفه، حيث يبتاع منها كل صباح علبة سجائر وعلبة كبريت. كانت السيدة في كشك السجائر الموجود بجوار موقف الحافلات تعطيه نوعية السجائر التي يفضلها دون أن تسأله. أما الآن فهو يتعامل مع رجل صيدلي، يقف خلف الطاولة في صيدلية عند الزاوية، يتردد عليها مرة كل أسبوع على الأقل ليشتري علبة ملصقات النيكوتين. كان يخجل من هذا الأمر، ويستعد بكذبة بأن أبيه يرقد في مستشفى في الجهة المقابلة من الشارع، يصارع المرض. فهو مدخن شره، لذلك يشتري له علب ملصقات النيكوتين. لكن السيدة الصيدلانية كانت بحكم وظيفتها متحفظة، فتناوله بابتسامة علبة الملصقات دون أن تعلق. لم يكن يطلب ماركة محددة، أو يفسر لها بأن الملصقات التي تحتوي على واحد وعشرين جراماً من النيكوتين يأخذها في المرحلة الأولى من مراحل الإقلاع عن التدخين، ولا تستمر لأكثر من أسبوع. ربما سيستبدلها في الأسابيع التالية بملصقات تتراوح نسبة النيكوتين فيها بين أربعة عشر إلى سبعة ميليجرام. عندما أشترى الملصقات أول مرة طلب منهم أن يشرحوا له بالتفصيل طريقة استعمالها، رغم علمه المسبق بالأمر من خلال ما قرأه على شبكة المعلومات الدولية. منذ ذلك الوقت لم يكن يتظاهر أمام الصيدلانية بأنه ينوي الإقلاع عن التدخين. كان فقط يدفع مقابل الملصقات، وعلى الفور يخرج الملصقات من العلبة وهو يقف أمام خزينة الصيدلية، ثم يلقي بالعلبة في سلة المهملات عند المدخل، ويضع الملصقات في جيبه.

كثيراً ما كان يشغله سعر الملصقات المرتفع، وأن عليه أن يحاول أن يقلع عن التدخين بدونها. أحياناً كان ينوي ذلك لكنه ما أن يجد نفسه في المعمل عند أقفاص الحيوانات، ويسمع صوت الإذاعة الرتيب. لم يكن يفكر سوى في الشعور الطيب الذي يبعثه النيكوتين في نفسه، وفي خفقات قلبه المنبعثة بفعل جرعة النيكوتين، وطوفان

الأفكار التي تتدفق سريعا، لتشكل حلقات رائعة، وفي حالة السكر الصناعي التي لا يمكن أن يستغني عنها. كان سعيداً أن رائحة السجائر الكريهة لم تعد تنبعث منه. لكن إدمانه السري للنيكوتين كان يشعره بالذنب. كان يزيل آثار الملصقات من على ذراعه كل مساء. وعندما تسأله "شاركا" عن سبب احمرار جلد ذراعه يقول لها أول ما يخطر على باله، بأنها عدوى بكتيرية أو مرض جلي ما. لذلك يضع على جلده لاصق مضاد للبكتريا، وصفه له طبيب الأمراض الجلدية. كانت "شاركا" تصدق ما يقوله، وبعدها يخلدا إلى السرير متجاورين. تمرر أصبعها على ذراعه، وتسأله إن كان المكان المصاب لا يسبب له حكة جلدية أو ألم ما. كان دائماً يغير مجرى الحديث، وبعدها بأن يتوقف عن وضع تلك الملصقات. كان يقرأ على الانترنت في منتديات تتحدث عن الإقلاع عن التدخين، لكنه لم يقرأ شيئا عن الإقلاع عن وضع ملصقات النيكوتين. فدائماً يوصون بها كبديل فعال للنيكوتين، تساعد المدخنين عن تجاوز الأسبوع الأول بدون سجائر.

تحسس من جديد جلد ذراعه. شعر بأن بشرته صارت خشنة قليلا، أو اعتقد كذلك. راح يفكر كيف أنه استطاع أن يخفي سره عن "شاركا" طيلة تلك الأيام. أحياناً كانت تنتابه رغبة بأن يخبرها بكل شيء. يوضح لها بأنه سيكون في الأيام التالية عصبياً على غير العادة، ولن يكون الأمر متعلقاً بها، بل بافتقاده للنيكوتين. كان يشعر برغبة في طلب المساعدة، وتخطي الأيام الصعبة معها. لكنه عاود من جديد التردد على الصيدلية كل صباح. وقبل أن تظهر "لوتسيا" في المكتب يكون قد وضع أول لزقة على ذراعه الأيمن.

أخرج مستطيلاً شفافاً من الغلاف، أزال منه الرقاقة الواقية، ثم وضع اللزقة على ذراعه، في مكان من جلده ظهر نظيفاً بدون خدوش. مرر أصابعه على اللزقة عدة مرات حتى تلتصق جيداً. كان منظر اللزقة على جلده يبدو منمقا. يعطي انطباعاً بالفخامة. شعر عندما وضعها أول مرة بأنها تشبه الحلي الحديثة، أو مخدرات الشباب الأغنياء التي تعكس أضواء المراقص المتلألئة، أو مكملات الزينة شديدة الحداثة. كانت مثل هذه الأفكار تدور برأسه بعد أن يسري النيكوتين في جسمه، فتخف رأسه المليئة بالأفكار والصور. بدأت تفقد الملصقات سحرها. صارت عادة يومية شأنها شأن فرشاة الأسنان. مثل هذا الشعور الجميل كان يلازمه وهو يدخن. شعور جميل يتنابه وهو يشتري علبة السجائر بعد الظهيرة يوم الأحد، وتبقى معه لليوم التالي. يفرك السيجارة بين أصابعه حتى تلين، ثم يضعها مع علبة الكبريت في جيب سرواله بعد أن لانت. كانت السجائر يوماً ما واحدة من أشياء قليلة كان يحرص على أن يأخذها معه باستمرار. لف غطاء ملصقات النيكوتين الفارغة في منديل ورقي

إلى أن يلقي بها في سلة قمامة في وقت لاحق. لم يكن يحب أن يلاحظ زملائه في العمل أغطية ملصقات النيكوتين الفارغة ملقاة في القمامة.

عاد إلى المعمل، ثم جلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه من قبل. مر وقت حتى استعاد هدوءه. خفتت الأنوار فوق أقفاص الحيوانات، وكاد الوقت المخصص لنوم الجرذان ينفذ. دب النشاط في الفئران، وانتشر صوت حفيف نشارة الخشب خافتا. شعر بالنيكوتين ينتشر في عروقه، ويزيد من نشاط خفقان قلبه كما هو موضح بتعليمات الاستخدام. راح ينقر بأنامله على الطاولة، ولكن بهدوء حتى لا يزعج الحيوانات. علا صوت هدير الأجهزة المثبتة على الأقفاص وتقيس أنشطة الفئران. ثم بدأت الإذاعة تبث مقطوعات موسيقية بناء على طلب المستمعين. ترسل "إيفانا" وأسرتها أجمل الأمنيات لزوجها بمناسبة عيد ميلاده. اتضح أن "أنتون" يعمل سائق على سيارة شحن، ولم يعد البيت منذ أسبوع. ولن يعود غداً أيضا. لكن "إيفانا" تتمنى أن يكون زوجها يستمع أيضاً الآن إلى إذاعتهما المفضلة، وأن يتذكرها وهو يستمع إلى المقطوعة الموسيقية. راح "تيو" يقول لنفسه أنه في الروايات في مثل هذه الحالات، يكون"أنتون" في أقاصي البلاد مع عشيقته التي أعدت له أمسية احتفالية بمناسبة عيد ميلاده. وأنها سعيد بان "أنتون" يقضي معها هذا اليوم الهام، وليس مع زوجته. مرر "أنتون" إصبعه على ساعده وهو يسمع تهنئة "إيفانا" في الإذاعة بمناسبة عيد ميلاده. هاهو مفعول النيكوتين في تزايد فراح "تيو" الجالس في معمله يوسع الصورة. فيمد "إنتون" جسمه حتى لا يضطر إلى الوقوف ليصل إلى المذياع ويغلقه. الآن عم الهدوء الغرفة، لا يسمع إلا أزير الثلاجة، وأجهزة القياس ،وحفيف نشارة الخشب التي تتحرك فيها الفئران التي استيقظت بحيوية متزايدة.

أخرج من أحد أدراج مكتبه كتاباً كان قد بدأ في قراءته. فتحه في المكان الذي وضع فيه بدلاً من شريطة الكتاب بطاقة حافلة. تجول بناظريه يبحث عن المكان الذي توقف عنده المرة السابقة. عم هدوء غير معتاد في المعمل. فلم يكن أحد ينتبه إلى إرسال الإذاعة. وإن سألت أحداً ممن يترددون على المعمل عما يقولونه عبر الأثير فلن يعرف. كان الجميع معتاد على صوت الموسيقى الرتيب في الخلفية. كان أحدهم يغلق الراديو أحياناً عندما يريد أن يشغل موسيقى من جهاز الكمبيوتر. أما الهدوء التام فلم يحدث في المعمل مطلقاً. التقط "تيو" أنفاسه وراح يقرأ بصوت عال: "انحرف "كونراد" عن الطريق السريع". كان يقرأ بصوت مكتوم، لكنه انتشر في أرجاء الغرفة. تحركت الفئران في أقفاصها، وانسلت إلى داخل دوائر معدنية.

تصدر صلصلة تحت أقدامها وهى تتدحرج. واصل "تيو" القراءة: "ركن سيارته، ثم أطفأ محرك السيارة". كتم "تيوم" أنفاسه برهة وهو يتجول بناظريه في أرجاء المعمل. استغرق الأمر لحظات حتى بدأ يدرك مغزى القصة. انتشر الظلام في الحجرة. كان الطقس مازال صيفياً لكن ساعات النهار في تناقص مستمر. المصابيح المعلقة فوق الأقفاص مازالت مطفأة. مد يده مرة أخرى وأشعل المصباح المثبت في قرص الطاولة. وجه ضوء المصباح حتى يسقط على صفحة الكتاب مباشرة. راح يتابع حركات الفئران، ثم واصل القراءة. كان يعرف أنه سوف ينشغل بالكتاب، وينسى أنه في المعمل، تماماً كما كان يفعل في القطار، ولا يفوته أنه سينزل في المحطة التالية.

وكما لم يعرف أحد بأمر ملصقات النيكوتين، لم يعرف أحد أيضاً أن "تيو" كان يقرأ للفئران. كان "تيو" على قناعة بأن الأصوات تبعث في الفئران الهدوء. وكعادته في كل يوم عطلة تذكر أمه التي كانت تقرأ له كل مساء قبل أن يخلد إلى النوم. لم تفارقه هذه الذكرى يوماً ما. كان يسترجعها باستمرار، أسبوعاً تلو الآخر. في البداية يستمع إلى حكاية كعكة الزنجبيل، ثم بعد أن كبر على الحكايات الخرافية كانت أمه تختار له قصص مرعبة، وحكايات بوليسية. ظلت تقرأ له حتى عندما صار يجيد القراءة. كان لا يحكي لأقرانه عن هذه العادة، وعن وحكايات المساء. فقد تجاوز مرحلة القراءة هذه. حتى أبيه كان يعلق على الأمر بأنه لم يعد من اللائق أن تجلس أمه على فراش صبي قارب سن المراهقة. لكن "تيو" لم يكن يستطيع النوم إلا على صوت أمه. لم تتوقف مرحلة القراءة هذه إلا عندما بدأ "تيو" يعود إلى البيت في المساء، بعد أن كانت أمه قد راحت في سبات عميق.

بعد أن أنهى قراءة فصل من الرواية، كانت غالبية الفئران تتحرك في أقفاصها، وتمد أجسامها لتمسك بأماكن الطعام، بينما رأس القلم على الرسم البياني تسجل مقدار استهلاك الطعام. تدافعت الأوراق من القرص شيئا فشيئا وجهاز التسجيل يدق. نهض "تيو" من مكانه، وتقدم حافياً من الراديو وأشعله من جديد. انتهت المقطوعات الموسيقية التي تبث بناء على رغبة المستمعين. ويبثون الآن حواراً مع مخرج سينمائي أنتهي للتو من أحدث أفلامه. اللزقة مازالت على ذراعه، لكن مفعول النيكوتين انتهى، وغلبه النعاس. فغادر المعمل، وأغلق الباب من خلفه بحرص.